# كلمات

## الجنــوب

□ ١ □

جسدٌ بعد جسد ، يتشظى ، كما انفجار كوكب .
على الشظية وردةٌ ،
على الوردة بيتٌ ،
على البيت نافذتانِ :
واحدةٌ على الدمِ ،
والثانيةُ على القمح .
نافذةٌ على الدمِ : تفتحُ السوادَ
حيث الرماديُ سيد اللونِ ،
حيث الليلُ ،ذو الدكنة العالية،يسيلُ على الأفق،
حيث لا مجدَ لسوى الموت .
نافذةٌ على القمحِ : تفتحُ الأرضَ
حيث الفصولُ كلّها مطرٌ ،
حيث التراب يتهيأ ليلدَ مجد الخبز ،
والخبزُ ، بدوره ، يتهيأ لان يلدَ الفرح .

□ ٢ □

كوكباً كوكباً ، ينفجر جسدُ الجنوب .
ترسمُ شظاياه على الأفق وجه الزمن الطالع من الشهادة
تؤسسُ لميلاد الأرض ،
تمحو ما هو كائن ،
تكتب ، بالأحمر ، ما ينبغي ان يكون .

ما هو كائن ، هو ما قبل الجنوب . هو عربُ الطوائف والقبائل والألقاب .

هو عرب العجز .

ما ينبغي أن يكون : هو النهارُ ، منتصباً في أفقٍ من غضب . هو الأرضُ ، متألقةً بالمجد ، مغتسلةً بوردة الشهادة . هو المستقبل ، مرسوماً بريشة الدم العظيم .

□ ٣ □

كوكباً كوكباً ، ينفجرُ جسدُ الجنوب .
الجنوب ! كيف نتهجّى هذا الاسم الرشيق ؟،
تلثغ أغصانه النشوى ؟!
اسمٌ بأربعة أقمارٍ : تنزلقُ على الفمِ ، وتذوبُ في الصوت .
أربع أشجارٍ : شجرةٌ لسرير السماءِ .
شجرةٌ لبياض الهواءِ ،
شجرةٌ لكبرياءِ البحرِ ،
وشجرةٌ لميلاد التراب .

الجنوب !
كيف نتهجّى أشجار هذا الاسم ،
ونعلقُ عليها كواكبَ القصائد القادمة ؟!

□ محمد عمران □

## حقائق واستنتاجات أساسية حول أزمة التطور التابع في بلدان العالم الثالث وضرورة التطور المستقل لهذه البلدان

د. بهجت سليمان



## الواقع الإقتصادي والاجتماعي والسياسي في سورية ولبنان من ١٩٤٣ ــ ١٩٤٨

د. سمر بهلوان

# حقائق واستنتاجات أساسية حول أزمة التطور التابع في بلدان العالم الثالث وضرورة التطور المستقل لهذه البلدان

د. بهجت سليمان



يعتبر التطور الاقتصادي والاجتماعي الرأسمالي التابع ، السمة الرئيسية العامة والمشتركة لأكثرية بلدان العالم الثالث في الوقت الحاضر ، ومن المعروف أن هذا النوع من التطور يدخل في ازمة متفاقمة مع نفسه ومع العالم الخارجي. ولقد كثر الكلام عن طبيعة وخصائص هذه الازمة ، وآثارها الضارة الخطيرة ، ليس على العالم الثالث وحسب ، بل وعلى الامبريالية التي صنعت هذه الازمة ، ومازال تصنعها وتزيدهـا حدة وتفاقما وعمقا ، مقاومة كل محاولات حلها

وتجاوزها بأسلوب ديمقراطي يجنب البشرية نتائج انفجاراتها المحققة ، وعواقبها المدمرة على السلام والامن العالمي . ان انفجارات هذه الازمة هي حل عنيف ومؤقت يكلف باهظا ، وتدفع ثمنه شعوب العالم ، دون ان تتوصل الى مقابل ، او نتيجة اوحل نهائي ، بل ان تفجر الازمة سوف يفضي الى ولادة ازمة جديدة اوسع نطاقا واكبر حجما(١) على المستوى العالمي . من هنا تبرز الضرورة التاريخية للحل الثوري لازمة التطور التابع ، الحل الذي يقتلعها من جذورها تماما ودون ان تخلق ازمة جديدة . ان أزمة التطور الراسمالي التابع هي الشكل النوعي الخاص الذي تتخذه الازمة العامة للراسمالية في بلدان العالم الثالث . وهي اذن جزء لا يتجزأ من هذه الاخيرة ، ولايمكن فهمها بالتالي الا في اطار فهم النظام الراسمالي العالمي الذي نشأت منه وترعرعت في تربته ومناخه ، وانبثقت عنه وبواسطته ، لتشكل جانبه أو وجهه الآخر الملازم عضويا لجانبه او وجهه الامبريالي .



ويستمد التطور التابع تناقضاته الخاصة من التناقضات العامة التي تحكم سير التطور الراسمالي العالمي ، ولذلك فان حل هذه التناقضات الخاصة مرهون بحل التناقضات العامة على الصعيدين الوطني والعالمي . ولقد بدأ هذا الحل يتبلور في صورتين متوازيتين ومتكاملتين ومتلازمتين :

اولا : ضرورة اقامة نظام اقتصادي عالمي جديد .

ثانيا : ضرورة التطور المستقل لبلدان العالم الثالث .

وسوف ننطلق الآن في دراستنا من المنهج الجدلي الذي يفرض علينا اتباع قاعدة : التفسير التاريخي العلمي اولا ، ثم البحث عن شروط وعوامل وأدوات التفسير الثوري ثانيا ، اي الانتقال من التفسير الى الحل والتغيير .

---

(١) هذه المقولة خاصة بأسلوب الانتاج الراسمالي ، وقد وردت في اماكن مختلفة من كتابات ومؤلفات أساطين الاشتراكية العلمية .

يعتبر التطور الرأسمالي التابع التجسيد المعاصر للاستعمار الجديد . وهذا الاخير هو استمرار للاستعمار الرأسمالي الامبريالي القديم بأساليب وأشكال جديدة مختلفة ، يغلب عليها الطابع الاقتصادي . فالذي تغير اذن ، ليس جوهر الاستعمار ونظام الكولونيالية العالمي ، بل هو شكلــه فقط ، حيث خرجت النيوكولونيالية من احشاء الكولونيالية(١) ، وقـد اقتضت ذلك طبيعة المتغيرات التاريخية وجملة من الشروط والظـروف والمعطيات الواقعية التي تلاحـق انبثاقها وتتابعها حاملـة معها ضروراتها ومسائلها الخاصة التي تتطلب حلولا لا مهرب منهـا في النظام الراسمالي العالمي . ولفهم التطور التابع أسبابا ونتائج لابد لنا اذن من فهم نقيضـه الذي يتولد عنه ويتعايش معه في حركة تفاعل وصراع دائمين ، اي فهـم الاطار الاكثر شمولا واتساعا وتركيبا ، والذي هو الاصل الذي تفرع عنـه التطور التابع ومايزال . وكل محاولة للسير في عكس ذلك الاتجاه ستبعدنا اكثر فأكثر عن حقيقة الامور ، وستفسر عن المزيد من الفشل في معرفـة أسباب وظواهر وحقائق التطور التابع في بلدان العالم الثالث ، ولنـا في النظريات الاقتصادية البورجوازية الاستعمارية الجديدة حول التخلف في بلدان العالم الثالث خير شاهد وبرهان على صحة هذا الراي(٢) .

قديما في العصر ما قبل الراسمالي ، لم تكن التبعية لتشكل ضرورة تاريخية اقتصادية بين مجتمعين أو بلدين ، لان اساليب الانتاج ما قبـل الرأسمالي لم تطرح مثل هذه الحاجة على المجتمعات المتصارعة والمتصادمة التي كانت تكفي ذاتيا بشكل عام ، وكان احتلال بلد لآخـر لا يؤدي الـى تغيير جذري في اسلوب الانتاج القائم في البلد الذي وقع عليه الغزو بسبب

(١) « الكولونيالية ، والنيوكولونيالية » تعنيان : النظامين الاستعماريين القديم أو الكلاسيكي ، والحديث أو المعاصر .

(٢) يمكن لمن يريد الوقوف عند هذه النقطة بالتفصيل الرجوع الى كتابنا : « التطورات الاقتصادية والسياسية في بلدان العالم الثالث وتاثيرها على النظريات الاقتصادية » وفيه تحليل نقدي للنظريات الاقتصادية البورجوازية حول التخلف ، وخاصة في الفصل الرابع ، ص ٢١١ ومابعد .

تشابه او تماثل اسلوب الانتاج في البلد الغازي والبلد المحتل . وهنالك فكرة هامة لابد من ابرازها باختصار ، وهي أن كافة اساليب الانتاج ما قبل الراسمالية لم تكن بعيدة ومنفصلة عن بعضها ؛ لا من حيث القوى المنتجة ولا من حيث علاقة الانتاج ، فلقد تعايشت هذه الاساليب وتشابكت دون أن يزيل واحدها الآخر او يحل محله . فالمشاعة أو الملكية المشاعية بكافة صورها بقيت بقوة رغم نشوء وتطور اسلوب الانتاج العبودي ، ومن بعده الاقطاعي ، وبرأينا فان هذين الاخيرين قد وجدا وتطورا دائما في احضان المشاعة القبلية والعشائرية . واستمرا في اطارها العام . كما كانت الحال في حضارة العراق وروما واليونان وسواهم . ان انتقال المجتمعات البشرية من طور ادنى الى طور اعلى من الناحية الاقتصادية في الزمن ما قبل الراسمالي . كان يعتبر اضافة لا إزالة للطور الادنى . وهذا ما يثبته الواقع التاريخي الفعلي للحضارات القديمة التي استمرت حتى ولادة التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الراسمالية . ونعتقد ان السر في اطلاق مصطلح « التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية » على اسلوب انتاج ما ، يكمن في ان هذا الاسلوب لم يكن الاسلوب الوحيد القائم . بل : المسيطر الاشد بروزا ، ومع ذلك لا يمكن اغفال حقيقة ان جميع الاساليب المذكورة لم تكن لتخرج او تبتعد كثيرا عن اطار الملكية الجماعية التي كانت تمثل ضرورة موضوعية ليس بوسع المجتمعات او الافراد ان تستمر وتحافظ على نفسها الا من خلالها في مواجهة اية اخطار خارجية تتهددها(١) .

ان ولادة الزراعة لم يلغ الصيد ولا الرعي ، بل لقد تضافرت هذه الانماط معا وتفاعلت باستمرار ، ولم يكن غزو مجتمع أو قبيلة لمجتمع

---

(١) من المفيد بهذه الناحية الاطلاع على كتاب « تطور أشكال الملكية » للباحث التركي الدكتور حكمت قفلجملي ، الترجمة العربية لـ : فاضل جتكر ،. وفيه معالجة وتحليل علمي جاد لهذه الفكرة .

أو قبيلة أخرى ليؤثر اقتصاديا على الطرفين بالمعنيين الكمي والنوعي ، وبحيث تصبح علاقاتهما الاقتصادية ضرورة لا فكاك منها بعد زوال الغزو والاحتلال . . وذلك على العكس مما نشهده في العصر الرأسمالي تماما .

لقد كانت العلاقات الاقتصادية الدولية شبه معدومة ، وكانت تقتصر على نوع من التجارة والتبادل الضعيف الذي لا يؤثر على الحياة الاقتصادية الداخلية للمجتمعات ، ولم تتحول التجارة الدولية والتبادل الاقتصادي بين الدول الى ضرورة موضوعية وحتمية تاريخية لا سبيل الى الوقوف عكس تيارها الا عندما دخلت البشرية العهد الرأسمالي . هذا النظام الاقتصادي الاجتماعي الوحيد الذي خلق السوق العالمية ، وتحول فيما بعد الى نظام عالمي سائد مسيطر في جميع أنحاء المعمورة . ان أيا من أساليب الإنتاج السابقة لم يكن قادرا أو مرشحا لخلق السوق العالمية و لخلق نظام اقتصادي دولي تترابط فيه مصالح جميع الامم والبلدان بقوة متزايدة ، وتصبح فيه العلاقات الدولية ذات تأثير مباشر وأساسي في التطور الداخلي لأي بلد أو مجتمع من المجتمعات .



ان أسلوب الانتاج الرأسمالي هو الوحيد من بين أساليب الانتاج السابقة ، الذي لا يقوم ولا يتطور الا على أساس تدمير وازالة هذه الاخيرة من طريقه(1) . ولقد جرى ذلك داخل الاطر القومية للبلدان الاولى التي

(1) هذا القانون الذي ورد في « البيان الشيوعي » انطبق على الدول الرأسمالية الاولى في أوروبا وامريكا الشمالية واليابان والتي دخلت المرحلة الامبريالية فيما بعد . لكنه لم ينطبق على بقية دول العالم الاخر التي تحول الى مستعمرات وبلدان تابعة للمتروبولات ، ويعترف ماركس وانجلز بذلك ، فيما بعد ، في دراساتهما حول الاستعمار في الهند وغيرها حيث عمل الرأسمال الاحتكاري الامبريالي على اخضاع أساليب الانتاج ما قبل الرأسمالية والسيطرة والاتكاء عليها من أجل تواجده دون ان يحاول ازالتها وتدميرها ، بل اكتفى بتدجينها لمصلحته الخاصة وفقا لحاجاته الاستعمارية الاقتصادية والسياسية ، على البنى الفوقية قبل الرأسمالية بعد روضها ودجنها في خدمة مشاريعه الاستعمارية .

دشنت عهد الرأسمالية ( بريطانيا ، ثم فرنسا ، فألمانيا .. الخ ) ولكن اسلوب الانتاج الرأسمالي لم يكن بوسعه الاستمرار في تلك الاطر القومية الضيقة التي ولد وترعرع داخلها ، وكان لابد له حتما من تخطيها لينتشر ويتغلغل بشتى الطرق في جميع أنحاء العالم بعيدها وقريبها ، وليفعل نفس ما فعله داخل البلدان التي انطلق منها ، ولكن هذه المرة بصورة مختلفة تماما . فعندما حطم البنى والتراكيب الاقتصادية الاجتماعية التقليدية لم يخلق بديلا عنها ، بل اكتفى بخلق كيان أو جيب اقتصادي رأسمالي اجنبي يستغل ويستثمر ويسيطر على كل ما يحيط به اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وعسكريا . ولقد ابرز كلاسيكيو الاشتراكية العلمية هذه الحقيقة حول استعمار بعض البلدان كالهند وغيرها .

لقد تطورت القوى المنتجة الرأسمالية الى الحد الذي بلغت فيه حجما لا يتناسب وطابعها القومي الضيق ، فتجاوزته لتتخذ طابعا عالميا دوليا ؛ حيث الانتاج أو التسويق اصبحا يتطلبان سوقا ونظاما اقتصاديا دوليا يتيح تحقيقهما . ان العملية الانتاجية باتت تحتاج الى جهود وطاقات ومساهمة اكثر من بلد ، وعملية التصريف تحتاج الى اكثر من سوق قومية . وحل هذه المعضلة كان يفترض التوسع الرأسمالي الدولي بأسلوب استعماري كلاسيكي مباشر مارسته طلائع القوى الطبقية الرأسمالية الاستعمارية في أوروبا ضد جميع بلدان العالم التي تأخرت عنها في الوصول الى المرحلة الرأسمالية . لقد كانت الضحية اذن هذه البلدان المتأخرة التي لم توفق في الوصول الى مرحلة الانتاج الرأسمالي بنفس الوقت الذي وصلت فيه بلدان أوروبا اليه . وكان جزاء تأخرها المذكور أن وقعت فريسة للاستعمار الرأسمالي من قبل البلدان الاوروبية التي حظيت بميزة سبقها لبقية بلدان العالم في دخول المرحلة الرأسمالية المذكورة .

ان التوسع الرأسمالي فوق القومي لم يكن ممكنا الا على حساب البلدان المتأخرة ، وكان اخضاع هذه البلدان استعماريا هو السبيل

الوحيد لتحقيق ذلك ، وهكذا لأول مرة في تاريخ البشرية يولد تقسيم عالمي العمل ، حيث كان من المستحيل وجوده في التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية ما قبل الراسمالية ، واتخذ الاقتصاد طابعا دوليا عالميا ترابطت بواسطته جميع الاقتصاديات القومية بروابط عضوية ضرورية لا سبيل الى قطعها دون ان تعرض الاقتصاد القومي لاضرار جسيمة لا قبل له بتحملها . واذا كان قد حدث مثل هذا الامر في بدايات هذا القرن ، فقد كان حدوثا نسبيا من جهة اولى ، وكانت الامبريالية في مرحلتها الاولى من جهة ثانية ، ولم يكن ذلك الحدوث ليمثل قاعدة عامة بل استثناء لها من جهة ثالثة . وكانت الدول التي تعرضت لمثل هذا الانفصال او الانقطاع النسبي تتميز بخصائص متفردة تتيح لها التخفيف الكبير من الاضرار التي تولدت عن الانفصال او الانقطاع المذكور من جهة رابعة ، ان عدد الدول التي خاضت هذه التجربة محدود للغاية مثل روسيا التي فرض عليها الحصار والعزلة الاقتصادية بالقوة ، واليابان التي تطورت راسماليا وبصورة مستقلة بحكم جملة من الظروف المختلفة ، وكانت هاتان الدولتان كبيرتان من حيث عدد السكان وحجم السوق الداخلية ، وتتمتعان بمستوى مقبول من تطور قواهما المنتجة الداخلية ، الى ما هنالك من عوامل اخرى ليس هنا مجال سردها او التفصيل فيها . وبعبارة مختصرة نقول : انه ليس لدى الدول المتاخرة ، وخاصة الصغيرة منها ما يؤهلها او يجعلها قادرة على تحمل اعباء الانفصال او الانقطاع عن الاقتصاد الراسمالي العالمي ، وهذاما يدحض نظريات بعض الاقتصاديين الذين يراهنون على ذلك معتمدين في نظرياتهم على تلك الافتراضات النادرة الحدوث ، ( ومن امثال هؤلاء الاقتصادي الاميركي اللاتيني اندريه غندر فرانك ، حيث ترد نظريته هذه في العديد من كتاباته الاقتصادية مثل « تطور التخلف » وغيرها ) والتي ترى في الانفصال سبيلا لتحقيق التنمية القومية الناجحة

وتعتمد في البرهنة على ذلك امثلة ليست اكثر من استثناء تاريخي من جهة ، ولا يمكن تطبيقه في كل الظروف من جهة ثانية .

ان التقسيم الراسمالي العالمي للعمل قائم على تناقض دولي اقتصادي اساسي تنشطر بموجبه جميع البلدان والامم الى زمرة من البلدان الراسمالية المتطورة الغنية . وكثرة هائلة من البلدان المتاخرة الفقيرة . فالاولى هي التي تسيطر وتتحكم بالمبادلات والتجارة والسوق الدولية . وتستغل وتظلم من خلالها ، وبواسطة اساليب كثيرة مختلفة ، بقية البلدان والامم . البلدان الاولى تمثل « المركز » الصناعي المتطور . وبقية البلدان الضعيفة تمثل « المحيط » الزراعي والمنجمي المتخلف ، تلك هي المعادلة التي تخلقها الراسمالية : اقتصاد عالمي ، نواته صناعية متطورة ... وقشرة سميكة هائلة متخلفة . وجه متقدم ، ووجه متخلف ، حفنة من الدول الامبريالية الاستعمارية تستثمر وتستغل جميع ما يحيط بها من بلدان متاخرة وفقيرة وضعيفة . الاقتصاد الراسمالي العالمي قام منذ البداية . اذن . على وجود هذا التناقض الاقتصادي المركب بين امم امبريالية غالبة وامم مغلوبة ومظلومة . انها علاقة استغلال طبقي وسعت الراسمالية نظامه ليتخذ طابعا قوميا وعالميا راسخا عبر ما يسمى بالنظام الكولونيالي ( الاستعماري ) العالمي الكلاسيكي ومن بعده النيوكولونيالي ( الاستعماري الجديد ) .

لقد فرض التقسيم الراسمالي العالمي للعمل اذن بالقوة ومن الخارج على الدول المستعمرة والتابعة منذ البداية . وباتت اقتصاديات هذه الاخيرة جزءا لا يتجزا من الاقتصاد الراسمالي العالمي ، يؤدي دوره الذي رسمته له بلدان الميتروبولات السابقة في اطار احتياجات حركة وتطور اقتصاديات المراكز الراسمالية المتطورة ( الامبريالية ) فظلت المستعمرات السابقة تؤدي دور المزرعة والمنجم الغني بالثروات الطبيعية والقوة العاملة الرخيصة . التي تزود الشركات الاحتكارية الامبريالية

بكل ما تحتاجه منها ، بالاضافة الى انها تمثل سوقا هائلة لتصريف الانتاج السلعي الراسمالي فيها . والبلدان المتأخرة هي بهذا المعنى الاقتصادي منبع غير محدود للحصول على « الربح » او « فضل القيمة » بالنسبة للبورجوازية الاحتكارية الامبريالية .

ولقد جرت عملية نهب واستغلال واغتصاب ثروات العالم الثالث الطبيعية والاقتصادية بابشع اساليب العنف والقسر والاكراه العسكري الدموي بالاضافة الى الاكراه الاقتصادي . والتاريخ حافل بالامثلة المثيرة على صحة هذا الحكم ، والتي تفضح دون لبس الهمجية المرعبة التي اتصف بها النظام الراسمالي في بداية صعوده الاستعماري العالمي ، ويجد المرء في كتابات ماركس وانجلز حول هذا الموضوع ما يعطي تصورا مقبولا حول ذلك .(١) كما يمكن لمؤلف لينين الشهير « الامبريالية اعلى مراحل الراسمالية » ان يعطي لوحة دقيقة وممتازة حول نشوء وتطور الامبريالية حتى مرحلة الحرب العالمية الاولى . وفي هذه المرحلة بالذات كان الرأسمال الاحتكاري الذي [illegible] على كافة انحاء الارض لتغدو جميع البلدان والامم والمناطق مجرد توابع وملحقات اقتصادية مباشرة له ، يفعل فيها وبها كما يحلو له ، او كما يلائم وطبيعته الاستغلالية الخاصة . وهذا يعني ان تقرير مصير بلدان عالم المستعمرات الاقتصادي كان قد احتكر بيد القوى الامبريالية الغازية والمسيطرة . فالاجنبي هو الذي يقرر اتجاهات وطبيعة ونوعية الحركة الاقتصادية في البلدان التي احتلها طبقا لمصالحه الاستغلالية الطبقية والقومية الخاصة بعيدا عن المنطق والعدل والانسانية ، او اية اعتبارات اخرى تتعلق بالبلدان المظلومة التي تستعمرها .

ولكن اول ما اثار اهتمام بورجوازية الرأسمال الاحتكاري في المتروبولات ( الدول الاستعمارية ) ، الثروات الطبيعية الزراعية والمعدنية في بلدان



---

(١) كتاب « في الاستعمار » ماركس وانجلز .

العالم الثالث التي كانت مستعمرة بالاضافة الى كونها سوقا واسعة ، كما أشرنا . فكان من جراء ذلك ان استوطن الرأسمال الاجنبي واستقر في تلك القطاعات والمجالات الانتاجية التي تدر عليه الربح الوفير والسريع والمضمون بالنسبة له ، اضافة الى ضمان تصريفها بسهولة ويسر في السوق الراسمالية العالمية ، ومن اهم هذه المجالات الانتاجية التي شمل فيها : الصناعات الاستخراجية ، والتحويلية الخفيفة الاولية لبعض المواد الخام الزراعية او المعدنية التي تحتاج الى معالجة اولية قبل ارسالها الى المصانع الرأسمالية في المتروبولات ، لتعود ثانية بعد اتمام معالجتها الصناعية النهائية ، الى البلدان المتأخرة . فتباع فيها بأسعار تعادل اضعاف السعر الذي بيعت فيه كمواد اولية خام .

لقد كانت المجالات الانتاجية التي استوطنها الرأسمال الاحتكاري الاجنبي مقطوعة الصلة نسبيا بكل ما حولها من قطاعات او مجالات انتاجية محلية تقليدية ، ومرتبطة بشدة بالهيكل الاقتصادي الرأسمالي الامبريالي الخارجي ، تمده بما يحتاجه وتأخذ منه ما تحتاجه ايضا لاستمرار وجودها داخل البلدان المتأخرة . انها علاقة عضوية حميمة بين الاصل الذي يقع خارج البلدان المتأخرة والفرع الاجنبي الذي يعشش وينمو في داخلها وعلى حساب تطورها وحياتها الاقتصادية الداخلية .

وفيما يتعلق بالبنيان الهيكلي للاقتصاديات الكولونيالية ، فقد خلق بالشكل الذي يلبي حاجة الرأسمال الاجنبي ويتلاءم مع تأمين مصالحه الاستغلالية الاقتصادية وغير الاقتصادية .

ان الآثار التي ترتبت على غزو الرأسمال الاحتكاري المتربولي للبلدان المتأخرة لم تقف عند هذا الحد ، فاذا كان مقطوع الصلة بالقسم الاكبر من التركيب الاقتصادي المحلي نوعا ما ، لكنه عمل على ترويضه واخضاعه وتخريبه وتحويره باستمرار ، وكانت المنفعة التي يجنيها من وراء ذلك تتمثل بضرورة خلق « جيش احتياطي للعمل » والحصول بواسطة

ذلك على اليد العاملة الرخيصة ، وتوليد وتنمية الزراعة بالاتجاه الذي يخدم احتياجات السوق الراسمالية اي تحطيم الاسس التقليدية للانتاج الزراعي واستبدالها باسس راسمالية ، حيث الانتاج الزراعي بات في خدمة السوق الخارجية ، ودون ان يترافق ذلك او يؤدي الى تطوير القوى المنتجة الزراعية في الريف . مما نتج عنه النمو السرطاني « الاحادي الجانب » في الزراعة ، بعيدا عن تلبية احتياجات المجتمع الى الغذاء وما اليه . وهذا ما اسفر عن ولادة ما يسمى الان بازمة الغذاء والجوع المتفاقمة في عالمنا الثالث .

لقد نمى الراسمال الاجنبي علاقات الانتاج الراسمالي في البلدان **التي استعمرها** ، في اطار المحافظة على الطابع المتاخر **والتقليدي للقوى المنتجة . اذ** حتى الانتاج القائم على اسس تقليدية **من حيث القوى** المنتجة قد اصبح في خدمة السوق والتبادل . واضمحلت الزراعة البطريركية ( البيتية ) الى اقصى حد ، لتحل محلها زراعة المحاصيل التجارية كالقطن والبن والكاكاو والشاي والموز .. الخ . وتقلصت الى درجة كبيرة زراعة المحاصيل الغذائية الرئيسية الهامة كالقمح وسواه . ولم تعد كافة البنى والتراكيب والعلاقات الاقتصادية الاجتماعية ماقبل الراسمالية كما كانت عليه قبل الاستعمار الراسمالي ، بل تاثرت باسلوب وعلاقات الانتاج الراسمالي بدرجة معلومة ، وخضعت لسيطرته وقيادته وهدفه ، واضحت تدور في فلكه العام دون ان تندمج فيه تماما ، وانفصلت بنفس الوقت عن اصلها وشكلها التقليدي الصافي . فباتت متارجحة ضائعة بين القديم الذي يمثل جذورها المبتورة ، والجديد الذي لم يسمح لها بالاندماج به والانتماء له نهائيا .



انه الاقتصاد المشوه ذلك الذي خلقته الراسمالالية المحتلة داخل البلدان المتاخرة ، خلال المرحلة الاستعمارية الكلاسيكية . حيث النمو الصناعي الراسمالي الجاد الذي تسيطر عليه الشركات والراسمال

الاجنبي يعيش في قلب محيط من الانتاج التقليدي المتخلف المهجن والمدجن ، والذي ظل مبعدا عن ركب التقدم الصناعي . اقتصاد مزدوج مختلط هجين تتشابك فيه اساليب انتاج متنافرة ومتجاورة ، متناقضة ومتفاعلة في كل اقتصادي متخلف وتابع ، ومفتقر الى اهم الصناعات الوطنية الاساسية والضرورية والملائمة لاي اقتصاد قومي حديث او يعمل على ان يكون حديثا ، وعلة ذلك كله لا تخفى عن اعين الباحث الشريف . فليس للراسمال الاجنبي ، سواء منه الذي يعمل داخل بلدان العالم الثالث ، او الذي يعمل في المتروبولات ، اية مصلحة ربحية اقتصادية او سياسية في خلق وتنمية الصناعات الوطنية الملائمة والاساسية كماهو قائم في البلدان الراسمالية المتطورة . ونسوق هنا بعض الاسباب التي تكمن وراء ذلك :

فاولا : ان المحرك الاساسي لسيلان راس المال هو الربح . ولهذا فان سيلان الراسمال الاجنبي داخل البلدان المتاخرة قد اتجه بحكم غريزة الربح هذه الى اقرب مجالات الانتاج الى الربح الوفير والسريع والمضمون ، وكانت هذه المجالات تعني تلك المنتجات القابلة للتصريف في السوق الراسمالية العالمية بسهولة كبيرة وهي المنتجات التي تحتاج اليها الصناعات الراسمالية في البلدان الامبريالية حاجة ماسة وقصوى ، كالمواد الخام الزراعية والمعدنية ... الخ .

وثانيا : كان الراسمال الاجنبي العامل في هذه الصناعة الوحيدة او هذه الصناعات القليلة جدا ( الصناعات الاستخراجية والتحويلية الخفيفة ) مقطوع الصلة نسبيا بالسوق المحلية ، سواء من ناحية تصريف منتجاته ، أو من حيث استهلاكاته الانتاجية ( كالحصول على الالات والمعدات والتجهيزات .. الخ ) او من حيث استهلاكاته غير الانتاجية ( الغذائية والترفيه ) حيث كان يحصل عليها من اسواق البلدان الراسمالية المتطورة .

وثالثا : لان قيام الصناعة الوطنية او القومية الاساسية والضرورية والملائمة في البلدان المتأخرة يعرقل تصريف المنتجات والسلع الراسمالية في اسواق تلك البلدان ، وذلك على العكس مما تفعله الصناعات الاستخراجية التي تعتبر امتدادا عضويا ضروريا لاستمرار النشاط الاقتصادي الصناعي في البلدان الاستعمارية ونموه المتواصل .

ورابعا : والسبب السياسي الذي لا يقل اهمية وقيمة ، هو ان قيام الصناعة الوطنية المتوازنة في البلدان المتأخرة يعطيها اقوى سلاح فعال للتحرر والاستقلال الاقتصادي من التبعية للسوق الراسمالية العالمية التي تسيطر عليها وتتحكم بقواها الدول الامبريالية .

تلك هي بعض من ابرز الاسباب التي تقف في وجه تصنيع البلدان المتأخرة تصنيعا متكاملا ومتوازنا غير مشوه من قبل الراسمال الاجنبي ، مما نتج عنه اعتماد البلدان المتأخرة في تأمين متطلباتها الاستهلاكية وبشكل كبير على بيع هذه المادة الخام او تلك في السوق العالمية والحصول من خلال ذلك على ثمن احتياجاتها الاستهلاكية المختلفة والمتنوعة من السوق الخارجية وتحديدا من اسواق الدول المتطورة .



عكذا ولدت ونمت عملية التقسيم الراسمالي العالمي للعمل ، التي يكمن فيها اصل ولادةونموالتطور التابع في البلدان المتأخرة ، وقد استمرت هذه المرحلة حتى العقد الثاني من هذا القرن ..

حتى « الفقرة السابقة » فضلنا وصف بلدان العالم الثالث بـ « المتأخرة » وليس هذا امرا عفويا ، بل لاننا لا نستطيع بالفصل وصفها بغير ذلك اذا شئنا الدقة العلمية ، فقبل سيطرة النظام الراسمالي العالمي ، كما تبين لنا في السياق السالف ، لم يكن للتطور التابع من وجود ، وبالتالي لم يكن العالم مقسما الى بلدان متطورة وبلدان متخلفة ؛ او بلدان عالم اول وثاني وثالث ، وحتى في بدايات التطور الراسمالي الاولى لا نستطيع تعميم هذه المفاهيم بل كان كل ما بوسعنا الحكم عليه

**هو وجود بلدان راسمالية متطورة ، وبلدان متاخرة عن ركب الحضارة الراسمالية . اما بعد ظهور المرحلة الامبريالية من تطور الراسمالية ، فقد بدأت بالفعل مرحلة ظهور « التخلف » و « التطور التابع » والاقتصاد الكولونيالي .واما مفهوم « بلدان العالم الثالث » فقد تاخر ظهوره الى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث شكلت بلدان العالم المذكور مجموعة متميزة من البلدان المتخلفة والتابعة لآليات الاقتصاد الراسمالي العالمي ،** وتتالف هذه البلدان ، في الوقت الحاضر : من مجموعتين هما ، مجموعة البلدان التي كانت مستعمرة ، ومجموعة البلدان التي كانت شبه مستعمرة او تابعة . وهنالك جملة كبيرة من الخصائص التي تبرر هذا التصنيف ، اما الصفة العامة الشاملة لها فهي ان بلدان العالم الثالث ليست راسمالية تماما ولا هي اشتراكية تماما ، بل تشغل حيزا ومكانا وسطا بين العالمين الراسمالي المتطور ( الامبريالي ) والاشتراكي المتطور ، من الناحيتين الكمية والكيفية .



إن النظام الراسمالي العالمي هو الام التي انجبت توام التقدم والتخلف ، توام المركز الراسمالي الصناعي الغني ، ومحيطه او اطرافه الهامشية الزراعية والخاماتية الفقيرة . فاذا كانت الراسمالية الام قد خلقت تناقضاتها بنفسها منذ ولادتها ولا تستطيع الحياة الا على اساس استمرار وتوسيع نطاق هذه التناقضات العضوية الذاتية ، فهل ستكون حال الفرع المولود على غير هذه الصورة ؟

**لقد ورثت كل من الامبريالية ووليدتها الكولونيالية تناقضات الراسمالية ، كما وجدت هذه التناقضات في شطري عالمنا : المتطور والمتخلف كل على حدة من جهة ، وفيما بين الشطرين من جهة ثانية ،** وتفاقمت هذه التناقضات بشدة متزايدة لتشكل ازمة عالمية خانقة ، بات من المستحيل الحيلولة دون انفجارها القاسي الحتمي ، وبالفعل حدث الانفجار عشية الحرب العالمية الاولى بين بلدان الامبريالية المختلفة ،وزجت

شعوب المستعمرات في هذا الصراع الدامي وهي لا تملك اختيارا حقيقيا لذلك . ولقد كانت هذه الحرب هي التعبير التاريخي العالمي الاول والاعظم عن افلاس الراسمالية العالمية ، واوجدت الظروف الملائمة التي ساعدت في نجاح الثورة الاشتراكية الاولى في تاريخ البشرية الحديث . وكان نشوب ثورة اكتوبر الاشتراكية التي قامت بها الطبقات الكادحة الروسية ، يعني تفكك وانشطار العالم الراسمالي المتطور الى جزء اشتراكي في الشرق ( روسيا والجمهوريات التي كانت تستعمرها او تسيطر عليها ) والجزء الاكبر هو البقية الباقية من البلدان الراسمالية في الغرب ( اوروبا واميركا الشمالية ) .

هكذا كانت خاتمة المرحلة الاولى من حياة النظام الراسمالي العالمي بمجموعه ، ويمكننا من خلالها ابراز بعض الحقائق والاستنتاجات الاساسية التالية :



اولا : ان مركز ثقل ازمة تناقضات النظام الراسمالي العالمي كانت ، في تلك المرحلة ، داخل البلدان الامبريالية المتضادة استعماريا . لان الشكل الاولي الذي اتخذه النظام الراسمالي العالمي ، لم يتلاءم واستمرار الراسمالية كنظام عالمي . وقد اصبح هذا الشكل ( تعدد وتنافس البلدان الامبريالية وكثرتها وصراعها الاستعماري ) يتهدد اسس المجتمع الراسمالي برمته ، ووجوده الجوهري العام بالذات . وقد جاءت الحرب الامبريالية الاستعمارية لتبرهن على صحة ذلك ، ولتؤكد بجلاء حجم الخطر الفعلي الذي سينجم عن استمرار الشكل القائم لنظام العلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية وما نجم عنه من تقسيم استعماري للعالم .

ثانيا : ان الثغرة التي احدثتها الثورة الاشتراكية السوفيتية في جزء من القسم المتطور للنظام الراسمالي العالمي كان نتيجة مباشرة وغير مباشرة لعوامل عديدة ، منها ما ذكرناه في الفقرة السابقة . ولقد جاءت ثورة اكتوبر هذه دليلا ملموسا صارخا على شيخوخة النظام الراسمالي

العالمي وتخلخله المتزايد ، وعجزه عن السيطرة على ذاته شكلا ومضمونا، وبالتالي برهانا على طابعه التاريخي الانتقالي ( غير الخالد كما يصوره منظرو البورجوازية ) . كما كانت ثورة اكتوبر . انذارا بقرب نهاية النظام الرأسمالي كنظام اقتصادي اجتماعي سياسي عالمي وحيد على الارض ، وتدشينا لعهد جديد هو عهد النظام الاشتراكي الذي اصبح ، فيما بعد ، وبالفعل ، مشارك ومقرر فعال في السياسة الدولية والتأثير المتزايد في تحديد المصير العام للبشرية . ولم تعد الرأسمالية تملك السيطرة المطلقة والوحيدة على العالم ، ولم تعد النظام الاقتصادي الاجتماعي السياسي العالمي الوحيد الذي يتحكم بالمصير العام للتطور العالمي بمختلف اشكاله واتجاهاته ، ومنها شكل واتجاه التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الكولونيالي الذي ساد في المستعمرات والبلدان التابعة السابقة .

ثالثا : بقيت المستعمرات والبلدان التابعة ، مستعمرات وبلدان تابعة، مع بعض التعديلات البسيطة التي لا تأثير يذكر لها في التقسيم الاستعماري السابق . ولقد تحدد التقسيم الاستعماري الجديد طبقا للنتائج التي اسفرت عنها الحرب العالمية الاولى ، واستئثار الدول الامبريالية المنتصرة بحصة الاسد كما كانت عليه الحال من قبل . والمهم ان المستعمرات والبلدان التابعة لم تتحرر كنتيجة للحرب العالمية او كنتيجة لانتصار الثورة الاشتراكية السوفيتية التي كانت ما تزال طرية العود ، ومنشغلة بالدفاع عن الذات وترسيخ انتصارها ، وابرز ما حدث هو تبلور البنى والهياكل الاقتصادية الرأسمالية الكولونية داخل المستعمرات واشباه المستعمرات ، وتكون الاقتصاديات التي اصبحت مرتكزات مادية ومعنوية للتخلف والتطور التابع فيما بعد .

رابعا : انشأت الدول الامبريالية « عصبة الامم » كمحاولة اولى لحل خلافاتها بالطرق السلمية غير العسكرية ، ولتلافي وقوع حرب عالمية جديدة فيما بين هذه الدول الاستعمارية المتنافسة على اقتسام واعادة اقتسام بلدان المستعمرات والبلدان التابعة .

خامسا : ان العوامل والمتغيرات السابقة التي طرأت على البناء الهيكلي للنظام الراسمالي العالمي قد وضعت حجر الاساس للازمة العامة المستمرة والمتفاقمة للراسمالية كنظام اقتصادي اجتماعي سياسي عالمي بشكل عـام .

تلك هي بعض من اهم الحقائق والوقائع والنتائج المترتبة على افول المرحلة الاولى ، والتي اثرت بشكل او بآخر على التطورات اللاحقة في المرحلة التاليـة .

ان المرحلة التالية لتطور الراسمالية العالمية تمتد لتشمل فترة ما بين الحربين العالميتين ؛ ولم تكن هذه المرحلة لتختلف كثيرا عن سابقتها من حيث التشكيل الهيكلي للاقتصاد الراسمالي العالمي وتقسيماتـه الاستعمارية ، وصور نشاطه الكولونيالي . ما عدا بعض العناصر الجديدة في العملية التاريخية العامة ؛ وازدياد اثرها التراكمي الكمي الذي اسفر فيما بعد عن تغيرات نوعية عميقة على المستوى العالمي .



فالامبريالية لم تستفد كثيرا من دروس الحرب العالمية الاستعمارية التي انخرطت في اتونها المدمر ، وتابعت نشاطها الاستعماري كالسابق . ولكن هذه المرة وفي هذه المرحلة ضمن شروط وظروف اعقد واصعب واكثر تكلفة . حيث نضال التحرر الوطني والقومي لشعوب المستعمرات والبلدان التابعة قد اكتسب طابعا وعميقا وابعادا كمية ونوعية جديدة ، عبر تصاعد بارد تارة وساخن في اكثر الاحيان ، خاصة بعد ، وبسبب ، انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا التي تعتبر اول ثورة تحررية بنفس الوقت الذي تعتبر فيه أول ثورة اشتراكية في التاريخ العالمي .

وفي هذه المرحلة استمر الشكل الكولونيالي الكلاسيكي ينمو ويتطور بسرعة اكبر ، ولكن بنفس الوسائل والاساليب التقليدية المعهودة تقريبا .

وفي ذات الوقت توطدت اسس ومقومات ومرتكزات دعائم الدولة السوفيتية الاشتراكية الاولى رغم كل ما تعرضت له من هجمات امبريالية شرسة وعنيفة منذ السنوات الاولى من حياتها . وراح النظام الاشتراكي الجديد يتطور بانتظام وقوة رغم الحصار والعزلة الاقتصادية التي ضربت حوله من قبل الدول الامبريالية . بينما ظلت هذه الاخيرة تغالب تناقضاتها المتراكمة والمتفاقمة يوما بعد آخر ، على جميع الصعد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، القومية والدولية .

وفي مناخ هذه المرحلة ترعرعت النازية والفاشية ، وبلغت التناقضات الحادة للازمة العامة للنظام الراسمالي العالمي وخاصة في قسمه الامبريالي ، حدا بات فيه من المستحيل وقف تفجرها الدموي العنيف من جديد وبنفس الشكل الذي حدث سابقا ، انما على نطاق اوسع واضخم ، وبندلع الصدام العسكري المريع الضواري الامبريالية المتربصة المتنافسة من اجل اعادة تقسيم العالم استعماريا ، واعادة ترتيب معادلة موازين القوى الاستغلالية الدولية بين مختلف البلدان الامبريالية . فكانت الحرب العالمية الثانية التي انتشر لهيبها وعم جميع انحاء العالم ومناطقه ، بما فيها الدولة السوفيتية الفتية التي فرضت عليها الحرب رغم ارادتها من قبل القوى النازية والفاشية الامبريالية .

وكانت الاثار والنتائج المترتبة على هذه الحرب العالمية الكبرى اكبر حجما وعمقا من الناحيتين الكمية والنوعية على المصير العام للتطور العالمي من الاثار والنتائج المترتبة على اندلاع الحرب العالمية الاولى . وقد مثلت نقلة نوعية جديدة في التاريخ العالمي ، ووسعت نطاق التحولات الجذرية الثورية الجارية على الصعيد العالمي ، معطية اياها حجما ودرجة وسعة اكبر شانا . وكانت الانذار الاول الذي اطلقته الازمة العامة للراسمالية لتشير من خلاله الى مدى الخطورة الذي وصل اليه تفاقمها .

ان الحرب العالمية الثانية مثلت انعطافا نوعيا جديدا في التاريخ العالمي - وحدا فاصلا بالنسبة للبلدان التي كانت مستعمرة او تابعة ، ومن أبرز التحولات الثورية العميقة التي تمخضت عنها :

اولا : تحول اسلوب الانتاج الاشتراكي من نظام اقتصادي اجتماعي لدولة واحدة وحيدة الى نظام دولي يتكون من منظومة من الدول الاشتراكية ، وقد حدث ذلك مع تحرر دول اوروبا الشرقية من النازية بمساعدة السوفييت . وانسلاخها التام عن الراسمالية وانضمامها الى المجموعة الاشتراكية ، واختيارها نهج التطور الاشتراكي .

ثانيا : انهيار النظام الكولونيالي الكلاسيكي العالمي ، وبدء عهد تحرر المستعمرات والبلدان التابعة . واستقلالها السياسي .



ثالثا : التغيرات النوعية الجديدة في موازين القوى الراسمالية التي حدثت لصالح امبريالية الولايات المتحدة الامريكية العلاقة على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والسياسية الدولية : ففي حين تحطمت دول اوربا الراسمالية الامبريالية تحت وطأة الحرب المدمرة . برزت الولايات المتحدة الامريكية كقوة امبريالية عظمى لا منافس لها ، لا في العالم الامبريالي والراسمالي فقد . بل على الصعيد العالمي كله : وترتب على ذلك ان تحولت الى المركز الاول والرئيسي للنظام الراسمالي العالمي . وبدا شكل جديد لنظام العلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية الراسمالية ، سواء بين الدول الامبريالية او بينها وبين البلدان التي كانت تستعمرها او تسيطر عليها . من خلال ما يسمى بالنظام النيوكولونيالي ( الاستعماري الجديد ) .

رابعا : بعد حل « عصبة الامم » انشئت « هيئة الامم المتحدة » التي قامت على اسس جديدة ، افضل تأثيرا واكثر تقدما ، وقد انضمت الى عضويتها الدول الاشتراكية ايضا ، وابقت باب الدخول في عضويتها مفتوحا لجميع الدول القائمة او التي يمكن ان تقوم نتيجة التحرر

السياسي . اي امام الدول الغنية . وشكلت من ضمن منظماتها « مجلس الامن الدولي » الذي يتألف من اعضاء دائمين واعضاء غير دائمين ينتخبون دوريا . وكان الاتحاد السوفيتي من بين الدول ذات العضوية الدائمة بالاضافة الى الولايات المتحدة الاميركية وفرنسا وبريطانيا والصين .

ولقد اصبحت الامم المتحدة هيئة دولية متطورة . تحل من خلالها الخلافات والتناقضات الدولية بالطرق السلمية . لتلافي دخول البشرية في جحيم حرب ثالثة قد تبيد الجنس البشري او القسم الاكبر منه على الاقل بسبب افتتاح عصر الحرب النووية المرعبة .

ان هذه المرحلة الجديدة تختلف نوعيا عن المرحلتين السابقتين في التطور العالمي . من حيث طبيعتها الخاصة وديناميكيتها السريعة بالنسبة لجميع الاطراف والقوى التي تكون المجموعة الدولية العالمية .



ففي هذه المرحلة راحت اوروبا الراسمالية المحطمة ترمم نفسها من جديد . بينما انشغلت المنظومة الاشتراكية ببناء وترسيخ النظام الاشتراكي العالمي الجديد . فيما كانت الولايات المتحدة الاميركية تغرق في غرور تفوقها المطلق العالمي، وتتطلع الى السيادة والسيطرة الاستعمارية التي لا منازع لها على الصعيد العالمي ، لتحل بالتالي محل المتروبولات السابقة التي خلفت وراءها فراغا متزايد الاتساع من الناحية الاستعمارية . اما بالنسبة لعالم المستعمرات والبلدان التابعة فقد انعطفت نحو مرحلة جديدة . تعتبر اساسية وحاسمة على طريق تحررها الوطني الكامل . وما ساعد على انتصارات حركات التحرر الوطني المتعاقبة والسريعة خلال هذه المرحلة هو :

١ ــ حمل الولايات المتحدة لراية التحرر والاستقلال السياسي للمستعمرات والبلدان التابعة لا بدافع من ايمانها بهذا التحرر ، بل بهدف ازاحة المنافسين الامبرياليين الاوروبيين القدامى من طريقها وانتزاع النفوذ والسيطرة الاقتصادية والسياسية من ايديهم على المناطق

التي تحررت وتتحرر منهم ؛ وذلك هو مضمون نظرية « ملء الفراغ » المشهورة . التي تبنتها امبريالية الولايات المتحدة الامريكية بعد الحرب العالمية الثانية . وهذا ما حدث بالفعل في العديد من مناطق العالم في امريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا ؛ حيث نهجت الولايات المتحدة اسلوب الاستعمار الجديد الذي يركز على الشكل الاقتصادي اكثر من سواه ويستخدم الاساليب السياسية والعسكرية الاستعمارية غير المباشرة لتحقيق هذا النهج ، اي انها ابتعدت نسبيا عن الاحتلال المباشر ، ما عدا بعض الاستثناءات المعدودة والمعروفة للجميع . ان وضع ومكانة وموقف الولايات المتحدة هذا قد ساعد على تسارع عملية التحرر الوطني لا بفعل « النية الطيبة » او « الروح الديمقراطية » كما ذكرنا ، بل بفضل العوامل المتميزة التي ذكرناها . خاصة وان الولايات المتحدة تملك كل الوسائل التي تمكنها من انجاح سياسة الاكراه الاقتصادي وسياسة الاكراه غير الاقتصادي ، بصورة غير مباشرة ، اي بواسطة تحريك قوى عسكرية تنتمي الى بلدان العالم الثالث وترتبط بها عمليا .



٢ ـ انهيار البلدان الامبريالية التقليدية بسبب الحرب وانشغالها بترميم ابنيتها الاقتصادية ، كما اسلفنا ، وبالتالي صعوبة مقاومة ومجابهة تصاعد النضال التحرري الوطني والقومي لشعوب بلدان المستعمرات واشباه المستعمرات .

٣ ـ خشية الدول الامبريالية من تنامي النفوذ والسمعة السياسية للمنظومة الاشتراكية داخل بلدان المستعمرات واشباه المستعمرات ، والحد من تنامي الروح الثورية التحررية والثورية الاشتراكية فيها بسبب تصادمها المباشر مع المستعمرين الاجانب من جهة ، وبسبب نجاح الاشتراكية في حل القضية القومية ، ونجاح تجربة تحرر المستعمرات الروسية على الطريقة الاشتراكية لمصلحة شعوبها القومية .

٤ ـ تنامي قوة حركات التحرر الوطني كميا ونوعيا ، وصعوبة وقفها أو القضاء عليها أو تقييدها وشلها ، وبالتالي تزايد التكلفة الاقتصادية

والسياسية والعسكرية المترتبة على محاولات تحطيمها واجهاضها غير المضمونة النتائج . وبالتالي شعور القوى الاستعمارية بعدم جدوى الحكم المباشر وخطورته على مصالحها .

٥ ــ ان وجود المنظومة الاشتراكية شكل عاملا رئيسيا جديدا في الصراع العالمي بين الامبريالية وعالم المستعمرات . لصالح تحرر هذه الاخيرة واستقلالها من مختلف النواحي الاقتصادية والسياسية وحتى العسكرية احيانا عندما يتطلب الامر ذلك . وقد تحولت المنظومة الاشتراكية اكثر فاكثر الى سند دولي قوي متطور ومضمون ومأمون ضد الاطماع الكولونيالية الجديدة وممارسات الامبريالية الاستعمارية في بلدان العالم الجديد المتحرر ، للتو ، سياسيا من الاستعمار .

ان جميع هذه الشروط والظروف الموضوعية الجديدة ، قد افضت الى ظهور مرحلة متميزة وجديدة في التاريخ العالمي ، وفي تاريخ تطور البلدان المتحررة التي اصبح يطلق عليها ، كمجموعة دولية ، اسماء متعددة مثل البلدان المتخلفة ، او التابعة ، او المتحررة ، او الفتية ، او « بلدان العالم الثالث » تمييزا لها عن الدول الامبريالية « العالم الاول » والدول الاشتراكية « العالم الثاني » ، ونحن نفضل تسمية « بلدان العالم الثالث » لاعتبارات كثيرة لا ضرورة لذكرها او التفصيل فيها هنا .



وخلال العقدين التاليين للحرب العالمية الثانية نالت معظم بلدان العالم الثالث استقلالها السياسي ، واقامت دولها الوطنية والقومية الجديدة الفتية ، ووجدت نفسها فجأة امام مهمة قيادة تطورها الاقتصادي والاجتماعي بنفسها ، واختيار افضل واسرع مناهج التنمية والتحديث والتطوير ، للوصول الى مستوى تطور البلدان المتقدمة . فمالذي حدث حتى الآن ؟ ومالذي حققته هذه البلدان على صعيد التنمية الوطنية والقومية ؟

ان الغلاف السياسي التقليدي للكولونيالية قد تحطم ، وبرز غلاف جديد غير مرئي مباشرة ، وحبل السرة الذي كان يربط بين طرفي النظام الكولونيالي العالمي ظل قائما وبقوة : انه التكوين الاقتصادي الرأسمالي الدولي الذي ظل قائما ، والذي تتكامل وتترابط ، بموجبه ، كل من الاقتصاديات القومية الجديدة لبلدان العالم الثالث من جهة والاقتصاديات القومية للبلدان الامبريالية من جهة ثانية . فما دام الجوهر ما يزال قائما ، وهو البنى والعلاقات الاقتصادية ، فانه سوف يتمكن من تجديد جلده السياسي القديم المهترىء بجلد سياسي جديد ، يتجلى بالممارسات النيوكولونيالية . ان الشكل الكولونيالي هو الذي اصابه التبدل ، اذن ، وليس جوهره الاقتصادي ، وحل محله الشكل الجديد : انه النيوكولونيالية . لقد وجدت بلدان العالم الثالث نفسها في وضع اقتصادي كاريكاتيري حقا . حيث النمو الحاد لقطاع اقتصادي اجنبي او تابع للرأسمال الاجنبي او يسيطر عليه رأسمال اجنبي ، من جهة . وبقية القطاع او الفروع الممسوخة والضعيفة النمو من جهة ثانية . انه تركيب ونمو اقتصادي مرضي وشاذ ذلك الذي ورثته بلدان العالم الثالث من الاستعمار، اقتصاد كسيح مبتور، ناقص، لا يستطيع الاعتماد على نفسه. ولا يمكنه النمو والتطور الذاتي ، لانه يفتقر الى الحد الادنى من شروط ومقومات النمو والتطور الذاتي وفقا لمنطق ومتطلبات العصر الرأسمالي الحديث والمعاصر . ان الاستعمار الرأسمالي لم يخلق خلال تاريخ قيامه شروط ومقومات النمو والتطور الذاتي المذكورة داخل البلدان التي استعمرها واخضعها ، بل اكتفى بخلق شروط ومقومات نمو وتطور الرأسمال الاحتكاري الامبريالي ، وعمل على توطيد دعائمه واسس وجوده واستمراريته هو ، وكان الشكل الاقتصادي الذي صنعه يخدم مصالحه ومشاريعه وبرامجه الاستثمارية الاستغلالية الدولية مباشرة وبصورة غير مباشرة ، ولم تكن البلدان المستعمرة او التابعة تمثل بالنسبة له سوى ملحقات وتوابع او جيوب رأسمالية متممة ومكملة لدورة حياة الرأسمال الاحتكاري الاصلي الذي يقطن في المنبع الاساسي ، داخل البلدان الامبريالية نفسها . ان الرأسمال الاصلي الذي ولد في اوروبا .

قد خلق في بلدان المستعمرات امتدادات راسمالية له ترتبط به عضويا ، **فالامبريالية والكولونيالية لم تخلق في بلدان العالم الثالث اقتصادا راسماليا بل خلقت كيانات او قطاعات او فروع راسمالية وحسب** ، ولهذا كانت المناطق التي تستوطنها هذه القطاعات او الفروع الراسمالية لا تمتلك اكثر من اقاليم تابعة ومكملة للاقتصاديات القومية الامبريالية ؛ انها لم تكن تمثل اكثر من منطقة او اقليم اقتصادي داخل بلد يملك اقتصادا قوميا راسماليا متكاملا ، مع فرق ان هذا البلد اجنبي ويقع خارج النطاق الوطني والقومي الجغرافي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي للبلد الذي استنبت فيه هذا الفرع او ذاك من فروع الانتاج الراسمالي المتركزة في الصناعات الاولية والاستخراجية التي تحتاج اليها حركة الصناعة الراسمالية المتطورة في البلدان الامبريالية ذاتها . وهذا هو المقصود بعبارتنا التي سقناها والتي نود التأكيد عليها مرة اخرى وهي : ان الاستعمار قد خلق قطاعا او فرعا صناعيا معينا داخل بلدان العالم الثالث ، ولكنه لم يخلق اقتصادا راسماليا محليا متكاملا اسوة بالاقتصاديات القومية او الوطنية لبلدان الراسمالية المتطورة ، **ونؤكد ايضا على ان نموا راسماليا قد حدث ، في بلدان العالم الثالث ، بفعل الاستعمار وما حمله معه من راس مال اجنبي ، ولكن هذا النمو لم يكن في يوم من الايام تنمية راسمالية بل كان مجرد نمو عفوي تلقائي يستهدي دائما بالمصلحة الاستعمارية الراسمالية ويستهدف الربح ، وكان نشاطه كله يتمحور حول قانون الربح ، القانون الذي حدد دائما الصيغة والشكل الذي كان الراسمال الاجنبي يتخذه في ممارساته ونشاطاته الاقتصادية الاستعمارية** . ولقد شاءت الظروف الاقتصادية الراسمالية الدولية ان تكون هذه الصيغة او هذا الشكل مسطحا ينتشر ويمتد افقيا واحاديا ، دون ان يتمكن قط من التمدد والانتشار في العمق والارتفاع . فاقامة الصناعات الاولية والاستخراجية في مناطق توفر الخامات والمواد الاولية والمناجم الغنية ، لم يكن يعني في يوم من الايام تلبية لحاجة تنموية محلية ، بل تلبية لحاجات النمو الاقتصادي الصناعي في بلدان الراسمالية المتطورة الاجنبية . وقد جاءت تلك الصناعات الراسمالية التي اوجدها الراسمال

الاجنبي المستعمر على شكل انواع من النمو سرطانية ضارة وغير مبررة وطنيا ، وقوميا ومحليا ، وغير مرتبطة بصورة طبيعية بالوسط المحلي المحيط بها ؛ وهي تكاد تكون مستقلة تماما عن كامل البنية الاقتصادية المحلية وما تتضمن من قطاعات وفروع متاخرة وتقليدية نوعا ما . وبالفعل ظلت البنية الاقتصادية معزولة نسبيا عن التطور الراسمالي المستحدث بفعل عوامل خارجية استعمارية اجنبية . ولم تنل من التطور الراسمالي سوى القشور والفضلات غير المؤثرة تماما . وغير القادرة على التغيير الجذري لقوى الانتاج المحلية الكلية والعلاقات الاقتصادية المترتبة عليها . ما عدا ما الحقه بها من تخريبات وتفككات وتحويرات شكلية اكثر مما هي جوهريه . **ذلك هو كنه التخلف : انه التطور الراسمالي الكولونيالي المشوه الذي ورثته بلدان العالم الثالث من المستعمرين بعد تحررهــا السياسي من سلطتهم المباشرة . وتلك هي الصيغة الاساسية للتخلف** الناشيء عن الاستعمار الامبريالي مباشرة وبصورة اساسية ، ولهذا جاء التحرر الوطني تحررا سياسيا شكليا او صوريا شبيها بتحرر العامل حيال رب العمل الراسمالي . حيث نجد هذا الاخير مضطرا للرضوخ والخضوع تحت وطأة الموت جوعا ؛ وهو ما يجبره على التخلي عن حريته الشخصية الجسدية والمعنوية وبيعها لتجار العمل ( او السلعة المسماة بـ « قوة العمل » ) الراسماليين ، مقابل الحصول على الوسائل المعيشية الضرورية لاستمراره كائنا حيا . وبالمقارنة مع هذه الحال نجد بلدان العالم التي تحررت لتوها من الاحتلال الراسمالي الامبريالي الاجنبي في وضع يشبه الى حد كبير وضع العامــل في بلدان الراسمالية المتطورة ( الامبريالية ) فهي حرة بالقول لا بالفعل ، وهي مضطرة للتخلي والتنازل عن العديد من مقومات وشروط الاستقلال القومي والوطني مقابل حل معضلات تخلفها الاقتصادي والاجتماعي الذي لا يد لهــا في صنعه . ولا طاقة لها على تصفيته وازالته او القضاء عليه . طالما انها لا تملك شروط ومقومات تحقيق مثل هذا الهدف ، وفي نهاية الامر لا ترى مفرا من التطلع الى البلدان التي تملك تقديم مثل هذه الشروط والمقومات ، فتستجديها امــلا في الحصول على ما تريــد وترغب . ولكن البلدان

**الامبريالية تطلب ثمنا ، فما هو هذا الثمن ؟ انه المساومة على السيادة والاستقلال الوطني والقومي الذي ما يزال غضا طري العود وشكليا ، إنه المساومة على المزيد تلو المزيد من التنازلات والخضوع والتبعية ، وان بأشكال مستحدثة وبراقة ، وعندما تقبل بلدان العالم الثالث التي تحررت لتوها بمثل هذه العروض « النيوكولونيالية » فانها تعود من حيث أتت ، وتدخل من حيث خرجت ، خرجت من الكولونيالية لتدخل في النيوكولونيالية ، والنتيجة !؟ انها العودة الى احضان المستعمرين والاستسلام لانيابهم واظافرهم من جديد ، والامعان مرة اخرى في التطور الراسمالي النيوكولونيالي المشوه ، والانتقال من التطور التابع الى تعميق وتوسيع التطور التابع كميا ونوعيا . وهذه هي حال معظم دول العالم الثالث التي اصرت على المضي في طريق التطور والتنمية الراسمالية** ، والاعتماد في ذلك كله على وصايا ومقترحات ونظريات وارشادات ووصفات البورجوازية الامبريالية الحاكمة في القسم المتطور من العالم الراسمالي اي في بلدان الامبريالية الاستعمارية . ولهذا اسبابه الطبقية والسياسية المعروفة التي لا يمكن فصلها قطعا عن الاسباب الاقتصادية . انها لمفارقة كوميدية تراجيدية تلك التي بموجبها يلجأ العالم الثالث في حل مشاكله لعدوه وخصمه الذي تسبب في خلقها ، **فكيف يمكن للبلدان الامبريالية الاستعمارية ان تكون هي الخصم وهي الحكم في وقت واحد ؟ بل كيف وباي منطق كاريكاتيري تقبل بلدان العالم الثالث بمثل هذه المسرحية ، رغم كل سطحيتها ووضوح ادوارها وشخصياتها وافكارها الاستعمارية ؟ وتوضيحا مبدئيا لدوافع واسباب ومغزى هذه المفارقة نعود للقول من جديد ان حل المسالة لا يكمن بـ « الدعوات الصالحات » وانما للمسالة محتواها الطبقي والسياسي الذي يفسر لنا حقيقة استسلام معظم بلدان العالم الثالث لقصلة الراسمال الاحتكاري الاجنبي والبورجوازية الامبريالية ، والائتمار بأمرها** ، وبقاء سلطة اتخاذ القرارات الاقتصادية المصيرية خارج متناولها ومستطاعها . ان صاحب القرار هو الذي يملك ويسيطر على اهم المفاصل الحساسة لاقتصاديات بلدان العالم الثالث ، وهو الذي يملك زمام الحركة الاقتصادية وحرية

التصرف في استخدامها ، وبيده وحده تقرير مصير التنمية وتحديد طبيعتها واتجاهاتها وخصائصها . ان الامبريالية هي التي تملك حتى الآن كل هذه الوسائل والاسلحة التي تمكنها من اجبار بلدان العالم الثالث على قبول العروض النيوكولونيالية التنموية الواهمة والزائفة . ان الاكراه الاقتصادي والسياسي الذي تستخدمه الامبريالية اصبح في طليعة اشكال الاكراه الاستعماري في الوقت الحاضر . وقد اتخذ ويتخذ هذا النوع من الاكراه صورا أشد وأوسع تعقيدا وتأثيرا على مسارات التطور الاقتصادي في بلدان العالم الثالث . ولكن اما من مخرج ؟ أما من حل تستطيع به هذه البلدان المتخلفة الخلاص من عرابها الامبريالي الاستعماري الجديد ؟ اما من طريقة تنتزع البلدان المتخلفة بواسطتها حريتها في تقرير مصيرها الاقتصادي ، وتمضي بعدئذ في سبيل اسقاط تخلفها وتبعيتها وخضوعها ، وتنمية اقتصادها بسرعة للتوصل الى التحديث والتصنيع والتقدم المنشود ؟ نعم هنالك مخرج ولكنه مستحيل بالنسبة للذين يستولون على مقاليد الحياة السياسية والاقتصادية : فمن هم هؤلاء ؟ انهم بورجوازية بلدان العالم الثالث وجميع الطبقات الرجعية التي لفظها التاريخ ، رغم انها ما تزال تعشعش وتعيش بقايا طفيلياتها حول الطبقة البورجوازية التابعة « الرثة » حسب تعبير « اندريه غندر فرانك » .



ان بورجوازية البلدان المتخلفة لا ولن تضحي بمصالحها الطبقية مقابل الاستقلال الوطني والقومي الاقتصادي والسياسي معا ، وهي لهذا السبب عاجزة عجزا مطلقا عن حمل رسالة التحرر الوطني والقومي حتى النهاية ، وخاصة رسالة التحرر الاقتصادي التي هي المهمة الطليعية والرئيسية الاولى في عصرنا الراهن . والسبب في ذلك هو ان التحرر الاقتصادي يستلزم اساسا الابتعاد عن طريق التنمية الرأسمالية بشكل عام ، وعن طريق التنمية الرأسمالية التابعة ( الكولونيالية ) بشكل خاص. وهذا ما يلحق الضرر بمصالح الطبقة البورجوازية داخل البلدان المتخلفة. وهذه الاخيرة ، قد حكم عليها التاريخ ان لا تكون قوية ومستقلة ، كما شأن زميلتها وحليفتها في البلدان الامبريالية ، وهو ما يدفعها بالضرورة

الى اللجوء نحو مثلها الاعلى المتجسد بالبورجوازية الامبريالية ، لتقديم مراسيم الخضوع والطاعة والولاء و « النذور » والتنازلات و « الهدايا » ومشاريع الشراكة غير المتكافئة في العملية الراسمالية الدولية للاستغلال الطبقي والقومي ، كل ذلك على حساب شعبها ووطنها وامتها التي تنتمي اليها شكليا وليس فعليا . **ان الوطن والامة بالنسبة للبورجوازية هما مادتان .. موضوعان للاستغلال والاستثمار الراسمالي لاعتصار « فضل القيمة » المعدل والمتحور في صورة « الربح »** ، وماذا يهم الطبقات الاستغلالية وخاصة البورجوازية بعد ذلك ؟ هل يهمها الوطن والامة ؟ هل تشعر بهما وبضرورة حريتهما ؟ كلا . ان حريتهما ، بالنسبة اليها ، هي في بقائهما تحت سلطة راس المال الاستغلالي ، كمنبع غزير وغني ودائم للربح والترف البورجوازي ، واذا كانت الحال هكذا فما الذي يضير بورجوازية بلدان العالم الثالث اذا هي تنازلت عن قسم من ارباحها للبورجوازية الامبريالية الاجنبية ، كثمن لخدمات هذه الاخيرة التي لا تعد ولا تحصى ولا تقدر بثمن ولا مهرب ، بالنسبة لها ، من الاعتماد عليها في كل شيء اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وحتى عسكريا . وعلى المستويين الداخلي والخارجي ؟ ما الضرر من التنازل للامبريالية والسماح لها بالتغلغل الراسمالي الاحتكاري بأشكال حديثة ، بدءا من الملكية الاجنبية المباشرة ، وانتهاء بالمشاركة او الاشراف .. الخ ، اذا كان ذلك لا بد منه لحماية حياة واستمرار بورجوازية بلدان العالم الثالث من اخطار ثورات شعوبها عليها ، والتي قد تعصف بها وبمصالحها ومواقعها الاقتصادية من الجذور ؟ أمام هذا الاختيار الفاصل ، لا تملك بورجوازية البلدان المتخلفة اختيارا آخر غير تسليم زمام امرها للامبريالية ، بائعة بذلك الوطن والامة مقابل حفنة من « الربح » الذي تجنيه وتعتبره أفضل من لا شيء .. أفضل من خسارة كل الربح المرتقب في حال تحطيم نظامها الطبقي الراسمالي الكولونيالي القائم من قبل شعوبها وطبقاتها الكادحة التي تعاني من وطأة الاستثمار والاستغلال « المزدوج » المتجسد بصورة تحالف رأسمالي محلي وأجنبي .

المصلحة الفردية الرأسمالية الخاصة فوق جميع المصالح الوطنية والقومية العامة ، فوق كل الاعتبارات الانسانية والاخلاقية ، ذلك هو المبدأ المقدس والمثل الاعلى لكل بورجوازية ، بما فيها بورجوازية البلدان العربية المرتبطة بالبورجوازية الامبريالية . واذا لم يكن هذا صحيحا وصائبا . فما الذي يمنعها ، وهي التي تمسك بزمام السلطة في بلدان العالم الثالث ، من تطبيق سياسة تنموية جادة فعالة وقادرة على تصفية التخلف الاقتصادي ، وتحقيق التحرر الاقتصادي الفعلي ؟

ان استئصال جميع امراض التخلف فوق طاقة الطبقات البورجوازية المحلية الحاكمة في بلدان العالم الثالث ، وهو امر يخرج عن نطاق قدراتها ورسالتها التاريخية المحدودة والمعروفة . وليس بوسعها حمل لواء التحرر الوطني والقومي ، وقيادة العملية التاريخية المفضية الى بناء اقتصاد حديث ومصنع ومتكامل ، قادر على التطور الذاتي المستقل .



ان بورجوازية بلدان العالم الثالث الناشئة ، قد ترعرعت على هامش الرأسمال الاجنبي ، وهي في اغلب الاحيان ليست بورجوازية صناعية انتاجية ، كما انها وجدت نفسها عقب التحرر السياسي ضائعة تتخبط في حلبة السوق الاقتصادية الدولية الرأسمالية التي تغص بالمنافسين الامبرياليين الاقوياء ، بينما هي لا حول لها ولا قوة في هذه السوق التي ارتبطت بها تاريخيا وعضويا ، واصبحت سوقها الداخلية جزءا صغيرا تابعا ومرتبطا بالسوق العالمية ، فهي لا تستطيع منافسة السلع الرأسمالية حتى في داخل أسواقها ، وهي لا تستطيع تأمين الحماية الجمركية ، او وقاية سوقها من حركة التبادل والتجارة الخارجية الدولية ، لانها سوق تعامل بالمثل ، مما يهدد بالقضاء عليها ، أو الحاق الضرر الفادح بمصالحها . فليس أمامها ، والحال كذلك ، الا الاندماج والذوبان في البورجوازية الاحتكارية العالمية الامبريالية ، والانصياع لقانونها العام الذي بموجبه يبتلع الاقوى الاضعف ويهضمه شيئا فشيئا حتى يصير جزءا منتشرا في جميع مساماته وخلايا جسده .

**لقد هضمت البورجوازية الامبريالية وما تزال تهضم بورجوازية بلدان العالم الثالث الناشئة ، واوكلت لها مهمتين وحصتين ثانويتين : وكيلة اعمال .. شريك غير مقرر .. موظف بالعمولة .. مندوب محلي اللهجة واللغة والوجه ، و .. حاكم غير مستقل .. بل بالنيابة ، مهمته ادارية تنفيذية طبقية ،** اداة محلية للاضطهاد والاستثمار الراسمالي المشترك : المحلي والاجنبي . لقد اتخذ الاستغلال طابعا دوليا ، واتحد الراسمال على النطاق العالمي ، تلك اهم الحقائق المعروفة في التاريخ العالمي المعاصر ، وما تزال هذه الحقيقة حية راسخة الجذور والفروع حتى الآن ، ولقد بدات هذه العملية منذ المرحلة الاولى للاستعمار وما تزال تتوسع وتتأكد حتى الآن ، لتغدو ضرورة طبقية راسمالية دولية ، ضرورة تدركها الراسمالية العالمية ، وتعرف انها السبيل الوحيد لاستمرارها وقتا اطول ، في مواجهة تيارات التغيير الثورية العاصفة التي لا تتوقف عن النمو والتطور وتحقيق الانتصارات المتلاحقة عالميا .

ان حقيقة عجز البورجوازية الناشئة عن حل المهام الوطنية والقومية في تطبيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية القادرة على استئصال التخلف وتصنيع وتطوير الاقتصاد القومي ، وبلوغ التحرر والاستقلال الاقتصادي، يؤكد **ان طريق وبرامج ونظريات التنمية الراسمالية لا تصلح للتطبيق في بلدان العالم الثالث ، بل تزيد مشاكلها تعقيدا ، وتعمق ازمة تطورها التابع ، وتوسع وتشدد تخلفها الاقتصادي .** وتجربة العقود التنموية الثلاثة الفائتة ، والتي اوصت بها نظريات استعمارية امبريالية ، وتبنتها وعملت بمقتضاها معظم الحكومات البورجوازية في بلدان العالم الثالث قد فضح الى اقصى حد حقيقة الكذبة الجديدة التي « فصلتها » لهم الاوساط الاستعمارية الامبريالية الجديدة ، تلك هي « الخلطة » او التركيبة النيوكولونيالية الزائفة تذوب الوانها وتتكشف عن الوجه الحقيقي للاستعمار الذي لم يعد مجرد محتل اجنبي حاليا ، بل اصبح محتلا اجنبيا محليا معا ، محتل عالمي الطابع والجوهر ، وطني او قومي الشكل والمظهر ، تلك هي المعادلة الجديدة التي تكشف لنا عن امر واقع

يدحض كل محاكمة او استنتاج يهدف الى طمسه ، وهو ان **التنمية الراسمالية في بلدان العالم الثالث محكوم عليها ، بالضرورة ، ان تكون تنمية كولونيالية ، لا تنمية اقتصادية وطنية ، محكوم عليها ان لا تخلق اقتصادا قوميا راسماليا مستقلا ، بل نوعا من الانتاج الراسمالي ، المتطور احيانا ، ولكن التابع الذي يشبه جزيرة منعزلة في محيط اقتصادي متأخر ومتخلف راسماليا ، وبطيء التطور والنمو راسماليا الى حد كبير . لقد كشفت التجربة عن ان فشل برامج التنمية الراسمالية ، في بلدان العالم الثالث ، لم يعد استنتاجا نظريا لمفكر او عالم اقتصادي ، بل هو حقيقة وواقع معاش يوميا** عبر التطبيقات التنموية التي اوصت بها الاوساط والدوائر « النيوكولونيالية » للامبريالية ، وعن طريق هيئات ومنظمات الامم المتحدة التي تعنى بهذه المسالة العالمية المعقدة ، والتي تهيمن وتسيطر عليها فعليا الدول الامبريالية .



وهناك حقيقة اخرى ، هي ان البورجوازية الناشئة في بلدان العالم الثالث تشغل موقعا اقتصاديا حرجا للغاية ، بين المستغل الراسمالي الاجنبي وهو صديقها وحليفها القوي الحميم الدائم من جهة ، وشعبها الذي تحرص على الظهور امامه بمظهر المستقل البريء الذمة من العمالة والشراكة والتواطؤ مع الراس مال الاجنبي ، ضد كل المصالح الوطنية والقومية العامة . وليست الخلافات التي تنشب احيانا بين الشريكين الراسماليين : الاجنبي الامبريالي ، والمحلي التابع ، سوى تنازع مصالح وصراع متنافسين ، وخلافات حول حجم الحصص واسلوب تقاسم الارباح والعوائد الهائلة المتأتية عن استغلال الشعوب ، وغالبا ما يحل هذا الخلاف سلميا على صورة تنازلات متبادلة يجني مكاسبها الطرفان معا .

على من تقع اذن مسؤولية فشل « سنوات او عقود التنمية » والطبقات التي تمثلها ، التي اوصي بها من قبل الامم المتحدة ، وتبنتها

بالفعل غالبية الدول المتخلفة ؟ اليس على الحكومات البورجوازية التي طبقتها بحماس طيلة مرحلة مابعد الحرب ؟ وهل يمكننا التردد بعدئذ في الحكم على تلك الحكومات البورجوازية والطبقات الاستغلالية التي تجسد مصالحها ، بالعقم وانعدام القدرة على حمل راية التنمية القومية والتحرر الاقتصادي من التخلف والتبعية للامبريالية ؟ .

ان ازالة العقبات التي تعترض طريق التحرر الاقتصادي تطال الطبقات البورجوازية والحكومات التي تمثلها ، لانها العقبة الرئيسية الطبقية والسياسية العامة التي تحول دون اتخاذ اكثر الاجراءات والتطبيقات الاقتصادية ضرورة والحاحا للتنمية القومية الجادة وبناء القاعدة المادية والتقنية الضرورية للسير في طريق التطور المستقل ،وخلق اقتصاد وطني حديث مصنع ومتقدم ، خاصة وان الاجراءات والتطبيقات الواجب اتخاذها في التنمية الاقتصادية الجادة والفعالة والناجحة ، تمس مباشرة مصالح الطبقات البورجوازية ومن يتبعها ، وتصيبها ببالغ الضرر ، لانها تحد من ملكيتها الاستغلالية ، ونشاطها الاستثماري الخاص ، وتقيده الى أقصى حد ممكن ، وتحدد اتجاهاته واشكاله في اطار مايسمى بالقطاع العام ، وهذا يعني تقليص مجالات نفوذ ونشاط وسلطة البورجوازية المحلية ، ومن خلالها البورجوازية الاحتكارية الامبريالية الاجنبية ، على جميع الصعد : الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وهذا مالاتريده البورجوازية ، وتخشاه وتكرهه وتبذل كل مابوسعها لمقاومته والقضاء عليه مهما كان مصدره ، ومهما كانت نتائجه مفيدة ونافعة ومنسجمة مع المصلحة القومية الوطنيةالعامة الشاملة .

ان البورجوازية تضع مصالحها في كفة الميزان ، وجميع المصالح الوطنية والقومية والانسانية في الكفة الاخرى واختيارها لاتردد فيه قطعا ، انه مصالحها الطبقية الخاصة قبل كل شيء ، أما ماعدا ذلك فليكن مصيره مايكون ، وذلك أمر تافه في نظرها . ان بورجوازية

بلدان العالم الثالث الناشئة قد اختارت ومنذ زمن بعيد ، يمتد الى داخل المرحلة الكولونيالية الكلاسيكية ، مناهج تطورها وحلفائها الطبقيين محليا وعالميا ، وانحازت بشكل حاسم الى صف اعداء الشعوب والطبقات الكادحة ، وصف خصوم التحرر الطبقي والقومي ، وانضمت الى « الاممية البورجوازية الرجعية » الساعية الى وقف الثورة التي بدات وانتشرت في الشمال والجنوب والشرق والغرب ، في العالم المتطور والعالم المتخلف سواء بسواء ، تلك هي المهمة الرئيسية التي تشغل المكانة الاولى والعليا لحلف الاممية البورجوازية بجميع فصائلها وفروعها التي تشمل البلدان الامبريالية كما تشمل بلدان العالم الثالث. **ان الحرص على هدف الحفاظ على الذات والاستمرار في البقاء يعلو على جميع الاهداف الاخرى للبورجوازية ، فالمصلحة العامة المشتركة للبورجوازية العالمية لها الاولوية المطلقة على المصالح الطبقية القومية** المكونة لها . ذلك هو القانون الاساسي للنشاط السياسي الدولي لاتحاد البورجوازية العالمية القائم ، والذي يفسر لنا كل غموض في المواقف والاحداث السياسية الفائتة والجارية حاليا في العالم الراسمالي .



وطبقا لمقولة العلاقة الجدلية بين البنية التحتية والبنية الفوقية، نرى ان الدور الحاسم والرئيسي في وقف وفرملة عملية التغيير الثوري في بلدان العالم الثالث يعود لعوامل بنيتها الفوقية التي تقف بالمرصاد امام كل مساعي الاستقلال الاقتصادي والتنمية الوطنية وازالة التخلف .ان البنية الفوقية متجسدة بالبورجوازية المحلية الناشئة التي تقود الحلف الطبقي الرجعي الداخلي في بلدان العالم الثالث ، هي العقبة الاولى والرئيسية والسياسية التي تحول دون التحرر الاقتصادي من التخلف والتبعية للامبريالية والخضوع لمشاريعها النيوكولونيالية . وهذه العقبة هي ، كما يبدو واضحا ، عقبة سياسية بالدرجة الاولى .

ان الذي يمنع ازالة التخلف بالدرجة الاولى ويمنع التنمية الوطنية الصحيحة التي تخلق اقتصادا وطنيا قوميا صناعيا حديثا متطورا هو

**العوامل السياسية الخاصة وتركيباتها القائمة في العالم الثالث . وعندما تستطيع شعوب بلدان العالم الثالث التغلب على هذه العوامل والتركيبات الطبقية السياسية الداخلية ، فانها تكون قد خطت بالفعل في طريق التحرر الاقتصادي ، وبدأت بالفعل العملية التاريخية الحتمية التي تتيح التغلب على امراض التخلف وحل ازمة التطور التابع لصالح السير في طريق التطور المستقل .**

ولو لم يكن لعوامل البنية الفوقية والسياسية ذلك الشأن الحاسم والاثر الرئيسي في تطور بلدان العالم الثالث ، فلماذا لايمكن نجاح التنمية الراسمالية فيها ، والتغلب على امراض تخلفها وتبعيتها وتناقضاتها وازماتها المتفاقمة ؟ لماذا لايمكن نجاح التنمية الاقتصادية الاجتماعية في بلدان العالم الثالث اذا هي لم تمس جوهر واسس البنية الاقتصادية الاجتماعية القائمة ؟ ، ومن ثم لماذا لايمكن اتخاذ الاجراءات الجذرية التي تشترط المساس باسس المجتمع والنظام الراسمالي الكولونيالي في ظل التركيبات الطبقية والسياسية القائمة التي تعطل كل المحاولات الجادة للقيام بالتنمية الوطنية الناجحة ، وتعطل كل القرارات التي من شانها المساس بالمصالح الطبقية الاقتصادية والسياسية للبورجوازية قائدة الحلف الطبقي الاستغلالي الرجعي الداخلي او المحلي في بلدان العالم الثالث ؟ ليس لهذه التساؤلات سوى تفسير وحيد هو التفسير السياسي ، ان البنية الفوقية والسياسية في اغلب بلدان العالم الثالث هي المعطل الاساسي لكل برامج ومشاريع ومخططات التنمية القومية الجادة ، لان هذه الاخيرة تعترض تغييرات جوهرية في اسس النظام الاقتصادي والاجتماعي القائم ، ليس لصالح الطبقات الاستغلالية ، بل لصالح الاغلبية الشعبية الكادحة ، المدعوة للمساهمة الفعالة والرئيسية لحمل رسالة التغيير والبناء والتنمية والتحرر الوطني الفعلي .

وحسب القوانين الجدلية ، فان البنية التحتية هي الاساس الدائم ، فيما البنية الفوقية تمارس تأثيرا عكسيا حين تصبح عقبة في وجه ضرورة

تطور وحركة البنية التحتية : هذا التطور الذي يتطلب تحطيم وازالة الشكل القديم او غلافها القديم المتمثل بالبنية الفوقية القائمة ، واستبداله بغلاف ( بنية فوقية ) جديد أكثر تلاؤما معه . لكن غلاف البنية التحتية المتجسد بالبنية الفوقية القائمة يبدي مقاومة حتمية لقوى التغيير الداخلية الجوهرية المتجسدة بالبنية التحتية ؛ وفي هذه اللحظة تصبح البنية الفوقية هي العامل الحاسم والسبب الاساسي في بقاء التناقض والازمة المتفاقمة التي تتولد عنه داخل الاقتصاديات القومية في بلدان العالم الثالث ، وهذا ما نعنيه تحديدا بان الاولوية في استمرار ازمة التطور التابع ، في الوقت الحاضر ، هي العوامل الفوقية وتركيباتها السياسية الناجمة عنها ؛ هذه العوامل هي السبب الاساسي للتناقضات القائمة بين الجوهر والمظهر في اقتصاديات التخلف ؛ وبالتالي فان ازالة هذه العوامل السياسية المسببة باستمرار لازمة التطور الاقتصادي الرأسمالي التابع ، هي المدخل الضروري المباشر لعملية التطور المستقل والتنمية الاقتصادية الاجتماعية الوطنية والقومية الناجحة. القادرة على تحقيق اهداف تصفية التخلف والتبعية ومظاهرها المعقدة المتشابكة (١) .

ان الطريق الى التحرر الاقتصادي والتنمية الوطنية الناجحة تبدأ من التغيير السياسي الداخلي في بلدن العالم الثالث ، وهذه مهمة ثورية دون شك ، بالغة الاهمية ، وحساسة للغاية . مهمة تقع على عاتق الطبقات الشعبية الكادحة التي لها وحدها المصلحة المباشرة وغير المباشرة في الثورة الديمقراطية التقدمية على جميع قوى الرجعية الكولونيالية

---

(١) ان العوامل السياسية الكابحة للتغيير على النقيض من العوامل السياسية الدافعة الى التغيير ، وقد قصدنا في الفكرة الجارية النوع الاول الكابح للتغيير ، لا النوع الثاني ، ولهذا التفريق اهمية فائقة في فهم فكرتنا ، وازالة اي غموض او لبس في وعينا للعلاقة بين العامل السياسي والعامل الاقتصادي .

والنيوكولونيالية المعادية لمبادىء وأسس التحرر الاقتصادي والتطور المستقل والتنمية المتوازنة الفعالة . ولهذا فان التحرر الاقتصادي والتطور المستقل طابعا ثوريا بالضرورة .

ان ازمة التطور التابع هي ازمة التنمية الرأسمالية بشكل عام وازمة التنمية الراسمالية الكولونيالية والنيوكولونيالية على وجه الخصوص . وتتجسد الآن هذه الازمة بالكثير من التناقضات الاقتصادية الاجتماعية السياسية عربيا ودوليا ، ومن أبرز هذه التجسيدات استمرار قيادة التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لبلدان العالم الثالث من قبل بورجوازيتها العاقرة التي اوصلت نفسها وبلدانها وشعوبها الى دوار « الحلقة المفرغة » وعبثها التراجيدي المرعب ، حيث لا مخرج الا بتحطيم هذه الحلقة بما في ذلك صانعيها والمستفيدين من استمرارها .

ان التحرر الاقتصادي من الممارسات النيوكولونيالية الامبريالية يفترض اذن ، وبنفس الوقت ، التحرر الاقتصادي من الممارسات الاستغلالية لتحالف القوى الطبقية الرجعية بقيادة البورجوازية المحلية « المتخلفة » داخل بلدان العالم الثالث نفسها ، ذلك هو كنه الاستقلال والمدخل الوحيد للتطور المستقل والتنمية الجادة .



الازمة هي ، اذن ، دوران بلدان العالم الثالث الدائري داخل حلقة النيوكولونيالية المفرغة والمغلقة والتي هي في جوهرها استمرار الكولونيالية الاكثر تطورا وتعقيدا وتأزما . وبالتالي استمرار التناقضات والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية المستعصية داخل بلدان العالم الثالث من تخلف .. وتبعية .. وتشوهات بنيوية ، من بطالة وضعف وفقر وجهل ومرض وأمية ومديونية وصراعات طبقية وسياسية وعدم استقرار داخلي ، وتفتت وتفكك اقتصادي داخلي متزايد . .وانفجارات سكانية .. الخ .

**ان أزمة التطور التابع التي تستمد عناصر ومقومات وجودها من الازمة العامة للنظام الراسمالي العالمي لا علاج لها في نطاق هذا الاخير ،**

وهذه الحقيقة لم تعد قابلة للنقاش العلمي ، بل لقد حسمت التجارب التنموية الجارية في بلدان العالم الثالث على اسس راسمالية حتى الآن هذا النقاش ، واظهرت بجلاء واضح ، واقـع عجز وفشل الاسلوب الرأسمالي التنمية عن حمل اعباء ومتطلبات التنمية الملائمة والجادة ، وأن هذه الرسالة التاريخية تخرج عن الحـدود التاريخيـة المعلومـة والمرسومة في المكان والزمان لاسلوب الانتاج الرأسمالي ، وهذا هـو السبب الذي يجعل من كل علاج راسمالي توسيعا جديدا لازمـةالتنمية والتطور التابـع بما تحمله من تناقضات حادة متفاقمة باستمرار .

ان اسلوب الانتاج الرأسمالي ، بشكل عام ، لايستطيع معالجـة تناقضاته او الخلاص منها ، فكيف بالاحرى سيستطيع معالجة وحـل التناقضات والازمات التي يصنعها بيديـه ويخلقها بفعل قوانين حركته الذاتية على الصعيد العالمي ، والتي يعتبر التطور الرأسمالي الكولونيالي والنيوكولونيالي احدى صورها الاشد بروزا والاكبر حجما في الوقت الحاضر ؟ واذا كان التطور الرأسمالي هو الاصل والتطور التابـع هـو الفرع : فان خطأ الاصل او تناقضات الاصل سوف يرثها الفرع اخطاء وتناقضات بصورة حتمية .

والتطور الرأسمالي هو المقدمة القائمة على عـلاقـات الاستغلال والتناقضات الاقتصاديـة والاجتماعية . بينما التطور الراسمالي التابع هو النتيجة التي انبعثت عن المقدمة المذكورة ، ولذلك فهي تحمل كل ما يمكن ان تحمله من مورثتها الاصلية : الامبريالية ، من تناقضات وازمات وان بشكل مختلف . ان العلاقة ، كما هو واضح وملموس ، بين ازمـة التطور التابع والازمة العامة للنظام الراسمالي العالمي الذي تقوده وتسيطر عليه الامبريالية ، هي الحقيقة المتحركة الدائمة التي لاجدال فيها . ومع ذلك نواجه انتشارا فكريـا اقتصاديا يتجه من الطرف المتطور للراسمالية الى الطرف المتخلف من العالم الرأسمالي ، ويحمل معه اكثر النظريات

**عامية وسطحية وابتذالا حول اسباب وميكانيكية التخلف والتطور الرأسمالي التابع في بلدان العالم الثالث ، وتصل بها ديماغوجيتها الى حد انكار وجود الشمس وسطوع اشعتها في وضح نهار صيفي حار .**
ورغم العلاقة التاريخية العضوية الحميمة بين الراسمالية المتطورة ( الامبريالية ) والراسمالية التابعة ( التخلف ) ورغم توسع وتعمق هذه العلاقة في المرحلة الراهنة من التاريخ العالمي ، تجهل او تتجاهل النظريات المذكورة اية رابطة بين طرفي النظام الراسمالي العالمي : المتطور والمتخلف، وتنكر كل رابطة سببية بينهما ، وتعالجهما وكانهما شيئان منفصلان في الزمان والمكان ومستقلان عن بعضهما تماما . انها لمفارقة غريبة ان لاتشير النظريات الاقتصادية الاستعمارية القديمة والحديثة لامن قريب ولامن بعيد الى دور وأثر النشاط الراسمالي الاستعماري الامبريالي في خلق الكيانات الاقتصادية الكولونيالية والنيوكولونيالية داخل بلدان عالمنا الثالث، ومساعيها الدائمة للحفاظ عليها تحت اشرافها وسيطرتها ونفوذها، والدفاع المستميت عن التقسيم العالمي الراهن للعمل لانها ، اي، الامبريالية، هي التي صنعته طبقا لمصالحها الاستعمارية ومشاريعها الاستغلالية الدولية . **والنظريات الاقتصادية الاستعمارية الجديدة حول التخلف لم ولن تقدم شيئا للعالم الثالث ، وبرأينا فان مجال الحوار العلمي معها ضيقة الى اقصى الحدود اذا لم يكن معدوما تماما ، لانها تفتقر الى اهم قواعد ومقومات البحث العلمي الجاد في مجال العلوم الاقتصادية والسياسية وهي تعالج المشكلات الاقتصادية كما لو انها منفصلة تماما عن الواقع الاجتماعي العام الذي تنتمي اليه ، او كما انها مجرد مشكلات تجارية حسابية او رياضية كمية فقط ، مبتعدة كليا عن اطارها النوعي ، ونادرا ما تتطرق الى علاقات الانتاج ، بل تقف عند حد الظواهر الكمية دون الامساك بالجذر الكيفي لهذه الظواهر .**

وبغض النظر عما تسوقه النظريات الكولونيالية والنيوكولونيالية ، فاننا نريد تأكيد الاستنتاج الهام التالي :**وهو ان التقسيم الراسمالي العالمي الراهن للعمل ماهو سوى الشكل المعدل للتقسيم السابق له، والذي كان سائدا قبل الحرب العالمية الثانية ، وهو بالتالي تقسيم نيوكولونيالي ، تحتفظ من خلاله كل من البلدان الامبريالية وبلدان العالم الثالث بنفس الوظائف والادوار الاقتصادية التي كانت مرسومة ومقررة سلفا في السابق ، ولكن هذه المرة بشكل موسع ومعمق بصورة متزايدة،** وتبرهن على ذلك يوميا كل الوقائع الملموسة وجميع الاحصائيات والدراسات والندوات الصادرة عن جهات رسمية دولية واقليمية وقومية ومنظمات وحلقات علمية متعددة الانتماءات والمذاهب ، على الرغم من تجاهل وانكار الاوساط الفكرية الاقتصادية التي تعبر عن مصالح الامبريالية واطماعها الاستعمارية الجديدة .



وفي نطاق الشكل الكولونيالي الجديد برزت مصطلحات اقتصادية وسياسية جديدة كانقسام العالم الى جزء غني وآخر فقير ، او الى شمال وجنوب ، او متطور ومتخلف . . الخ ، والذي يهمنا هنا هو الاجماع العالمي على وجود ازمة التفاوتات الاقتصادية الناتجة عن نظام العلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية المتولدبدوره عن تطور النظام الرأسمالي العالمي في الظروف الجديدة لعصرنا هذا ، وخاصة في ظروف نمو وتطور القدرة الفعلية للنظام الاشتراكي العالمي ، وازدياد نفوذه الاقتصادي والسياسي في جميع ارجاء العالم . والشيء الجديد ايضا ، بعد تجربة التطور والتنمية خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، هو بروزالضرورة الملحة لحل ازمة النظام الاقتصادي والسياسي الدولي القائم علىالعلاقات الاستغلالية بين الدول ، والذي هو في الواقع استمرار النظام الاستعماري الكلاسيكي الذي استمر حتى الحرب العالمية الثانية . اذن فالاستعمار في جوهره مايزال قائما بشكله الاقتصادي والسياسي الجديد حيث لم يعد هذه المرة مرئيا تماما ، بل لقد اختفى تحت صور واغلفة قومية محلية

اقتصاديا وسياسيا ، كأن تكون الدولة المتخلفة مستقلة شكليا ، في الظاهر ، ولها حكومتها المحلية ، او مؤسساتها الحكومية الوطنية ، بنفس الوقت الذي لا تملك فيه ان تقرر شيئا حول اتجاه وكيفية وصيغة تطورهـا الاقتصادي والاجتماعي ، ولاتملك حق ممارسة تقرير مصيرها الخاص الذي قد يتعارض والمصالح الامبريالية الاستعمارية، **ويتأكد مثل هذا الوضع في حالة تنصيب حكومات محلية رجعية عميلة مرتبطة مباشرة بالدوائر الراسمالية الاحتكارية الدولية ، حيث يصبح الاستقلال الوطني كاذبا ومزيفا ، ويغدو مجرد غلاف وطني هش يخفي وراءه الوجه الحقيقي للاستعمار الاجنبي الجديد الذي يدخل بهيئة صديق وشريك ، وخبير ، وفني ، واداري ، و « فاعل خير » ! من خلال البورجوازية المحلية التي تمهد له الطريق الى ذلك مضطرة ، وتسهم في ابقاء بلدانها المتخلفة تابعة ، وبعبارة ادق مستعمرة او شبه مستعمرة بشكل غير مباشر من قبل الدول الامبريالية ، وهي تضع نفسها ، اي البورجوازية المحلية المتخلفة ، في مؤخرة التاريخ ، بدلا من ان تقف في مقدمته ، وتندفع معه بدلا من ان تدفع به خطوة الى الامام . انها تعطل عجلة التاريخ ، او تضعف حركتها وتقدمها الى الامام ، تماما كما تفعل عرابتها المعاصرة : البورجوازية الامبريالية .**

**ان الطريق البورجوازي الى التنمية والقضاء على التخلف والتحرر الاقتصادي غير موجود في اعتقادنا ، حاليا على الاقل ، وحتى لو افترضنا وجوده في لحظة ما، فلا شك انه سيكونطويلا جدا وشديد التعرجوالوعورة وعالي التكلفة البشرية والاقتصادية والسياسية . .** الخ ، وهذا ما يظهر بجلاء مع كل جملة او محاكمة او عرض او استنتاج في هذا البحث . **وعليه فلا بد من حل آخر ، من اتجاه معاكس تماما لاتجاه التنمية البورجوازية الكولونيالية العقيم ،** الذي لا يملك اكثر مما لديه بالفعل ، او ما هو خارج عن طاقته وطبيعته الخاصة .

ان الاتجاه المعاكس للكولونيالية الجديدة هو طريق التنمية والتطور المستقل الذي يفضي الى التحرر الوطني الاقتصادي والسياسي الفعلي . ويتطلب السير في هذا الاتجاه جملة من الشروط والمقومات الاساسية القومية والدولية معا ، والتي تتناقض تماما مع اطماع ومصالح البورجوازية العالمية الرجعية بقسميها الامبريالي والمتخلف ، **ولهذا تتسم عوامل تحقيق اتجاه التطور المستقل ، بالضرورة ، بالطابع الديمقراطي الثوري ، وترتبط الى هذا الحد او ذاك وبهذه الصورة او تلك بمفهوم الثورة التحررية والاشتراكية الجارية في العالم ، اي بالقانون العام لعصرنا ، وهو انتقال البشرية من الراسمالية الى الاشتراكية . ويعني هذا كله ان قضية التطور المستقل هي قضية نضال تحرري ديمقراطي ثوري متواصل ، تخوضه شعوب بلدان العالم الثالث** والى جانبها ومعها جميع قوى الثورة والتحرر والاشتراكية في العالم ، وخصوصا في العالم المتطور بشقيه : الامبريالي والاشتراكي . ضد الاستعمار والاستعمار الجديد ، وضد الامبريالية والراسمالية بشكل عام ، وضد علاقات الاستغلال القومية او الدولية . ولا بد ان يستمر هذا النضال ، مهما طال الزمن ، حتى تتم تصفية علاقات استغلال الانسان لاخيه الانسان ، واستغلال الامم والبلدان لبعضها بعضا . **ان تحطيم جهاز وآلية الاستغلال الدولية والقومية التي صنعتها الراسمالية والامبريالية هي الطريق الى انجاز التحرر والتطور المستقل وبناء الديمقراطية والاشتراكية في العلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية** . ولكن كيف يمكن انجاز هذه العملية التاريخية العالمية الشاملة ؟ كيف يمكن التوصل الى تحقيق هذا الهدف البعيد نسبيا ؟



وبعيدا عن الروح المنهجية المثالية التي تغرق في بحث ما يجب ، وما نامل ونحلم ان يكون ويتحقق ، وانطلاقا من البحث الموضوعي لما هو كائن او سوف يكون ، بحكم الضرورة الموضوعية ، لحركة الواقع القومي والعالمي ، سنضع جوابنا او ، وهو الاصح ، اجوبتنا العلمية الواقعية . **اذ ليس المهم أن نتمنى التغيير ونطرح مقترحات وتوصيات طوباوية ، بل أن نفعل ونبدأ التغيير من خلال معرفة الوسائل المتاحة لذلك ، ومن خلال**

معرفة واقعية الهدف المرجو تحقيقه ، ومدى علاقته بالضرورة التاريخية العامة الجارية في عصرنا هذا . ان معرفة طريق وأسلوب وأدوات التغيير المتاحة ، تجعل من تحقيق الهدف امرا ممكنا ، وربما حتميا أيضا (١) .

لذلك نعتبر من الخطأ الكامل او الجزئي كل اطروحة او نظرية تتجاهل أو تجهل الجذر الحقيقي للمشكلة ، والاداة والطريق الفعلية لحلها وتجاوزها ، كأن لا تعير اهتماما للجوانب النوعية ، او تتبع منهجا لا يستند الى الجدلية التاريخية ، وتغرق في الاصلاحية الفكرية ، وشتى تيارات الانتهازية والديماغوجية والوضعية الميكانيكية والميتافيزيقية ، والمدرسية الشكلية الجامدة ، وجميع اشكال تجلي الفكر والايديولوجيا البورجوازية ذات المستويات والدرجات المتفاوتة في كل حالة وفي كل ظرف أو مرحلة او تيار او مذهب .. الخ . والتي تعبر ، بوقت واحد معا ، عن ازمة الفكر البورجوازي المعاصرة التي هي الانعكاس الخاص لأزمة النظام البورجوازي نفسه . بواقعه الاقتصادي الاجتماعي الانساني الشامل .

واذا استثنينا مختلف مذاهب الفكر الاقتصادي الاستعماري قديمه وحديثه ، فان هناك شبه اجماع على فكرة ضرورة تغيير النظام الاقتصادي والسياسي الدولي القائم ، وتتراوح درجات عمق هذه الفكرة بين تيار وآخر ، بل بين عالم وآخر من علماء الاقتصاد ، بدءا من معنى الاصلاح والتعديل وحتى معنى التغيير الجذري لنظام العلاقات الاقتصادية

(١) لم تتخذ دراستنا هذه سبيل العمل الاكاديمي ، كما انني انطلقت بها على اساس غير احصائي ، والسبب في ذلك هو كثرة الدراسات التي تناولت وضع العالم الثالث احصائيا ومنهجيا ، والتسليم بالعديد من وقائع التخلف حتى من قبل النظريات الاستعمارية بالذات ، ولذلك حملت هذه الدراسة طابع التحليل والاستنتاج لما يوجد عليه اجماع أو شبه اجماع ، ولما هو امر واقع مسلم به عالميا حول مشاكل الاقتصاد العالمي الرئيسية الراهنة ومنها مشاكل تطور العالم الثالث .

والسياسية الدولية ، وانطلاقا من هذا يسلم الجميع أن النظام الدولي الحالي بات فاسدا الى حد كبير . ومهدد بالتفسخ والانهيار تحت وطأة ازمته الحادة التي وصل اليها . وانه نظام غير عادل وقائم على اسس استغلالية . ومجحف بحق بلدان العالم الثالث التي تدفع الغنم وعليها الغرم لحفنة من البلدان الصناعية الراسمالية المتطورة . وان النتيجة المباشرة لهذه العلاقة الاقتصادية التجارية غير المنصفة هي استمرار تخلف وتبعية بلدان العالم الثالث وتفاقم وتعمق أزمة تخلفه وتبعيته هاتين .

**وبينما العالم الثالث يغرق في فقره وجوعه ومرضه وجهله ، نجد ان العالم المتطور لا يمد له يد المساعدة والعون ، ويكتفي « بالتفرج » عليه دون اكتراث ، ويقوم في واقع الامر بممارسات تزيده غرقا وسقوطا في حضيض التخلف والمجاعة .. الخ . ولا بد ان ننوه هنا بان القسم الاشتراكي من** العالم غير قادر بمفرده على حل هذه المشكلة ، ولا الانفراد بتقديم كامل المساعدة والعون اللازمين لانقاذ العالم الثالث ، ونذهب الى ابعد من ذلك فنقول : ان المساعدة والعون بحد ذاتهما ، ومهما كان مصدرهما ، ليسا العامل الرئيسي لانقاذ العالم الثالث من تخلفه المزمن ، اضافة الى ان المسؤول عن تخلفه ، كما بينا في السياق السابق ليس الدول الاشتراكية ، بل الدول الامبريالية . وبرأينا فان أكبر وأعظم مساعدة وعون اقتصادي تقدمه الدول الامبريالية لبلدان العالم الثالث هو ان تكف عن استثمارها واستغلالها والهيمنة عليها وممارسة مختلف النشاطات الاستعمارية الجديدة ضدها أرضا وشعبا . والاقرار بعدالة نضالها التحرري الوطني الاقتصادي ، وبحقها في تقرير مصير تطورها الاقتصادي والاجتماعي كما ترغب وتشاء . وحقها في السيادة الكاملة على اراضيها وثرواتها الطبيعية والبشرية والاقتصادية .. الخ . وحقها في المشاركة المتساوية والمتكافئة مع جميع البلدان المتقدمة في تقرير المصير العام للبشرية . مناقشة كافة القضايا الدولية التي تهم المجموعة الدولية

وتمسها جميعا . ان معظم هذه الحقوق قد اصبحت مبادىء عامة تبنتها الامم المتحدة في مؤتمرات « اليونكتاد » وتعمل على دراسة كيفية تنفيذها وتطبيقها وسط صعوبات وعقبات وعراقيل كثيرة تضعها امامها الدول الامبريالية في كل ظرف ومناسبة (١) .

ان الاوساط الامبريالية تدير ظهرها لكل صوت ينادي بالقضاء على التخلف ، وتغيير صورة عالمنا الحالي المنقسم على نفسه الى شطر غني يزداد غنى على حساب الشطر الاخر الفقير الذي يزداد فقرا ، كما تتجاهل الدوائر الامبريالية الاخطار التي تترتب على هذا التناقض المتفاقم بين الشطرين ، ولا تريد الاقتناع بأنه ليس مجرد تناقض اقتصادي بحت، بل ان لهذا التناقض ابعاده السياسية وانعكاساته الضارة على العلاقات الدولية ، وانه الاساس الذي يستند اليه تصاعد التوتر واخطار الصراع الساخن والحروب في العديد من البؤر الحساسة من العالم ، ويترتب عليه عدم الاستقرار الدائم ، وفقدان الامن الدولي ، وتهديد السلام العالمي وتعريضه للخطر ، وتزايد هستيريا سباق التسلح .. الخ .



من هنا تبرز بقوة متزايدة ضرورة تطبيق مبدا التطور المستقل باعتباره حجر الزاوية الاساسي لاي مشروع انشاء نظام اقتصادي سياسي عالمي جديد من جهة ، ولاي مشروع تنمية وطنية ناجحة ومضمونة النتائج فيما يتعلق باسقاط التخلف وتخطيه بالنسبة لبلدان العالم الثالث من جهة ثانيـة .

ومن خلال مختلف الاطروحات التي تتضمن تصورا معينا لشكل او كيفية انشاء النظام الجديد ، او لشكل او كيفية القضاء على التخلف ،

---

(١) د. اسماعيل صبري عبد الله « نحو نظام اقتصادي عالمي جديد » وهو كتاب يتناول هذه التطورات والمؤتمرات والمواقف بصورة علمية وشبه وثائقية ، ويمكن ان يجد فيه الباحث كل تفاصيل نشوء وتطور فكرة انشاء النظام العالمي الجديد ودخولها حيز التحقق والتنفيذ النسبي على الصعيدين الرسمي وغير الرسمي .

باستثناء وجهات النظر الاستعمارية القديمة والجديدة ، ومن خلال المبادىء والافكار الاساسية الواردة في تقارير ووثائق مؤتمرات اليونكتاد « مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية » ومختلف انواع المؤتمرات الرسمية والشعبية والهيئات العلمية (١) . نستطيع الى حد ما تعيين مضمون ومعنى التطور المستقل بالنسبة للتطور العالمي عموما ، وبالنسبة لتطور بلدان العالم الثالث خصوصا .

يشكل اقرار مبدأ التطور المستقل لجميع البلدان ، والاعتراف به ، والعمل بمقتضاه ، العنصر الجوهري الحاسم في النظام الاقتصادي والسياسي العالمي الجديد الذي تتطلع الى انشائه واقامته جميع دول العالم تقريبا ، باستثناء الدول الامبريالية . ويفهم من ذلك **ان التطور المستقل هو الوجه الاخر لذات عملية انشاء نظام عالمي جديد والعكس صحيح أيضا** . فالعملية واحدة اذن تتجسد بصورتين : قومية أو وطنية من جهة ، ودولية عالمية من جهة ثانية ، وبرأينا فان الوجه الدولي للعملية يرتكز على الوجه الوطني ، بمعنى ان اقامة النظام الجديد ، لا بد وان تعتمد بالضرورة على تطبيق وتحقيق مبدأ التطور المستقل لجميع بلدان العالم وخصوصا بلدان العالم الثالث ، وهذا المطلب يشكل الحد الادنى للاستقلال والسيادة الوطنية والقومية الفعلية لكل دولة ، بنفس الوقت الذي يشكل فيه الحد الادنى من تطبيق الديمقراطية في العلاقات الدولية الاقتصادية والسياسية . ان النظام الدولي الحالي يفتقر الى الحد الادنى الذي ذكرناه ، ويقوم على علاقة الهيمنة والسيطرة والخضوع او التبعية ، بين الدول الامبريالية ودول العالم الثالث ، ولهذا فهو يسير قدما في طريق التدهور المتسارع والانحطاط المتزايد باتجاه نفي نفسه ، او باتجاه تقوية عناصر وشروط نفيه الموضوعية .

ويفهم من تفسيرات مفهومي : التطور المستقل ، وانشاء النظام العالمي الجديد ، انهما غير متناقضين بل متكاملين ومتلازمين عضويا ، ويشكلان

---

(١) المصدر السابق مكرس في معظمه لدراسة وتتبع كل ذلك بصورة منهجية علمية جادة .

**معا وحدة واحدة من خلال تفاعل مجموع المكونات القومية للاقتصاد العالمي، وهذه الجديدة هي البديل الديمقراطي الثوري الموضوعي والحتمي للوضع والواقع الدولي الاقتصادي والسياسي القائم حاليا ، والذي هو على النقيض تماما من النظام الجديد .**

ان النظام الاقتصادي الدولي الحالي ، يقوم ايضا على اساس تزايد الارتباط بين الاقتصاديات القومية المختلفة والاتجاه المتزايد نحو تدويل الحياة الاقتصادية ، وذلك هو القانون الموضوعي العام للتطور الاقتصادي المعاصر ، حيث الطابع العالمي للانتاج والعمل يبرز بصورة متعاظمة في جميع اوجه النشاط الانتاجي داخل كل دولة او بلد ، ولا يمكن وقف هذه العملية الموضوعية الاقتصادية او الغاءها او اضعافها ، ولهذا فليس المطلوب من النظام الجديد القائم على تطبيق مبدأ التطور المستقل الغاء او اضعاف مثل هذه العملية . والتطور **المستقل بالتالي لا يفهم منه انه على النقيض من وحدة الاقتصاد العالمي وضرورة التقسيم العالمي للعمل . انه اي التطور المستقل، ليس انفصالا وانعزالا او انقطاعا عن الحركة الاقتصادية الدولية، ولا يمكنه قطعا انيكون كذلك ، ولا يمكنه ان يتعارض مع اتجاه القانون الموضوعي لتطور القوى المنتجة نحو تسارع اتجاه عملية تدويل الانتاج والحياة الاقتصادية .**



فاذا كان النظام الجديد واساسه : التطور المستقل ، لا يتضمنان معارضة القوانين الموضوعية الجارية في اطار النظام الاقتصادي والسياسي الدولي القائم حاليا ، فما هو مبرر النظام الجديد ؟ وما هو هدفه اذن ؟ وما الفرق بين النظام الجديد والنظام القديم ؟

اولا : ان النظام الدولي القديم يقوم على عدة تناقضات تتهدد وجوده باستمرار ، وتعبر اكثر فاكثر عن طابعه الانتقالي ، عن عدم صلاحيته للاستمرار كغلاف غير متطابق او ملائم للمستوى الذي وصله تطور القوى المنتجة وتطور الاقتصاد العالمي ، بعد ان ضاق واصابه التمزق والخلل والتفكك في اكثر من مفصل او جانب .

ثانيا : جوهر النظام الدولي القديم يقوم على أساس استغلال الانسان لاخيه الانسان ، واستغلال الامم والبلدان المصنعة المتطورة للامم والبلدان المتخلفة ، وهو بالتالي يتضمن علاقات سيطرة وخضوع ، هيمنة وتبعية ، تتحدد بالقدرة الاقتصادية كميا ، وبطبيعة النظام الاقتصادي الاجتماعي السائد من الناحية النوعية .

ثالثا : ومن الناحية السياسية يقوم النظام الحالي على اسس غير ديمقراطية ، حيث التمييز قائم بين دولة قوية متطورة وغنية ، ودولة ضعيفة متخلفة وفقيرة . وبينما الدول المصنعة تنفرد باتخاذ القرارات التي تهم المجموعة البشرية او قسم منها ، وتمارس الوصاية في كل الشؤون الدولية ، تجد الدول المتخلفة مبعدة عن مراكز صنع القرارات الدولية ، سواء منها ما يخص كامل المجموعة الدولية ، او ما يخصها هي بالذات . وتملك الدول القومية من الحقوق السياسية ما لا تملكه الدول المتخلفة ( مثل حق الفيتو ) الذي تحتكره خمس دول كبرى ، والتمييز القومي موجود في كل مظاهر النشاط السياسي الدولي وعلى اسس ومعايير كثيرة حددتها الدول الامبريالية لنفسها ونفسها وبعيدا عن راي اغلبية دول العالم ، ولقد جرى ذلك في المرحلة التي كانت فيها السيادة شبه المطلقة على الاقتصاد العالمي للدول الامبريالية القليلة المعدودة .



رابعا : على أساس ما سبق ، يقوم النظام الحالي على التناقض بين الشكل القومي للانتاج من جهة ، والشكل الدولي للانتاج من جهة ثانية . وهذا التناقض موضوعي ، بغض النظر عن التركيب الخاص الذي يتخذه هذا التناقض في اطار النظام الراسمالي العالمي ، حيث يحل هذا التناقض استعماريا عن طريق الالحاق الاقتصادي وابتلاع الدول الضعيفة اقتصاديا من قبل الدول الاقوى اقتصاديا وهي الدول الامبريالية ، وبواسطة اتخاذ مواقف وممارسات من طرف واحد ، هو الطرف الامبريالي ، وتتم بموجب الحل الامبريالي هذا عملية تطوير الشكل الدولي الراسمالي للانتاج والذي نشأ وتطور في الدول الامبريالية على حساب بلدان العالم الثالث ، ولصالح

الدول الاستعمارية ذاتها ، اي يجري التوسع الاقتصادي الراسمالي الدولي الاحتكاري الامبريالي بالقوة والعنف والاكراه ، وبحيث ان الدول التي اطلقت هذا الشكل من الانتاج هي التي تحتكر جني مكاسبه الاسطورية ، بينما بقية الدول وخاصة دول العالم الثالث هي التي تتحمل اعباء وتكاليف هذا التوسع ، وهي التي تبذل الجهد دون مقابل يذكر ، وتخسر بالتالي كل او بعض حقوقها دون ان تتمكن من تحرير نفسها واسترداد حقوقها من المستغلين المستعمرين الامبرياليين لاوطانها وشعوبها ، ودون ان تطال شيئا يذكر من ثمار التطور الاقتصادي الدولي ، بل ان هذا الاخير جاء وبالا عليها وعلى شعوبها حيث لم يورثها سوى التخلف والفقر والتبعية . تلك هي « مكافأة » بلدان العالم الثالث ، التي جرت على اكتافها واكتاف شعوبها اكبر عملية توسع راسمالي عالمي في التاريخ خلال المرحلة الامبريالية من تاريخ تطور الراسمالية بشكل عام . انها ، اي « المكافأة » هي التخلف والفقر والمديونية والجهل والمرض والجوع والخضوع .. الخ . ولا غرابة في الامر ، ذلك لان نفس العملية الطبقيةالتي جرت وتجري داخل الاطر القومية للدول الراسمالية المتطورة، قد خرجت وانتشرت وراء الاطر المذكورة لتتخذ لنفسها شكلا دوليا تتم بموجبه عملية استغلال وابتزاز ونهب بضعة دول امبريالية للبقية الباقية من المجموعة البشرية .

خامسا : يبدو من خلال آلية النظام الدولي القديم ان الشكل الدولي للانتاج الراسمالي قد بدا يتحكم اكثر فاكثر بشكل واتجاه حركة الشكل القومي ، ويصدق هذا بصورة خاصة على بلدان العالم الثالث التي تسلك سبيل التطور الراسمالي النيوكولونيالي ، حيث نجدها عاجزة تماما عن تغيير واقعها المتردي والذي يسير بخطى متسارعة نحو الانحطاط والتشوه والتدهور المتزايد في تراكيبه وابنيته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، مما يرسخ التخلف والتبعية . والاندماج في الاقتصاديات الامبريالية .

سادسا : ان عنصرا جديدا يدخل في الساحة الاقتصادية الدولية هو الاقتصاد الاشتراكي الدولي ، الذي يعتبر تجسيدا امثل للنظام الاقتصادي والسياسي الدولي الجديد المطلوب انشاؤه بدلا من النظام الراسمالي الدولي القديم الذي ما يزال قائما في الوقت الحاضر . وبينما النظام الاقتصادي الراسمالي القديم يسير في طريق التدهور المتسارع ، نجد النظام الاقتصادي الاشتراكي الجديد يسير بخطى متسارعة في طريق النمو والانتشار الكمي والنوعي . متضمنا اسسا جديدة في العلاقات الدولية الديمقراطية الاشتراكية ، التي تعتبر بحد ذاتها برهانا لا يقبل النقاش او الجدل حول افضلية مزاياها وضرورتها التاريخية والحل الامثل لمختلف مسائل العلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية لمصلحة جميع الامم والبلدان وعلى اسس العدالة والتكافؤ والتعاون والتعاضد والتكافل والمنافع المتبادلة وتقسيم العمل الدولي المنصف النافع بين اعضاء الأسرة الدولية . ان النظام الاقتصادي الاشتراكي يشكل مثالا ملموسا على نجاح وواقعية وضرورة انشاء النظام العالمي الجديد الذي يؤمن التطور الديمقراطي المستقل لجميع البلدان ، ومن ثم المشاركة الحرة والمتساوية في بناء الاقتصاد العالمي والمساهمة الفعالة والخلاقة في تقرير المصير العام للبشرية . وتحديد مستقبلها الذي يؤمن الازدهار والتقدم والرفاه لجميع الشعوب والبلدان . ان النظام الاشتراكي الدولي والذي يعتبر « الكوميكون » التجسيد العملي له ، هو في الواقع النموذج الحي الذي يمكن احتذاؤه للنظام الاقتصادي والسياسي العالمي الجديد ، وهو الاساس المادي والمعنوي الاكثر قوة لنضال جميع الشعوب في سبيل بناء النظام الديمقراطي العالمي الجديد . لان النظام الاشتراكي يفسح لبلدان العالم الثالث مجالا واسعا لممارسة اختياراتها التحررية الوطنية ويضع بين ايديها الفرصة للتمرد والثورة على نظام التخلف والتبعية الذي تحرسه وترعاه الامبريالية بكل ما أوتيت من قوة ومن خلال التنسيق والتعاون مع القوى الطبقية الرجعية المحلية المسيطرة بصورة مباشرة او غير مباشرة على اجهزة الحكم والسلطة .

**ان تنامي النفوذ والقدرة الاقتصادية للمنظومة الاشتراكية وتطور سوقها الدولية الخاصة تخفف كثيرا مجالات ووسائل الضغط والاكراه الاقتصادي الذي تمارسه الامبريالية ضد بلدان العالم الثالث .** بغية ترويضها واخضاعها لمشاريعها الاستعمارية الجديدة المختلفة ، لان وجود وتوسع السوق الاقتصادية الاشتراكية هو الباب الواسع المفتوح دائما أمام جميع بلدان العالم الثالث للتبادل والتجارة النافعة والمنصفة مع الدول الاشتراكية . ويؤدي ذلك الى تلافي التأثيرات الضارة للاكراه الاقتصادي الاستعماري الجديد الذي تمارسه الامبريالية ضد بلدان العالم الثالث ، بغية تحقيق اغراضها الاستغلالية الاستعمارية داخل البلدان التي تطمع بها . ان التعامل مع السوق الاشتراكية هو مخرج رئيسي ومضمون لبلدان العالم الثالث نحو انعتاقها الاقتصادي ونجاح تنميتها الوطنية الاقتصادية الاجتماعية . وهذهالفكرة لم تعد مجرد اطروحة نظرية يتداولها الناس ، بل انتقلت الى حيز التطبيق اليومي ، منذ انتهجت بعض بلدان العالم الثالث سبيل التوجيه الاشتراكي ، وبدأت مرحلة انتقال بلدان العالم الثالث الى الاشتراكية . وقد قدمت مؤشرات التنمية الاشتراكية الوقائع التي تدحض كل محاولات النظريات الاقتصادية الاستعمارية لتشويه سمعة هذا النوع من التنمية ، او الاستخفاف بمنجزاته ونجاحاته العظيمة . كما ان التعامل والتعاون والتبادل الاقتصادي فيما بين دول العالم الثالث نفسها أصبح ضرورة حيوية ، لانه يؤمن مجالا وقدرة كبيرة تمكن من مواجهة الضغوط الاقتصادية الامبريالية عليها ، ومن المساهمة في نجاح تجاربهاالتنموية الشابة .

ان التنمية الاشتراكية قد تاكدت صحتها وافضليتها في التجربة اليومية لدى العديد من بلدان العالم الثالث ، **ولقد تزامن نجاح تجارب التنمية الاشتراكية مع فشل تجارب التنمية الرأسمالية في بلدان العالم الثالث ، وهو مايعتبر انتصارا ومكسبا ثوريا فريدا للنضال التحرري الجاري وهزيمة حاسمة لقوى الثورة المضادة التي تقودها الامبريالية**

**على الصعيد العالمي . وتأكدت صحة الفكرة التي تربط بين التطور المستقل واتجاه التنمية الاشتراكية ، على انها الطريق المثلى والاقصر لتحقيق التطور المستقل والتحرر الاقتصادي من التخلف والتبعية ،** والذي يشكل الاساس الطبيعي الحر الديمقراطي للتعاون والتبادل والتبادل المنصف بين جميع الامم والبلدان لما فيه مصلحة تقدم البشرية بأسرها .

**ان التطور المستقل هو الخلية الحية للنظام العالمي الجديد،** اذ بواسطته تجري عملية المساهمة المتساوية والعادلة من قبل جميع البلدان في بناء الاقتصاد العالمي وتطوره . بالشكل الذي يحقق النفع والتقدم والاستفادة للمجتمع الدولي بأسره دون تمييز او استغلال ،وبعيدا عن ممارسة سياسات القوة والتهديد بها والهيمنة والتسلط الاقتصادي وغير الاقتصادي .



والضرورة الاقتصادية وحدها هي التي ستدفع جميع البلدان والامم للتعاون والتكامل الاقتصادي لما فيه مصلحة الجميع ، دون اللجوء الى القوة والتدخل الاستعماري . ولخلق تقسيم دولي جديد للعمل تستطيع بلدان العالم الثالث ، بواسطته ، ان تتجاوز تخلفها الاقتصادي، وتزيد بالتالي من حجم ونوعية وأهمية دورها الاقتصادي العالمي ، يمكن استثمارها اقتصاديا بدلا من وضعها الحالي ، طاقة يمكن تحويلها الى عامل حيوي فعال . ورافعة قوية من روافع تطور وتطوير الحضارة العالمية المعاصرة .

**ان العالم الثالث الذي يشكل ثلثي البشرية،تقريبا،يعيش حتى الآن على هامش الحضارة الصناعية المعاصرة ، وهذا الامر ناتج ، تحديدا ، عن الشكل الراسمالي للحضارة الصناعية المعاصرة،ويمكن،من خلال استبدال هذا الشكل بالشكل الاشتراكي ان يدخل العالم الثالث الحضارة الحديثة المصنعة من اوسع ابوابها بدلا من بقائه راكدا على هامشها . ولكن هذه العملية الثورية لاتحدث دفعة واحدة بل انها تستغرق مرحلة تاريخية**

يصعب تحديدها ، غير انها بدات بالفعل ، بل سارت شوطا بعيدا الى الامام ، وهي الآن تمر في مرحلة جديدة من تقدمها عبر النضال المتواصل من اجل انشاء نظام اقتصادي عالمي جديد يضمن تحديث وتطوير وتنمية بلدان العالم الثالث باقصى سرعة وافضل اسلوب من خلال تاكيده على ضرورة التطور الحر والمستقل لجميع البلدان وخاصة بلدان العالم الثالث . وهذا الامر يتطلب تحطيم نظام النيوكولونيالية المعاصر . اي القضاء على الممارسات الامبريالية الاستعمارية الجديدة داخل البلدان المتخلفة والتي تعيق وتشوه تطورها ، وتعمق تخلفها وتبعيتها وتبعدها اكثر فاكثر نحوها مش الحضارة الصناعية الحديثة والمعاصرة ، وتؤخر باستمرار عملية تحررها ونموها الاقتصادي الوطني .

ان القضاء على تخلف بلدان العالم الثالث ، كما هو واضح ، يرتبط بالقضاء على الممارسات الاستعمارية الجديدة للامبريالية . وهذا يشترط تغيير نظام تقسيم العمل الدولي السائد بين الدول الراسمالية ودول العالم الثالث بصورة خاصة ، وخلق نظام جديد يؤمن المساعدة الجادة والمناخ الاكثر مناسبة لتنمية بلدان العالم الثالث باسرع وقت ، وعلى الصعيد الداخلي لبلدان العالم الثالث يشترط القضاء على التخلف تحطيم البنية الاقتصادية النيوكولونيالية . من خلال استرداد كامل السيادة الوطنية والقومية على مقدرات شعوبها الاقتصادية المختلفة . وحرية ممارسته الحق الكامل في تاميم المؤسسات الاقتصادية والاجنبية العاملة في داخلها ، واجراء العديد من التحولات الاقتصاديةالاجتماعية الديمقراطية الشعبية التي تكفل اعادة بناء وخلق وتطوير الاقتصاد الوطني على اسس موضوعية سليمة وملائمة للواقع الداخلي في البلدان المتخلفة .

ان التطور المستقل ، اذ يتضمن هذه الصفات المذكورة ، لايمكنه ان يكون شكلا للانتاج الاقتصادي القومي يتعارض والشكل العالمي للانتاج ،

ولا مع سير التطور الاقتصادي العالمي نحو المزيد من الترابطات وتعمق الوحدة الاقتصادية بين جميع المكونات القومية لها ، على اسس جديدة من التقسيم العالمي للعمل وفي اطار نمط جديد للعلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية . وبذلك فان الشكل القومي للانتاج القائم على مبدا التطور الحر المستقل للبلدان لايعرقل القانون العام للتطور الاقتصادي العالمي ، كما هي الحال في ظل النظام الاقتصادي الدولي الراهن ، حيث يقوم الشكل القومي للانتاج علـى اساس التطور المستقل على اساس التطور التابع ، وهو مايعرقل تقدم الاقتصاد العالمي ويضعه الى ابعد حد بما يخلقه من تفاوتات في مستويات التطور بين الدول المصنعة ودول العالم الثالث ، وبما يصنعه من تطور قسم من البلدان على حساب تخلف القسم الاخر منه ، وبواسطة امتصاص فائض القيمة الاقتصادي من هذه الاخيرة وتراكمه في الدول المتطورة بحكم الالية التلقائية للنظام الراسمالي العالمي نفسه .



ان التطور المستقل كشكل قومي جديد للانتاج يتصف بتأثيرات مختلفة تماما عما سبق ذكره ، فهو يعطي دفعا قويا لتطور الاقتصاد العالمي ، لانه يقوم على اسس مختلفة تفضي الى تطوير جميع مناطق العالم واقسامه الاقتصادية ، والى التعاون الديمقراطي النافع في سبيل تذويب الفوارق الحضارية فيما بينها ، واستثمار كافة الطاقات البشرية المعطلة لخدمة المصلحة العامة للانسانية جمعاء .

ان التطور المستقل هو القاعدة الطبيعية والاساسية للنظام الاقتصادي والسياسي العالمي الجديد ، لانه يمثل الطريق الديمقراطية للعلاقات الدولية ، بدلا من الطريق الاستعمارية السائدة حاليا .

وعلى المستوى العالمي فان بلدان العالم الثالث هي صاحبة المصلحة الحقيقية في بناء وتطوير هذه الطريق الديمقراطية للتعامل والتعاون

المتبادل بين الدول على أساس نظام ديمقراطي جديد للعلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية والتقسيم العالمي العادل للعمل . اما الدول الامبريالية فهي وحدها التي تقاوم ذلك بضراوة وتتشبث بما استطاعت بما صنعته أيديها تاريخيا ، اي النظام الراسمالي العالمي ، وتقسيم العمل النيوكولونيالي المنبثق عنه .

وعلى المستوى القومي ، في بلدان العالم الثالث ، اذا استثنينا حلف الطبقات الاستغلالية الرجعية بقيادة البورجوازية التابعة المرتبطة ( الكولونيالية ) فان جميع الطبقات الشعبية الاخرى هي المتضررة عمليا من الاستعمار الجديد ونظم بلدانها الراسمالية التابعة ، وهي بالتالي صاحبة المصلحة الحيوية في التغيير والثورة والنضال من أجل تحررها وتحرير بلدانها من النيوكولونيالية ، او من طريق التطور الراسمالي التابع ، وهي ايضا اداة التحرر الاقتصادي وهدفه ، اداة شق طريق التطور المستقل لبلدانها وهدفه ايضا . ويعني ذلك كله أن طريق التطور المستقل هو بالنسبة لشعوب بلدان العالم الثالث طريق الثورة الوطنية التحررية الديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .



**طريق التطور المستقل هو طريق الثورة على التخلف والتبعية، وهو بالضرورة المرادف الطبيعي لطريق الثورة الاشتراكية التي بدات بالفعل تجتاح بلدان العالم الثالث من بداية المرحلة النيوكولونيالية ، اي منذ بداية مرحلة مابعد الحرب العالمية الثانية وحتى الآن ، وسوف تستمر هذه العملية في المستقبل حتى تحطيم آخر معقل للنظام النيوكولونيالي العالمي المعاصر داخل بلدان العالم الثالث ، وكل تقدم يتحقق على هذا السبيل هو بنفس الوقت خطوة اضافية جديدة في سبيل انشاء وانجاز النظام الاقتصادي والسياسي العالمي الجديد .**

**ان انعطاف بلدان العالم الثالث ، الواحد بعد الآخر ، من طريق التطور التابع الى طريق التطور المستقل عبر اختيار سبيل التنمية الاشتراكية**

او طريق التوجه الاشتراكي ، بشكل تطورات وتراكمات كمية متساوية سوف تفضي في النهاية حتما وبالضرورة الى تغيرات او تطورات كيفية او نوعية عميقة وواسعة وسريعة ، تسفر في آخر المطاف عن اختلال ميزان القوى لغير صالح الامبريالية . ومتى اختل ميزان القوى لصالح الثورة العالمية ، تفقد الامبريالية تدريجيا قدرتها على مقاومة انشاءوتطوير نظام اقتصادي سياسي عالمي جديد ، وتقسيم عالمي جديد للعمل يحقق المنفعة والعدل والحرية والمساواة لجميع الامم ، ويؤمن التعاون المثمر فيما بينها علىأسس ديمقراطية من اجل بناء الغد الافضل والاكثراشراقا للجنس البشري .

هذه هي الطريق الى بناء النظام الاقتصادي العالمي الجديد ، لا كما ترسمها اطروحات وفرضيات ونظريات ومخيلات الايديولوجيا البورجوازية» ، بل كما هي في واقع الامر ، او على الاقل كما هي في حالة الامكان والضرورة ، وطبقا للاتجاه الجاري لتطور عالمنا المعاصر بعوالمه الثلاث : الراسمالي والاشتراكي والمتخلف .



انها طريق النضال الثوري المتواصل لانجاز عملية تنظيف عالمنا من النيوكولونيالية التي خلقتها الامبريالية وتحافظ عليها وتدافع عنها بشراسة وضراوة .

لقد بدات هذه العملية ، بالفعل ، عبر مختلف اشكال الصراع بين قوى الثورة المضادة الرجعية آلية تقودها الامبريالية على الصعيد العالمي من جهة ، وبين كافة فصائل وقوى الثورة التحررية الاشتراكية العالمية ، ومن العبث محاولة تحديد الفترة التاريخية التي سوف تستغرقها هذه العملية التاريخية الجارية ، الا ان مايمكننا تلمسه من خلال اتجاهات حركتها ، هو انها تقترب بتسارع معين نحو الحسم الاولي، الذي يعني في نظرنا التوصل الى لحظة اختلال التوازن المطلق لصالح قوى

الثورة التحريرية ، وحينئذ سوف تتمكن هذه الاخيرة من فرض ارادتها واختياراتها الديمقراطية الثورية على قوى الثورة المضادة وعلى راسها الامبريالية .

ان اقامة النظام العالمي الجديد على قاعدة التطور المستقل للبلدان مرهونة بالصراع الجاري عالميا بين قوى الثورة وقوى الرجعية ،مرهونة باتجاه وحجم ونوعية الصراع المذكور وتاثيره الايجابي المتنامي في التطور الاقتصادي والسياسي العالمي . ولم تعد هذه العملية التاريخية مجرد فرضية او مادة للاستهلاك النظري بل انتقلت الى حيز التنفيذ والتحقق الواقعي والتطبيق الفعلي رغم كل ماتواجهه من مقاومة وصعوبات .



★ ★ ★

# الواقع الإقتصادي والاجتماعي والسياسي في سورية ولبنان من ١٩٤٣ — ١٩٤٨

سمر بهلوان

« الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في سورية ولبنان بعد الاستقلال وحتى ١٩٤٨ »

## المقدمة :

تعتبر المنطقة العربية ذات اهمية استراتيجية لما تتميز به من موقع جغرافي وبما تحتويه من ثروات نفطية وغيرها ، مما جعل هذه المنطقة تشكل عقدة اساسية في السياسة الاستعمارية القديمة والجديدة . ولذلك فان عام ١٩٤٦ الذي حصلت فيه سورية ولبنان على استقلالهما السياسي ، يشكل منعطفا تاريخيا حاسما في حياة حركة التحرر العربية ومن الطبيعي ان تكون دراسة وتحليل تطور حركة التحرر الوطني ونموها واتجاهاتها الاساسية بعد هذا التاريخ ، احد المهام الاساسية في علم التاريخ المعاصر ، وهذه الدراسة سوف تساعد الى حد بعيد في تعزيز الاتجاهات التقدمية وفي تعميق المضمون الاجتماعي الاقتصادي لهذه الحركة التي تهدف في نهاية المطاف الى بناء دولة الوحدة العربية في ظل علاقات الانتاج الاشتراكية .

لقد جاء الاستقلال السياسي ليدفع بتحالف البرجوازيةوالاقطاع الى السلطة السياسية وليجعل من الدولة آلة للقمع والاستغلال ضد الجماهير الكادحة ، وكان من نتيجة ذلك أن جماهير الشعب في سورية ولبنان بدات تشعر بأن معركة الاستقلال لم تنته بعد لان الاستغلال الاقطاعي ــ البرجوازي بدا يأخذ ابعادا مؤلمة وعميقة لزيادة تسرب رؤوس الاموال الاجنبية الى قطاعات الاقتصاد الوطني في كلا البلدين مشددة آلية التبعية الامبريالية والاستغلال وتكشف بشكل واضح زيف الدعاوى البرجوازية حول التحرر حيث أن البرجوازية وحلفاءها كما اشار لينين « كانت تتدافع الى التحرر الوطني تاركة التحرر الاقتصادي في الظل . والتحرر الاخير هو التحرر الرئيسي في الواقع »(١) .

ومما لاشك فيه ان انتصارات الاشتراكية على النطاق العالمي ضد الفاشية في الحرب العالمية الثانية قد ساهم الى حد بعيد في دفع الشعوب المضطهدة الى ميادين النضال ضد الامبرياليةومنها شعبنا العربي الذي بدات حركته التحررية تكتسب مضامين اجتماعية عميقة تتمثل بالنضال من أجل تحقيق التحرر الاقتصادي وانهاء التبعية الامبريالية وبناء المجتمع الاشتراكي . وتكتسب دراسة الظروف التاريخية لتطور النضال التحرري في سورية ولبنان ، وعملية التشكل الطبقي اهمية حاسمة بما تفرزه من خصوصية قومية على أساس هذه الظروف ، وقد أشارت المنطلقات النظرية لحزب البعث العربي الاشتراكي الى هذه الخصوصية « .. ان النضال قومي واشتراكي في آن واحد ومطالب بتحقيق ثلاث ثورات ــ دفعة واحدة : ثورة علمية على الصعيد الفكري وثورة على الصعيد الاقتصادي لتغيير

١ ــ ن . فيكتوروف اقتصاد سورية الحديثة « مشكلاته وآفاقه » معهد شعوب آسيا . الاتحاد السوفيتي دار البعث ،١٩٧ ص ٥ مأخوذ عن لينين المؤلفات الكاملة جزء ٢٢ص ١٨٧

علاقات الانتاج الاقطاعية وشبه الرأسمالية بعلاقات اشتراكية لتركيز قاعدة مادية لانطلاق اقتصادي جدي وثوري ضد التجزئة وما تحمله من رواسب في جميع المستويات » (٢)

ان تحالف البرجوازية والاقطاع كان عاجزا عن احداث تغيير حقيقي في البنية الاقتصادية والاجتماعية بحكم ظروف تكونه التاريخية وهجانته، وعدم استقلاليته وهذا ما اشار اليه الباحث الاقتصادي السوري ( و. السمان ) « ان الظروف السياسية والاقتصادية في سورية لم تكن ملائمة لقيام طبقة برجوازية قوية ، ولم تستطع البرجوازية الكومبرادورية ان تعزز مواقعها نظرا للحركة القوية التي انتشرت في البلاد من اجل الاستقلال »(٣) .

هذا الواقع يكسب النضال التحرري في الوطن العربي ومنه سورية ولبنان خبرات خاصة ويجعل من هذا النضال اكثر تعقيدا ، واعمق حدة نظرا لطبيعة الظروف وبالتالي يؤكد الاستراتيجية الاساسية التي تعمقت خلال مراحل النضال الطويلة التي تهدف الى انهاء الاستغلال وبناء المجتمع الاشتراكي .



وهذا البحث يهدف الى دراسة الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في سورية ولبنان بعد الاستقلال ويتضمن الفقرات التالية :

١ ـ النتائج الاقتصادية التي تركها الاستعمار في سورية ولبنان بعد انتهاء الانتداب وآثارها على الانتاج وقوى الانتاج ثم دراسة الواقع الاقتصادي بعد الاستقلال السياسي مع بعض الاحصائيات اللازمة لتثبيت الحقائق . اضافة الى تحليل العلاقة بين الرأسمال الوطني والاجنبي والى اين وصل النضال في هذه المرحلة من الاستقلال السياسي .

---

٢ ـ بعض المنطلقات النظرية التي اقرها المؤتمر القومي السادس في تشرين اول ١٩٦٢ ص ٢٢ طبعة ثانية

٣ ـ اقتصاد سورية الحديثة مصدر مذكور ص ٨ـ٩

٢ — دراسة الواقع الاجتماعي في سورية ولبنان ،وكيف تطور تركيب البنيات الاجتماعية في عهد الانتداب والفترة التي ندرسها ، ثم دور البرجوازية التجارية والاقطاع والبرجوازية الوطنية الصغيرة ( صغار الكسبة ، حرفيون ، صغار تجار ، مثقفون ، طلاب ، عسكريون ) اضافة الى تحليل اهمية التحالف بين هذه الفئات والطبقات الفلاحية والعمالية صاحبة المصلحة الحقيقية في التحرر الكامل .

٣ — اخيرا دراسة الواقع السياسي في سورية ولبنان . وهنا نوضح دور ومكان الاحزاب السياسية ، وتركيبها الاجتماعي ، والحركات الثورية ، واثر التيارات الطائفية الدينية في تلك المرحلة وانعكاساتها الاجتماعية . اضافة الى تبيان الدور التقدمي لبدايات حركة البعث العربي الاشتراكي . مع المقارنات بين سورية ولبنان ،وغيرهما من الاقطار العربية، ارجو ان اوفق في اعطاء صورة واضحة عن الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في سورية ولبنان خلال هذه المرحلة التاريخية الهامة من حركة التحرر الوطني .



## النتائج الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي خلفها الانتداب في سورية ولبنان :

كان احتلال فرنسا العسكري المباشر لسورية ولبنان نتيجة سياسة التنافس والصراع بين القوى الامبريالية العالمية لاقتسام العالم واعادة اقتسامه ، حيث كانت معاهدة سايكس بيكو ١٩١٧ اساسا لاقتسام فرنسا وانكلترا آسيا العربية ، تحت اسم « سياسة الانتداب » ، « لحماية وتطوير الشعوب الضعيفة ريثما تستطيع التطور » . وبنفس الوقت لاخفاء الاطماع الاقتصادية في البلاد العربية التي تشكل موردا اقتصاديا ممتازا للامبريالية وسوقا لتصريف بضائعها ، وتوظيف رساميلها ، ونهب موادنا الاولية بارخص الاسعار اضافة الى الاهمية الاستراتيجية ،والحيوية التي تؤمن منافذ العبور الى القارات ، لذا حرصت الامبريالية قبل فوات

الاوان ، وامام تصاعد حركات التحرر الوطنية وتغير موازين القوى العالمية . بعد نشوء الاتحاد السوفييتي ، والمنظومة الاشتراكية ، على ايجاد قاعدة عسكرية متمثلة بانشاء الدولة الصهيونية في قلب الوطن العربي والتي توافق وجودها مع السيطرة الامبريالية في نهاية الحرب العالمية الاولى بموجب وعد بلفور ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ وهذا ما انعكس على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

اتسم الواقع الاقتصادي بشكل عام في سورية ولبنان، بتغلغل الراسمال الاجنبي . والنفوذ الاستعماري منذ الثلث الاخير من القرن التاسع عشر . وخلال عهد الانتداب ومابعده حيث تمركزت المؤسسات الاجنبية والاحتكارات التجارية . والصناعات الخفيفة الاستهلاكية والخدمات غير المنتجة التي تحرم البلاد من القاعدة الاقتصادية الاساسية في الصناعة الوطنية الثقيلة لكنها ادخلت البعض من مظاهر التطور الاقتصادي البلاد الذي يخدم الاستعمار لكنه تطور رأسمالي تابع وضيق، ووحيد الجانب لان سياسة المنافسة اضعفت السوق الوطنية . وحدت من اتساع نفوذ البرجوازية الكومبرادورية الناشئة الا والشكل الذي يتناسب والمصالح الامبريالية . اضافة الى حرص الاستعمار على ابقاء القطاع الزراعي متخلفا رغم انه يشكل اكبر نسبة من الدخل القومي .

اما في المجال الاجتماعي . فينبغي ان نشير الى ان الوطن العربي يتصف بعدم وضوح الطبقات الاجتماعية كما هو الحال في اوربا الصناعية التي تطورت طبقاتها بشكل نموذجي بحكم الظروف الاقتصادية التاريخية المتباينة في كلا المنطقتين . وبحكم التخلف الاقتصادي اتصف المجتمع العربي بالتخلف رغم بعض المظاهر الحضارية التي وصلتنا من الغرب . وقد ساهم الراسمال الاجنبي . والتطور الاقتصادي بشكل عام بزيادة تفكك الطبقات الاجتماعية وتثبيت الاقطاعية . ففي الريف كان يوجد طبقتان اساسيتان . الفلاحون الذين يشكلون الغالبية العظمى من السكان،

ويعيشون ضمن شروط قاسية من الاستغلال والجهل والبؤس . والاقطاعيون . وكبار الملاك القليلو العدد الذين يملكون اكثر نسبة من الارض المزروعة ويعيشون في المدن .

اما في المدينة . فكانت البرجوازية بكامل فئاتها العليا ، والمتوسطة ، والصغيرة والبرجوازية الصناعية الناشئة في عهد الانتداب . حيث تم التحالف السياسي بين الاقطاع والبرجوازية الكومبرا دورية لتأمين مختلف مصالحها السياسية والاقتصادية لان من اهم سمات هذه الفئات في سورية ولبنان انها اصلاحية غير ثورية ، وهنا يتضح اختلافها عن البرجوازية الاوربية . اما طبقة العمال ، التي تكونت من العمال الصناعيين منذ اواخر القرن التاسع عشر في ( صناعات النسيج ، والحرير ، والتبغ ، والشركات الاجنبية الكهرباء والمياه ، والترامويات ، سكك الحديد الخ . . ) ومن عمال الزراعة والحرفيين المفلسين . وعاشت هذه الفئات ضمن شروط قاسية من الاستغلال والجهل والبؤس اضافة الى سياسة الاستعمار التي اقتضت حرمانها من التعليم الذي بقي مقتصرا على ابناء الطبقات العليا .



اما السياسة الاستعمارية فقد تميزت بسياسة التجزئة وعلى اسس طائفية دينية وعشائرية حيث جزئت سورية الى دويلات ( دولة حلب ، دولة دمشق ، دولة دير الزور ، دولة جبل الدروز ، دولة جبل العلويين ) وكذلك لبنان ضم ( الجبل ، وولاية بيروت ـ والاقضية الاربعة )(*) مع ادخال جهاز اداري حديث للبلاد مما كان له بعض الآثار الايجابية الحضارية .

وقد اتبع المستعمرون سياسة القمع والعنف ، وخنق الحريات ، وتعميق مختلف انواع الرجعية الدينية والعرقية والعنصرية والعشائرية والعائلية . وقد كتب لينين موضحا دور هذه السياسة في عام ١٩١٥ .

---

(*) جبل لبنان اي منطقة الجبل بحد ذاتها . الاقضية الاربعة هي الهرمل ، بعلبك ، راشيا اضافة الى وجود ولايتين هما صيدا وولاية بيروت .

« تسعى البرجوازية في كل مكان لتأجيج العداوات الدينية لكي تحول الى هـذه الناحية انتبـاه الجماهير عـن المسائل الجديـة الاقتصادية والسياسية »(٤) .

وكان لهذا انعكاساته على حركة التحرر العربية مـن جهة ، وعلـى الاوضاع السياسية من جهة أخرى مما ادى لتعدد الاحزاب السياسية التي اتخذ غالبيتها شـكل كتل وطنية مـن البرجوازيين والاقطاعيين ، وسخرت لخدمة مصالحهم الاقتصادية الخاصة ، وهذا يستوجب بالضرورة الحماية السياسية وذلك باستلام السلطة وهذا ما يحول دون استمرار تقدميتها التي اتصفت بها خلال فترة النضال ضد الاحتلال فقط ، وتبقى التبعيـة الاقتصادية قائمة في البلاد . وهذا ما يحتم على فئات الشعـب اصحاب المصلحة الحقيقية في الاستقلال الكامل ان تصعد نضالها في المراحل التاريخية المقبلـة .



الواقع الاقتصادي في سورية ولبنان بعد الاستقلال ١٩٤٣ ــ ١٩٤٨ :

نتيجة لما سبق يمكن ان نتبين الواقع الاقتصادي ( الزراعي ،الصناعي، التجاري ) الذي ساد سورية ولبنان ، بعد انتهاء فترة الانتداب لنتمكن بوضوح اكثر من الوقوف على حقائق الامور لاقتصـاد هذه المرحلة الهامة من الاستقلال السياسي للبلاد .

الزراعـة :

تشكل الزراعة فرعا اساسيا هاما مـن فـروع الاقتصاد الوطني ، ومعيشة السكان في سورية ولبنان ، وتبلغ مساحة الاراضي التي يمكن زراعتها في سورية /١٥،٢٥/ مليـون هكتار المساحة المستثمرة منهـا

(٤) دبلوم مخطوط ، مروان حبيب عبدو ص ١٩٦ ماخوذ عن المؤلفات الكاملة لينين جزء ١٢ ص ١٤٦ ــ ١٤٧ بالروسية .

/٣ر٢/ مليون هكتار ، والمروية منها /٢٣٧/ الف هكتار(٥) . ويعمل في الانتاج الزراعي ما يعادل ٧٠ ٪ من مجموع السكان ، كما يتراوح نصيب الدخل القومي من الزراعة ( ٢٣ ـ ٤٤ ٪ ) تبعا لنتائج المحصول . وتشكل البضائع الزراعية بما يتراوح بين ( ٦٠ ـ ٨٠ ٪ ) من صادرات سورية(٦).

كما تعتبر الزراعة فرعا هاما في الاقتصاد اللبناني ، اذ يعمل فيها اكثر من نصف السكان وتشكل المورد الوحيد لمعيشتهم رغم ضآلتها في الدخل القومي . تبلغ مساحة لبنان الاجمالية مليون وسبعة عشر الف هكتار ، الاراضي المزروعة ٢٨٠ الف هكتار منها ٤٨ الف هكتار اراضي مروية(٧) .

اما العلاقات الاجتماعية الاقتصادية الزراعية تكاد ان تكون واحدة في كلا القطرين مع بعض الاختلافات في الارقام . وتتميز هذه العلاقات بسيادة النظام الاقطاعي ، وتركيز الملكيات في ايدي فئة قليلة من الاقطاع ورجال الدين وتجار الاراضي ، وهؤلاء يمارسون شتى انواع الاضطهاد والاستغلال على الفلاحين الذين لا يملكون . ويقدمون طاقاتهم الانتاجية للحصول على القليل من العيش لانهم يتحملون عبئا كبيرا من الضرائب النقدية والعينية، وكثير من هؤلاء الفلاحين نزح الى المدينة طلبا للرزق ويشير « جاك فيليرس» الجغرافي الفرنسي « بأن عمل الفلاح بعد كل الحسومات لصالح الطبقات المسيطرة لايكاد يكفيه كي لايموت جوعا حتى العام التالي من الموسم »(٨).

---

(٥) يحيى عرودكي . الاقتصاد السوري الحديث جزء أول . منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٢ ـ ص ٨٣ ـ ٨٤ .

(٦) ف. ب. فيكتوروف . اقتصاد سورية الحديثة « مشكلاته وآفاقه » مصدر مذكور ص ١٠١ .

(٧) ن. هوفها نيسيان . النضال التحرري الوطني في لبنان ١٩٣٩ ـ ١٩٥٨ دار الفارابي بيروت ١٩٧٤ مترجم عن الارمنية ص ٣١ .

(٨) مروان حبيب عبدو . دبلوم مخطوط « لبنان تحت الانتداب الفرنسي ١٩١٩ ـ ١٩٤٦» موسكو ١٩٧٢ ص ٢٠ .

وتشير نشرة دوائر المصالح العقارية عام ١٩٤٥ التي اوردها يوسف حلباوي في اطروحته الى توزيع الملكية في سورية بما يلي(٩) :

| فئة الملكية | بالهكتارات | بالنسبة المئوية |
|---|---|---|
| ملكيات صغيرة تقل عن ١٠ هـ | ١١٥٧٣٥٠ | ١٥٪ |
| ملكيات متوسطة من ١٠ ــ ١٠٠ هـ | ٢٦٢٦٧٠٠ | ٣٣٪ |
| ملكيات كبرى أكثر من ١٠٠ هـ | ٤١٢٧٣٠٠ | ٥٢٪ |
| | ٧٩١١٣٥٠ | ١٠٠٪ |

وفي لبنان فان ثلاثــة ارباع الاراضي الصالحــة للزراعة كانت ملكــا للاقطاع والراسمالية كما جاء في احصاء وزارة الزراعة ١٩٤٩ عن الملكية بان ٨٥١٧٢ مالكا الذين يملكون من ــ نصف هـ الى خمسة هـ ويبلغ عددهم ٨٤١١١ مالكا يملكون ١٢٨ الف هـ وما تبقى وعددهم ١٠٦١ مالكا يملكون ١٤٢ الف هـ ويبلغ عدد الفلاحين الفقراء المحرومين من الاراضي الزراعية ٦٠٠ الف فلاح او ما يعادل ٧٥٪ من مجموع سكان الريف العاملين في الزراعة(١٠) .

الى جانب هذا يلاحظ نمو أشكال الاستثمار الراسمالي في الزراعة خاصة بعد الحرب العالمية الثانية خاصة بالنسبة للمساحات التي تزرع مواد اولية للصناعة او مواد مخصصة للتصدير ( كالقطن والقمح والتبغ في شمال شرقي سورية) (والفواكه والخضار والحمضيات في لبنان)(١١).

(٩) د. رفعت الاسد . التطور الاقتصادي والاجتماعي السياسي في القطر العربي السوري ١٩٤٦ ــ ١٩٦٢ دمشق ١٩٧٣ ص ٨٥ .

(١٠) هوفها نيسيان . مصدر مذكور ص ٣٢ .

(١١) هوفها نيسيان . النضال التحرري الوطني في لبنان مصدر مذكور ص ٣٢ .

| السنة | المساحة المزروعة قمح بآلاف الكتارات | متوسط المردود هكتال/هكتار | مجمل المحصول بآلاف الهكتار |
|---|---|---|---|
| ١٩٤٥ | ٧٥١ | ٥ر٥ | ٤١٥ |
| ١٩٤٧ | ٨٤٣ | ٩ر٤ | ٤٠٤ |
| ١٩٤٩ | ٩٨٨ | ١ر٣ | ٣٠٩ |

نموذج آخر عن بعض المحاصيل الهامة في لبنان لسنوات ما بعد الحرب(١٢) . ١٩٤٨ — ١٩٥٣ .

قمح : ٧٠ الف طن ــ شعير : ٢٠ الف طن ــ تبغ : ٢ الفا طن ــ عنب : ٢١ الف طن ــ وتتصف العلاقات الانتاجية الزراعية بأنها علاقات اقطاعية وشبه رأسمالية وهنا يتضح تداخل علاقات الانتاج الاقطاعية والرأسمالية . وظهور طبقات جديدة من بينها ، مما ادى الى تطور العلاقات البضاعية النقدية في الزراعة ، والى تمايز الفلاحين حيث ظهرت فئة من الفلاحين الاغنياء المرتبطين بالسوق ، والمستعملة اكثر فأكثر العمل المأجور وهذا ما ادى الى تغيرات في البنية الطبقية .

اما طرق استثمار الارض فكانت غاية في الاجحاف بحق الفلاحين المرتبطين بالارض ولا يملكون . بينما الاقطاعي يملك ولا يعمل ويعيش في المدينة . لذا ساد نظام المحاصصة والايجار في سورية ولبنان اذ كتب فيليرس الجغرافي الفرنسي « اصبحت المحاصصة في النهاية لجملة من الاسباب الصيغة السائدة في معظم مناطق البلاد لكنها تتخذ عدة اشكال . الشكل البسيط في الاراضي التي تسود فيها زراعة الحبوب ، والشكل

(١٢) فيكتوروف : مصدر مذكور ص ١٦٥ .

الاكثر تعقيدا في المناطق التي تسود فيها زراعة البستنة ويستخدم الـري » (١٣) .

وهناك اشكال اخرى للاستثمار منها المرابعة . المناصفة . الثلث . المفارسة وبالطبع هذه الانواع من الاستثمارات تؤدي الى تدمير الفلاح اقتصاديا . والقضاء عليه وزيادة تبعيته للاقطاعي بحكم الظروف التـي رافقت هذه الطرق مما يحرم الفلاح حريته ويجعله قنا للارض .

اما بالنسبة الى تربية الماشية فانها ما تزال في مراحلها المتخلفة . وتشكل نسبة ضئيلة مـن دخل الانتاج الزراعي . ويقوم عليها بعض الصناعات الغذائية . وصناعة الجلود لذا تضطر البلاد لاستيراد الماشية ومصنوعاتها من اجل الاكتفاء الذاتي للسكان ومن هنا يلاحظ مدى تاثير

---

(١٣) صوفيا نيسيان : النضال التحرري الوطني في لبنان مصدر مذكور ص ٢٥ .

( شـرح ) اشكال الزراعة الرفيعية الوابة : يقدم الاقطاعي الارض والسكن والماشية ويدفع الضريبة ، والفلاح يعمل وعائلته وعند التوزيع يحصل الاقطاعي على ¾ المحصول والربع للفلاح .

طريق الشراكةالحمويه : يقدم المالك المسكن والارض ، والفلاح يعمل ، النفقات من بذار وماشية وغيرها تدفع مناصفة ، وبعد دفع الضرائب وغيرها من النفقات يقسم المحصول مناصفة والمالك لا يقوم باي جهد من اجل تجديد قوة انبات الارض في حين الفلاح مضطر كل يوم الى تجديد قوة عمله وعائلته .

طريق الشراكة الحموية : يقدم المالك المسكن والارض ، والفلاح يعمل ، النفقات من حين يقدم الفلاح الماشية والعمل والنفقات الاخرى مناصفة بين الطرفين وفي نهاية السنة وبعد دفع الضريبة يقسم المحصول مناصفة .

طريقة الخمس : يقدم المالك الارض والسكن ويدفع الضريبة في حين يقدم الفلاح العمل والماشية والبذار والنفقات الاخرى وبعد نهاية السنة يسترجع الملاك الضريبة ١٢٫٥ ٪ اولا ثم خمس ما تبقى ويسلم الباقي للفلاح اي ينال من المحصول ٣٠ ٪ لقاء الارض في حين ان الفلاح الذي يقدم العمل والماشية والنفقات الاخرى ينال ٧٠ ٪ من المحصول وهذه الطرائق جميعها تؤدي الى فقر الفلاح وجهله ومرضه وخوفه من الموت جوعـا .

علاقات الانتاج الاقطاعية على تخلف الانتاج الزراعي الذي يشكل النسبة الاساسية في الدخل القومي ، وسعي الاستعمار الى بقاء هذا القطاع الانتاجي متخلفا بالرغم من الاجراءات والتطورات التي دخلت مع رؤوس الاموال الاجنبية الى هذا القطاع .

**الصناعـة :**

اصطدمت الصناعة السورية واللبنانية بالكثير من العقبات خلال فترة الانتداب نتيجة لتغلغل رؤوس الامـوال ، والاحتكارات الاجنبيـة ، والسياسية والاقتصادية التي اتبعها الاستعمار في انشاء المؤسسات الصناعية الثقيلة التي تشكل أساس التطور الاقتصادي بالرغم من ادخال بعض التطورات الصناعية المحدودة . كذلك نشأت طبقة جديدة من البرجوازية الصناعية التابعة والتي لعبت دورا هاما في الحياة الاقتصادية السياسية في هذه المرحلة التاريخية الهامة من الاستقلال السياسي الذي ترافق مع انتهاء الحرب العالمية الثانية . حيث ادت ظروف الحرب الى تكديس الكثير من الاموال التي وظفت في مختلف فروع الاقتصاد . وخاصة الصناعة الحديثة في سورية ولبنان والى جانب تطور الاقتصاد الزراعي الذي وفر المادة الاولية للفروع الصناعية الجديدة كالقطن ، القمح ، التبغ . ومع زوال الانتداب ١٩٤٣ استطاعت سورية ان تتخلص من سياسة الباب المفتوح ، لكنها لم تتخلص من تأثير سلبيات الرأسمال الاجنبي ، لان الجهاز السياسي كان يغلب عليه الاقطاع والبرجوازية الكومبرادورية هذه السياسة فسحت المجال للمساهمة في الاتحادات الاستعمارية الدولية كاتفاقات هافانا وجنيف حول التعرفات الجمركية التي اضعفت موقف الحكم الوطني في الدفاع عن تطور الصناعة وحمايتها (١٤) . اضافة الى ان

(١٤) د. بدر الدين السباعي : اضواء على الرأسمال الاجنبي في سورية ١٩٢٠ ــ ١٩٥٨ دار الجماهير دمشق ١٩٦٧ ص ٤٠ .

البرجوازية الوطنية لم تقف بحزم أمام المواقع الاستعمارية ــ الاقتصادية. حيث تغلغل الاحتكارات الاجنبية . والمضاربات البضائعية وكثرة الشركات الاستعمارية ( الامريكية الانكليزية الفرنسية ) وغيرها تسيطر على السوق وتحتل المراكز الهامة في الاقتصاد . وهذا ما عرقل نمو الصناعة الوطنية واضعفها . ( وكان عدد الشركات الصناعية ما بين ١٩٤٤ ــ ١٩٤٨ في سورية ١٥ شركة منهاالشركة السورية للبناء . شركة الزجاج والبورسلين السكر والمنتجات الزراعية . المصانع الفنية . الشركة المتحدة للصناعة والتجارة . شركة التبريد . النسيج . الزيوت الخ ... ) (١٥) .

اما في لبنان فقد كان الوضع اسوا منه في سورية . سواء من حيث تغلغل الرساميل والاحتكارات والمؤسسات والمشاريع الاجنبية ، او من حيث السياسة الاقتصادية المفرقة في التبعية والتى فضلت ترك الباب مفتوحا امام الدول الاجنبية الاستعمارية . ولم تقف في وجه المنافسة السلعية الواردة من امريكا وبريطانيا وفرنسا واليابان والمانية الغربية . الامر الذي يؤدي الى انحطاط الصناعة واقلاس المؤسسات وتشريد العمال .

اذ ان الدول الامبريالية وشركاتها الاحتكارية . كانت تصدر الى لبنان بعض ما كانت تنتجه الصناعة الوطنية من سلع وبضائع . وبالطبع هذا يعكس الخطط الاستعمارية المدروسة للقضاء على الصناعة الوطنية . وبالفعل اغلقت عدة مصانع وشرد عدد من العمال مثلا في عام ١٩٤٦ اصدر اتحاد عمال الملبوسات في لبنان بيانا طالب فيه الحكومة بمنع استيراد الالبسة الجاهزة لان ذلك يهدد الصناعة الوطنية بالدمار ويؤدي الى البطالة وتشريد العمال (١٦) .

---

(١٥) المصدر السابق ص ٤٠٤ .

(١٦) جوليا نيسيان : النضال التحرري الوطني في لبنان مصدر مذكور ص ٢٥ .

ويعقد أ.عصفور الاقتصادي اللبناني مقارنة بين سياستي سورية ولبنان الاقتصاديتين ويقول : « ان لبنان بخلاف سورية لا يحاول فرض تعريفات جمركية عالية لحماية الفروع الجديدة في الصناعة » (١٧) وأهم الصناعات في لبنان النسيجية ( غزل الحرير ونسجه والقطن ) صناعة الصابون ، الزيوت ، الجلود وغيرها . ايضا كان للتوظيفات الوطنية اثرها في تطوير الاقتصاد حيث بلغت هذه التوظيفات في مرحلة الانتداب ( ١٩٢٠ — ١٩٤٣ ) حوالي ٢١ر٧١ مليون ليرة سورية وعند ربط التوظيفات بالوضع السياسي القائم يتبين لنا ان التوظيفات في مطلع المرحلة الاستقلالية مع بقاء قوات الاحتلال كانت بطيئة (١٨) .

ورغم كل الصعوبات التي عانتها الصناعة الوطنية في سورية ولبنان فقد خطت خطوات واسعة نحو النمو والتطور لكنها ذات سمات خاصة ناتجة عن الظروف المحلية التي تحكمت لفترة في المنطقة اهمها : ان غالبية الصناعة الحديثة كانت على شكل شركات مساهمة برؤوس اموال محدودة وطاقة انتاجية منخفضة وكان انتاج الكثير منها على حساب الحرفة نتيجة المزاحمة الاجنبية . وبعضها لم يقتصر انتاجها على مادة واحدة بل شملت مواد اخرى كما هو الحال في مصنع السكر في سورية . والثابت الواقع انه بامكان صناعاتنا ان تضاهي السلع الاوربية لكن السوق الوطني اتصف بضعف القوة الشرائية وبعدم الاستقرار السياسي الذي يمنع قيام برامج طويلة المدى لثقل النفوذ الاستعماري ، ومخلفاته . ومن هنا تأتي الحاجة الملحة لحماية الصناعة الوطنية وتدعيمها بالسياسة المناسبة . ومع نمو الصناعة كان عدد العمال يتزايد .

هذه الطبقة الحديثة النشوء كانت تعاني خلال هذه المرحلة الكثير من الصعوبات لانتشار البؤس والحرمان الناتجين عن العلاقات الاقتصادية

---

(١٧) المصدر السابق ص ٢٥ .

(١٨) بدر الدين السباعي : اضواء على الراسمال الاجنبي في سورية مصدر مذكور ص ٤٠٥ — ٤٠٦ .

الاجتماعية والسياسية السائدة اذ ان معظم العمال قدموا من الريف طلبا للعمل لكنهم لم يحصلوا على اوضاع افضل من السابق لضعف الاجور . وارتفاع مستوى المعيشة ، وكثرة اليد العاملة المتخلفة تقنيا وثقافيا . وطبيعة الاستغلال المتأصلة في الفئات البرجوازية ، والراسمالية التابعة للاستعمار .

## التجارة والخدمات :

ان وضع الاقتصاد في سورية ولبنان ، وآفاق تطوره يرتبط مباشرة بطبيعة الروابط التجارية الخارجية واتجاهاتها . وقد واجه القطر الكثير من المشكلات الاقتصادية السياسية المعقده بعد انتهاء الانتداب لان الاقتصاد كان مرتبطا خلال هذه المرحلة بسيطرة الراسمال الاجنبي ذات الاتجاه الوحيد الجانب الذي يتماشى ومطامع البرجوازية الكومبرا دورية التي كانت على رأس السلطة بعد نيل الاستقلال مباشرة ووجدت ان الهدف الاساسي لسياستها يكمن في تطوير التعاون الاقتصادي مع الدول الراسمالية ، ففي عام ١٩٤٨ انضمت سورية الى ميثاق جنيف او مايسمى ( بالاتفاقية العامة للتعرفة الجمركية والتجارة )[١٩] . وهذا ما ادى لتغلغل الراسمال الاجنبي اكثر وكان ينعكس في العجز التجاري الذي بلغ عام ١٩٤٧ ( ١ر٢٧٩ ) مليون ليرة سورية وتزايد في عام ١٩٤٩ الى ( ١ر٤٠٥ ) مليون ليرة سورية[٢٠] .

اما الوضع التجاري في لبنان فكان يحتل اهمية اكبر اذ يعادل حجمها في الدخل القومي ٣٥ ٪ وهذه النسبة تعادل حجمي الصناعة والزراعة معا . وبعد الاستقلال اتسع حجم رؤوس الاموال الاجنبية وتعددت من فرنسا الى انكلترا الى امريكا والمانيا الغربية ايطاليا اليابان وغيرها ويشير ا. ما يرا الى ان لبنان يعتبر في الواقع احدى القلاع الراسمالية النادرة

(١٩) ن فيكتوروف : اقتصاد سورية الحديثة مصدر مذكور ص ٢٣٤ .
(٢٠) المصدر السابق ص ٢٣٤ .

في العالم والمتمثلة بسياسة « دعه يفعل » (٢١) وبالرغم من انتهاء الحرب ونيل الاستقلال السياسي فان الاستيراد بقي اقوى من التصدير في سورية ولبنان . بحيث ان نفقات الاستيراد لا تغطي نفقات التصدير مما اوقع الميزان التجاري في العجز الدائم خلال هذه المرحلة ، مما يعيق اتخاذ التدابير اللازمة لتلافي اخطار سيطرة الاحتكارات الاجنبية وتغلغل النفوذ الاستعماري الانكلوسكسوني . وقيام الاتحاد الجمركي بين سورية ولبنان ( أي بين بلدين يرى كل منهما حياته مهددة بما ينعش حياة الاخر . فاذا اراد لبنان فتح ابواب الاتحاد الجمركي امام السلع الاجنبية رات سورية استحالة بناء اقتصادها وصناعاتها الناشئتين وظلت انصاف الحلول تلحق الاضرار الجسيمة بالاقتصاد حتى الانفصال الجمركي ١٩٥٠ ) (٢٢) والوضع في لبنان اكثر تعقيدا وصعوبة ويشير الى ذلك يوسف خطار الحلو الاقتصادي اللبناني « اصبحت سوقنا شيئا فشيئا خاضعة للتروستات الامريكية وشركات التصدير الاحتكارية في بلدان اوربة الغربية التي وجدت في سوقنا خير مصرف لبضائعها مستفيدة من شروط الحماية الجمركية ومن سياسة الانصياع التي كانت الموجه الاساسي لاكبر المسؤولين الذين تعاقبوا على لبنان » (٢٣) .

ويمثل الميزان التجاري ما بين سورية والاقطار العربية حوالي ٢٠ ــ ٢٥ ٪ من التبادل التجاري للبلاد منها العراق ، لبنان ، السعودية، الاردن(٢٤) . والميزان التجاري مع الاقطار العربية دائما رابح سواء في سورية أو لبنان . ويصدر القطران المواد الغذائية كالقمح والالبان والسكر وغيرها . اذن للمنتجات الزراعية نصيب كبير من التصدير وبعض المنتجات

(٢١) هوفيا نيسيان : النضال التحرري الوطني في لبنان مصدر مذكور ص ٢٥ .
(٢٢) ذ. بدر الدين السباعي : اضواء على الراسمال الاجنبي في سورية مصدر مذكور ص ٤١٨
(٢٣) يوسف خطار الحلو في الاقتصاد اللبناني : ابحاث ودراسات دار الفارابي بيروت ص ١٦ .
(٢٤) فيكتوروف . اقتصاد سورية الحديثة مصدر مذكور ص ٢٤٧ .

الصناعية كالجلود والغزل ( الحرير الصناعي . الاقمشة القطنية والاسمنت وغيرها ) .

اما الواردات فهي الحديد والسيارات وخام الجلود والماصلات الكيماوية ومعدات آلات والذهب وغيرها .

وتعوض الخسائر في الميزان التجاري غير المتكافيء من ارباح التبادلات النقدية وتجارة الذهب وعائدات شركات النفط الاجنبية ومردود السياحة والاصطياف وارباح تجارة الترانزيت .

## العلاقة بين البرجوازية الوطنية والراسمال الاجنبي :

ان العلاقة عضوية بين تكون وتطور البرجوازيات التجارية في سورية ولبنان وبين الراسمال الاجنبي . هذه العلاقة نشأت وتطورت مع دخول الراسمال الاجنبي منذ اواخر القرن التاسع عشر . ثم قويت هذه العلاقة . وسهلت للاستيلاء العسكري واقامة الانتداب الذي ربط اكثر الاقتصاد الوطني للبلدين بالراسمالية العالمية فالراسمال الاجنبي كان هو المسيطر الاقوى . اما الراسمال الوطني فكان ضعيفا ومحدود امكانية التوظيف . ويقول فيكتوروف الاقتصادي السوفييتي عن هذا الوضع « ان رؤوس الاموال الاجنبية في سورية لم تكن متمثلة في شكل استثمارات مباشرة في الصناعة والزراعة وانما تشرف على النظام التسليفي النقدي لسورية ، الذراع الاقوى لممارسة التأثير المباشر على العمليات الاقتصادية في البلاد وقد بلغ نصيب المصارف الاجنبية بشهادة الحاكم السابق لمصرف سورية المركزي ع. طرابلسي ثلثي عمليات التسليف وحوالي نصف الودائع الفردية والعامة » (٢٥) .

---

(٢٥) ف. فيكتوروف : اقتصاد سورية الحديثة مصدر مذكور ص ٢١ ٢٢ .

اذن يمكن القول ان البرجوازية الوطنية نمت على هامش الرأسمال الاجنبي . كانت ولم تـزل حتى الان تابعـة له لان الانظمة السياسيـة الاقتصادية لبلدينا ما زالت تسير في فلك الاقتصاد الراسمالي العالمي .

لكن البرجوازيات السورية واللبنانية سعت خلال فترة الانتـداب للخلاص من هذا القيد المفروض عليها واستطاعت ان تحقق جزءا يسيرا مما ابتغته . حيث المؤتمرات الاقتصادية الوطنية في اعوام ١٩٢٨ و ١٩٣٦ حيث طالبت البرجوازية الناشئة بتعريفات جمركية مناسبة لحمايـة اوضاعها الصناعية .

اما خلال الفترة التي تلت الاستقلال مباشرة فقد جرى بداية نشوء اتجاهات احتكارية مثل نشوء الشركة الخماسية في سورية ، التي قامت عام ١٩٤٦ نتيجة اندماج خمس شركات براسمال قدره ( ٩ ) ملايين ليرة سورية وهي اكبر شركة صناعية تجارية متحدة في البلاد (٢٦) وهذا ما يظهر الدور الحقيقي الذي لعبته رؤوس الاموال الوطنية الكبيرة في سورية والتي هدفت الى التوسع السريع في النشاط وتغير علاقـات القـوى الاقتصادية لصالحها . هذا الدور للبرجوازية السورية كان اكثر جذرية لتحديد الراسمال الاجنبي بعد الاستقلال .

اما لبنان فلم يقم الا باعمال بسيطة ، كالتأميم مثلا بالتعويض عـن بعض الشركات الاجنبية وانشاء بعض المصارف الضعيفة امـام الحاح المطالب الصناعية مثل مصرف التسليف الصناعي والزراعي والعقاري ١٩٥٥ وراسماله خمسـة ملايين ليرة لبنانيـة ساهمت الدولة بمليونين والباقي من الودائع الخاصة (٢٧) . اضافة الى بعض الاعفاءات الضرائبية عن المؤسسات الصناعية الناشئة . ولم تشمل الا المؤسسـات الكبرى التي تقام خلال فترة خمس سنوات من صدوره التي لا ينقص راسمالها الموظف

(٢٦) هوفها نيسيان : النضال التحرري الوطني في لبنان ص ٣٠ .
(٢٧) هوفها نيسيان . النضال التحرري في لبنان مصدر مذكور ص ٣٠ .

عن مئة الف ليرة سنويا ، مع وجود فروع انتاجية لا مثيل لها في الانتاج لامتصاص المزاحمه وهذا طبعا لا يؤدي الى الحماية التامة للاقتصاد الوطني . ومن هنا يتضح دور الراسمال الاجنبي وسياسته في اعاقة التطور الاقتصادي للبلاد عن طريق ربطه بعجلة اقتصاده مما يجعله شديد الحساسية بتقلبات السوق العالمية . ولهذا انعكاساته السلبية على الاقتصاد في البلدان المستقلة مجددا والتي هي بأمس الحاجة لاتباع سياسة اقتصادية وطنية استقلالية تخلصها من شتى انواع التبعية من بعيد أو قريب .

من خلال هذا العرض والتحليل للواقع الاقتصادي ( الصناعي والزراعي والتجاري ) وعلاقات الانتاج السائدة في سورية ولبنان يتضح لنا مدى عمق تأثير النظام الاستعماري ، والاستغلال الامبريالي ، والذي كانت وما تزال غايته الاولى والاخيرة النهب واستغلال الشعوب والتي سوف لا تنتهي الا بانتهائها وقيام النظام الاشتراكي وكيف أن الاستقلال السياسي ما هو الا خطوة اولى لحركة التحرر الوطني على طريق الاستقلال الكامل . ومن أهم هذه النتائج ما يلي :



ـ تغلغل الاحتكارات ورؤوس الاموال الاجنبية .

ـ توسيع الاستثمارات الاجنبية لضرب الاستثمارات الوطنية .

ـ ربط النقد الوطني بالنقد الاجنبي ، لاستثمار الطاقات الانتاجية .

ـ اعاقة الصناعة الوطنية بانشاء صناعات استهلاكية خفيفة والاعتماد على قطاع الخدمات .

ـ مساندة الاقطاع المتفكك في البلاد وانماء فئة برجوازية كومبرادورية من بين صفوفه .

ـ اقامة مؤسسات وانشاءات اجنبية لممارسة مختلف النشاطات الاقتصادية وضرب الاقتصاد الوطني .

- خلق نظام سياسي متناسب مع المصالح المتبادلة بين البرجوازية الكومبرا دورية والراسمالية الامبريالية .

- تعميق التبعية الاقتصادية ـ السياسية للامبريالية العالمية .

- تعميق الفروق الطبقية الاجتماعية .

- زيادة التجزئة بتعميق الفروق الطائفية الدينيـة والعنصريـة والعرقيـة .

- جر البلاد الى سلسلة من الاحلاف السياسية الامبريالية للحفاظ على التبعية .

- ضرب حركات التحرر الوطني عن طريق الوقوف امام اي بادرة تقدمية بين صفوف الكادحين من العمال والفلاحين والبرجوازية الصغيرة بزيادة توسيع الجهل والحرمان وهذا ما لم يستطع الاستعمار تحقيقه الا بحدود لان حركة التحرر الوطنية في مـد ايجابي مستمر رغم تباطئها في بعض الاحيان نتيجة التعثرات التي تعترضها داخليا وخارجيا .



اذن من خلال هذه النتائج تتحتم ضرورة الاستقلال الاقتصادي ـ السياسي والاجتماعي لان اي ثغرة في حلقة الاستقلال تنعكس سلبا على كيان الامة وتعميق تقدمها وتطورها .

## الواقع الاجتماعي في سوريا ولبنان ١٩٤٣ ـ ١٩٤٨ :

على ضوء الواقع الاقتصادي في سورية ولبنان خلال هذه الفترة من الاستقلال السياسي يمكن لنا ان نرى كيف يتبدى هذا الوضع اجتماعيا . حيث تتوضح البنية الطبقية ودورهـا كاملة ( الاقطاع . البرجوازية الناشئة ثم العمال والفلاحـين ) في حركـة التحرر الوطني واستكمال الاستقلال الاقتصادي والسياسي .

اذ يعرّف لينين الطبقات بأنها « مجموعات كبيرة من الناس متميزون في موضعهم في نظام محدد تاريخيا للانتاج الاجتماعي ، وبعلاقاتهم بوسائل الانتاج »(٢٨) .

ان التركيب الاجتماعي في سورية ولبنان بعد الاستقلال السياسي مباشرة يختلف كثيرا عن فترة الانتداب سوى بعض التبلور في البنية الطبقية الاجتماعية ، التي اتصفت سابقا بعدم الوضوح . اذ لم يتغير واقع العلاقات الاقتصادية ــ الاجتماعية بصورة محسوسة لذلك بقي التركيب الاجتماعي كما هو تقريبا وكتب لوتسكي يقول « اعطيت الارض للاقطاع الذي ساند الامبرياليين وحافظ المستعمرون على الملكية الاقطاعية، وزادوا في قوتها ووسعوا من سندهم الاجتماعي»(٢٩) .

ويعود نشوء الاقطاع في سورية ولبنان الى عهود قديمة ، وتعمق في العهد العثماني ،وتبيا بعد الانتداب الفرنسي . وقد ادت العلاقات الاقطاعية وطرق الاستثمار الآسيوية في الريف الى وجود فئتين : الاولى هي تملك ولا تعمل وتعيش في المدن والريف . والثانية لا تملك وتقدم كامل طاقتها للاقطاعي : وهم الفلاحون الخاضعون للنير الاقطاعي مباشرة .



وفلاحوا اراضي املاك الدولة ، والعمال الزراعيون المتجولون . هؤلاء يمثلون افقر فئات المجتمع لانهم لا يملكون ويخضعون للاستثمار والاضطهاد الاقطاعي والتاجر والمرابي ومختلف اجهزة القمع التي تمثلها السلطة السياسية مما جعلهم يعيشون في واقع مغرق في الجهل والبؤس. وبالرغم من كل الصعوبات والازمات عند الفلاحين فقد كان لهم دور كبير

(٢٨) مروان حبيب عبدو . دبلوم . مصدر مذكور ص ١٤٢ ماخوذ عن لينين « فيليكي تبيشين » كراس بالروسية ص ٢٢ .

(٢٩) المصدر السابق ص ١٢٣ ماخوذ عن ف ــ ب لوتسكي الحرب الوطنية التحررية في سورية ص ٢٤ .

في حركة التحرر الوطني في وقت عملت فيه البرجوازية بمواقفها المتذبذبة الى جانب الاقطاع والاستعمار لطمس الدور النضالي للفلاحين هذه القوة ذات الطاقات الكامنة ، التي يمكن لها ان تغير موازين القوى في الداخل لصالح حركة التحرر الوطني .

ويشابه وضع الفلاحين الفقراء اصحاب الملكيات الصغيرة وضع سابقيهم اذ لا تتجاوز هذه الملكية ١٥ ٪ من مساحة الارض الزراعية والتي لا تكفي للعيش مما يضطرهم للعمل في اراضي الفلاحين الاغنياء او الهجرة الى المدينة للعمل . وقد اشار خالد العظم احد اعمدة البرجوازية السورية عام ١٩٢٦ الى انه « من العوامل التي تعانيها البلاد في ازمتها الحاضرة ، نزوح الفلاحين والقرويين الى المدينة ، مما احدث تخمة في النفوس وكثافة عظيمة شلت يد العمل ، وشوشت نسبة التوزيع الصناعي »(٣٠) .

اما الفلاحون المتوسطون ، والاغنياء فقد بلغت نسبة ملكيتهم معا ٣٣ ٪ من الاراضي وهذه الفئة تتمتع بمستوى معيشي افضل ، وكثيرا ما حدث التنافس والخلاف بين الفلاحين المتوسطين والاغنياء الذين كانوا يسعون لتوسيع املاكهم والاستيلاء على مصادر المياه على حساب الفلاحين الآخرين ، وكثيرا ما وقف هؤلاء جميعا الى جانب سلطات الاحتلال الفرنسي .

وعلى رأس هؤلاء الفلاحين جميعا يأتي كبار الملاك ( الاقطاعيون ) ويمثلون اكثر الفئات رجعية وطفيلية في الريف حتى ان الفرنسيين استمدوا منهم القوة في الريف لانها منحتهم السلطة والنفوذ ، وتصرفوا بـ ٤٩ ٪ من الاراضي اضافة الى ما نهبوه من املاك الدولة .

(٣٠) د. عبد الله حناد . القضية الزراعية والحركات الفلاحية جزء ثاني ١٩٢٠ – ١٩٤٥ دار الفارابي ١٩٧٨ ص ٤٧ .

اذن نستنتج بأن الملكيات وزعت على الشكل التالي حسب المساحات الزراعية بالهكتار(٣١) .

الملكيات الصغيرة دون الهكتار = ١٪ من ١ ـ ٥ هـ = ٥٪ من ٥ ـ ١٠ هـ = ٧ ٪ المجموع يساوي ١٣٪ .

الملكيات المتوسطة من ١٠ ـ ٢٥ هـ = ١٧٪ من ٢٥ ـ ٥٠ هـ = ١١٪ من ٥٠ ـ ١٠٠ هـ = ١٠٪ المجموع يساوي ٣٨٪ .

الملكيات الكبيرة من ١٠٠ ـ ٥٠٠ هـ = ٢٤٪ من ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ = ٩٪ فوق ١٠٠٠ هـ = ١٦٪ المجموع يساوي ٤٩٪ .

يضاف الى هذه الفئات الارستقراطية البدوية ، المتمثلة بأمراء العشائر . حيث كان البدو أكثر عرضة للنهب من رؤسائهم وتجار المدن واغنياء الفلاحين .



وقد استطاعت الاقطاعية المتنفذة ان تستلم بعد الاستقلال مناصب الحكم مع البرجوازية مناصفة وتوجهها وفق مصالحها .

اما البرجوازية في سورية ولبنان يعود نشوؤها الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث تطورت ونمت اكثر بغزو الاموال الاجنبية للبلاد عن طريق الصناعات الخفيفة ( فبارك الحرير في لبنان ) و ( فبارك نسيج القطن في سورية ) . وقطاع الخدمات ( طرق ، مرافيء ، سكك حديد ، بنوك ، شركات مياه وكهرباء واحتكار التبغ الخ . . . ) .

وتزايد نموها وسيطرتها ، وولاؤها للراسمال الاجنبي فبدأ بشراء الاراضي واستثمارها في التجارة وفي المضاربات العقارية . وهذا ما يسمى بالاقطاع الراسمالي . ويشير م. وغاتاولين الى ان « التجار الكبار في

مناطق اللاذقية وغيرها اصبحوا من كبار ملاكي الاراضي نتيجة شراء الارض »(٣٢) .

هذه البرجوازية بشكل عام تسعى لتحسين اوضاعها نحو الافضل . فالتجارية منها تفضل السياسة التجارية المفتوحة على الاسواق العالمية ، خاصة الغربية الامبريالية وهذا ما حققته برجوازية لبنان بصورة اكبر من البرجوازية السورية لمساندة الانتداب لها . بينما الصناعية منها تفضل حماية صناعاتها بفرض الرسوم الجمركية على البضائع الاجنبية حتى لا تضرب بضائعها وهذا ما حققته البرجوازية السورية .

وقد ساهمت البرجوازيات الناشئة في كافة النشاطات السياسية وكثيرا ما تعايشت مع الاقطاع بالرغم من وجود بعض التناقضات بينها .

وقد كان للبرجوازية بعض الآثار الايجابية في ادخال النشاطات الاقتصادية للبلاد مما ساهم نوعا ما في التطور . ولانها عانت من المنافسة الاجنبية لارتباطها بالسوق العربية لذا وقفت احيانا في النضال ضد الامبريالية التي حرمتها من الاسواق مما ادى الى خسارتها .

ويشير برنامج الحزب الشيوعي اللبناني الى اخطر الفئات البرجوازية ( الطغمة المالية ) التي كانت تتكون وقويت في عهد الانتداب ثم اصبحت مسيطرة في لبنان بشكل اكبر منه في سورية « هي الفئة الاكثر طفيلية ، والاكثر رجعية من البرجوازية اللبنانية وتشكل ١٪ من السكان وتعمل للابقاء على النظام الاقتصادي والسياسي القائم .. تضمر العداء المستحكم لحركة التحرر العربية وهي العدو الداخلي والقضية الاساسية في طريق التقدم الاجتماعي »(٣٣) .

---

(٣٢) مروان حبيب عبدو . دبلوم مخطوط مصدر مذكور ص ١٢٨ ماخوذ عن م. وفاتاولين « العلاقات الزراعية في سورية ولبنان بالروسية » .

(٣٣) المصدر السابق ص٤٩ ماخوذ عن برنامج الحزب الشيوعي اللبناني الجزء الاول ص٧٥.

اما البرجوازية الصغيرة في سورية ولبنان فتضم الصناعيين والحرفيين الصغار ، والتجار الوطنيين ، والمثقفين ، والطلاب ، والضباط ، وصغار ومتوسطي الملاكين في الريف .

تتصف هذه البرجوازية بمفهوم معقد لكثرة شرائحها وتأرجحها بين الطبقات الاجتماعية الدنيا والعليا ، وبرجوازية سورية ولبنان التي ظهرت في عهد الانتداب لها طبيعتها الخاصة ، وتطورها التاريخي المعروف . فهي اصلاحية لان تقدميتها تنحصر ضمن تطوير العلاقات الاقتصادية الاجتماعية السائدة وليس القلب الجذري لنظام الملكية وقيام نظام جديد .

ويمثل المثقفون « الجناح الليبرالي » من البرجوازية الصغيرة ، وهم القادمون من أوربا مجددا أو المتأثرون بالفكر البرجوازي الثوري ، او الفكر الاشتراكي ، هذه الفئة لعبت دورا ثوريا في بعض الاحيان مثلا ( ايام الانتداب ) لكنه غير حازم حيث دعت الى مقاومة الاقطاعية والاستغلال الامبريالي وتصرف الكادحين . وفي حالات نادرة دعت الى مقاومة الاقطاعية وتحسين الاوضاع الاجتماعية . وتوثيق الاتصال بين الريف والمدينة لكن ضمن المفهوم البرجوازي . اي دعت الى تطوير الريف دون اتخاذ الحلول الجذرية لصالح الفلاحين والبلاد . ان طبيعة البرجوازية الصغيرة بما فيها المثقفون تتصف بقصر النفس . وضيق الافق النضالي الذي لا يقوى على احتمال المصاعب ومجابهة الاخطار وبعض اقسام البرجوازية الصغيرة الطامحة الى التملك سعت الى بعض الحلول الجزئية بغية تحويل الجماهير عامة وجماهير الفلاحين خاصة عن الاتجاه الاشتراكي . وابقائها أسيرة التربية الاقطاعية ، والاستعمارية تربية الطبقات المستثمرة والمستغلة .

أما الفئة المحرومة من البرجوازية وهي الطبقة التي سقطت نتيجة التنافس البرجوازي تم انتقالها نهائيا الى صف النضال الاجتماعي ضد الاستثمار بمختلف أنواعه . ودورهم فعال في حركة التحرر الوطني قبل الاستقلال وبعده ، وهم حلفاء للطبقة العاملة .

بدأ نشوء الطبقة العاملة في سورية ولبنان منذ أوائل القرن العشرين، منطلقة من الحرفة التي تطورت بتطور وسائل الانتاج واستعمال أدوات جديدة . كان عدد العمال يتزايد في مختلف القطاعات لكنه ذات بنية ضعيفة وغير متبلورة بالشكل الكافي بسبب انتشاره في قطاع الخدمات ، والصناعات الناشئة ، والمؤسسات الصغيرة . ( فمن مجموع ٦٣٠٠ مؤسسة صناعية في لبنان يوجد أكثر من ٣٥٠٠ مؤسسة حرفية تستخدم اقل من خمسة عمال ، اما عدد المؤسسات الكبيرة ..١ عامل فما فوق فهو في حدود المئة )(٣٤) ان عدم التمركز العمالي يحد من امكانيات تبلور الوعي الطبقي ويفتح مجالا واسعا لفعل وتاثير الطائفية ــ لان تركيبة النظام السياسي طائفية ــ ونفوذ الاقطاع السياسي الى عقول العمال . وبحكم نشأتهم المتأخرة لا زالوا مرتبطين بشكل أو بآخر بالريف اقتصاديا وايدلوجيا . وبالرغم من جميع الثغرات عند هذه الطبقة كانت طلائع كافية لولادة الوعي الطبقي ، وقد استطاعت في بداية الاستقلال في سورية ولبنان ان تحصل نتيجة نضالها (على قانون العمل ١٩٤٦ ) وبالطبع كان العمال ركنا اساسيا في حركة التحرر الوطني الى جانب الفلاحين وجميع المحرومين . وكان أهم ما يجمعهم في جبهة نضالية واحدة الآلام المشتركة ضد الاستغلال والسيطرة والمطالب الموحدة والتي تستهدف تحرير الوطن من السيطرة الاجنبية ، والضغوط الراسمالية والبرجوازية نتيجة لدراسة الواقع الاجتماعي في سورية ولبنان يتبين لنا مدى الارتباط الوثيق بين الواقع الاقتصادي والاجتماعي ، وما فرزته الانظمة الاقتصادية من فئات اجتماعية متفاوتة ومختلفة ، ومدى تأثير الاقتصاد على الاوضاع المعيشية رغم ما حدث من تطورات وتغيرات اجتماعية خلال السنين التي تلت الاستقلال السياسي مباشرة اي ١٩٤٣ ــ ١٩٤٨ واهم النتائج ما يلي :

ــ عدم التغير الجوهري في انظمة الاقطاع .

(٣٤) الكاتب اليساري . اليسار الحقيقي واليسار المغامر منشورات دار الفارابي بيروت ص ١٧٧ .

ـ عدم تحسن أوضاع الفئات الفلاحية عامة .

ـ نشوء فئة من الاقطاع ـ الرأسمالي نتيجة تغلغل رؤوس الاموال الاجنبية ،والتطورات الزراعية والصناعية الجديدة .

ـ نشوء وتطور قطاعات صناعية جديدة،وقطاع خدمات استهلاكية.

ـ نمو البرجوازية الكومبرادورية التابعة مع نمو صناعات جديدة .

ـ تعايش الاقطاع والبرجوازية ، والاستيلاء على مناصب الحكم لتحقيق مختلف المصالح .

ـ تطور الطبقة العاملة وتصاعد نضالها الوطني .

ـ ممارسة مختلف أساليب الاستغلال والسيطرة على كافة الكادحين وانخفاض مستوى المعيشة .



ـ انتشار الجهل والمرض نتيجة الممارسات السياسية التعليمية والصحية التي سيطرت خلال هذه المرحلة والتي هي استمرار للمرحلة التي سبقت ( عهد الانتداب ) اذ بلغت نسبة الأميين ٨٠٪ من مجموع السكان(٣٥) اضافة الى ضعف التعليم المهني وتعليم الاناث . وكانت هذه السياسة تهدف الى انتزاع الاجيال من بيئتها التاريخية المحلية عربسي ووطني اي على اسس طائفية ودينية وعنصرية وعشائرية الخ .... وهذا ما يزيد التخلف بين صفوف المتعلمين والجيل الناشىء والمجتمع كافة .

## الواقع السياسي في سورية ولبنان بعد الانتداب :

نتيجة لظروف الحرب العالمية الثانية ، والصراع الامبريالي بين فرنسا وانكلترا وتصاعد حركة التحرر الوطنية خلال هـذه المرحلة التاريخية الهامة . استطاع اول قطرين عربيين « سورية ولبنان » ان

---

(٣٥) د. بدر الدين السباعي . أضواء على الرأسمال الاجنبي في سورية مصدر مذكور ص ٢٠٤ .

يحصلا على الاستقلال السياسي الذي يعتبر أهم نصر لحركة التحرر الوطنية . وكان على مراحل أولها بين ١٩٤١ ــ ١٩٤٣ نتيجة لوقوع فرنسا تحت قبضة هتلر منذ ١٩٤٠ ــ ١٩٤١ حيث استلم الحكم في سورية ولبنان جماعة فيشي الفاشست ، ولتكسب فرنسا تأييد ومساندة الشعبين اضطرت القوات الفرنسية والانكليزية المرابطة في فلسطين عند هجومها على لبنان لضرب هتلر الى اصدار منشور في ٣ـ٦ـ١٩٤١ يعلن فيه انتهاء الانتداب ويتضمن « أيها السوريون واللبنانيون اني قادم اليكم لانهاء عهد الانتداب ولاعلن حريتكم واستقلالكم وبناء على ذلك ستصبحون من الآن فصاعدا شعبا حرا ذا سيادة » .(٣٦)

كما اضطرت فرنسا أمام ازدياد تصاعد النضال الوطني من جهة واطماع بريطانيا في المنطقة من جهة ثانية الى اعادة الحياة الدستورية ، واجراء انتخابات في ١٩٤٣ . ساد هذه الانتخابات جو من الصراع بين الفئات البرجوازية والاقطاعية ، مثلا ( الكتلة الوطنية اللبنانية ) ( والكتلة الوطنية السورية ) . وقد بين المؤرخ اللبناني منير تقي الدين هذا الصراع ومدى تدخل بريطانيا في انجاح القائمة الموالية لها ، ناضل سبيرز قائد القوات البريطانية كثيرا في دعم لائحة بشاره الخوري الدستورية تحت ستار انقاذ البلاد من الاجنبي والجهاد في سبيل الاستقلال وقد ساعد سبيرز في هذه المهمة رئيس وزراء مصر النحاس باشا ورئيس وزراء العراق نوري السعيد باشا ، وقد وعد بشارة الخوري لقاء المساعدات باتباع السياسة البريطانية . (٢٧)



---

(٣٦) هوفها نيسيان . النضال التحرري الوطني في لبنان مصدر مذكور ص ٦٩

(*) الكتلة الوطنية في لبنان هي غيرها في سورية وان كانت مكونة من عناصر متقاربة طبقيا واجتماعيا انما في لبنان مثلث الجناح الاشد رجعية الذي رفض الاستقلال الوطني وفضل بقاء الانتداب ، على راس الكتلة كان رئيس الجمهورية المخلوع اميل اده .

(٣٧) هوفها نيسيان . النضال التحرري في لبنان مصدر مذكور ص ٧٣

« وفي ٢١ ايلول ١٩٤٣ انتخب بشاره الخوري رئيسا للجمهورية وكلف رياض الصلح بتأليف الوزارة ووضع الرئيسان ميثاقا وطنيا للحكم يوضح الاسس والعلاقات بين مختلف الطوائف ، وبرسم السياسة الخارجية القائمة على مبادىء الحياد (٣٨) ويعتبر الميثاق خطوه ايجابية لانـه هدف الى تحقيق استقلال لبنان ؛ لكن السلبية فيه اعتماده الطائفية مقياسا لوظائف الدولة(*) .

وفي ١٧ آب ١٩٤٣ انتخب شكري القوتلي رئيسا للجمهورية السورية ، وفارس الخوري رئيسا للمجلس النيابي . والف الوزارة الاولى سعد الله الجابري(٢٩) .

تابع الشعبان السوري واللبناني نضالهما لاستكمال معالم الاستقلال فجرت مفاوضات حول تسليم الوحدات الخاصة والمصالح المشتركة(**) والجلاء في ١٩٤٤ — ١٩٤٥ .

عدلت حكومة بشارة الخوري الدستور اللبناني بما يخص الفقرات المتعلقة بالانتداب والدولة المنتدبة من المادة الاولى فصارت كالآتي « لبنان دولة مستقلة ذات وحدة لا تتجزأ وسيادة تامة » ،وعدلت مواد اخرى لتجعل العربية اللغة الرسمية للبلاد بدلا من الفرنسية قبل الجلاء . أصبح عقد المعاهدات الدولية من حق رئيس الجمهورية



---

(٣٨) هوفيا نيسيان مصدر مذكور ص ٧٢ ــ ٧٤ .

* يجري تقسيم سكان لبنان على الاساس الطائفي الديني وتحديد معدلات تمثيلهم في هيئات الدولة وفقا لمعليات وضعتها سلطات الانتداب الفرنسية في عام ١٩٢٠ . ( الموارنة ٢٩٪ من السكان ، المسلمون السنيون ٢١٪ المسلمون الشيعيون ١٨٫٥٪ الروم الارثوذكس ٩٫٧٪ بقية السكان ٢١٫٨٪ يتألفون من الروم الكاثوليك والدروز والارمن الغريغوريون والارمن الكاثوليك والبروتستانت واليعاقبة والسريان . وهذا العدد ليس ثابتا بل يحدده قانون خاص قبل كل انتخاب .

(٣٩) نجيب الارمنازي سورية من الاحتلال حتى الجلاء دار الكتاب بيروت ١٩٧٣ص١٦٠ .

فقـط(٤٠) . وهـذا ما أدى الى قيـام أزمـة في لبنـان بين ١١ ــ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٣ بعد اعتقال رئيس الجمهوريـة ورئيس الوزراء وثـلاثـة وزراء آخرين ووقفت الاقطار العربية الى جانـب الشعـب اللبناني الثائر . وتدخلت بريطانيا واصدرت مذكرة في ١٩ــ١١ــ١٩٤٣ بضرورة اطلاق سراح المعتقلين وتم هذا في ٢٢ــ١١ــ١٩٤٣ . وفي ١٩٤٤ تم تسليم المصالح الحكومية المشتركة الى حكومتي سوريـة ولبنـان ؛ لكن ردة فعل فرنسا بصدد استلام قيادة الوحدات الخاصة ، واجـلاء الجيوش الاجنبية كانت ادخال جيوش اضافية من السـنغال في ١٧ ايار ١٩٤٥ لممارسة الضغط على الحكومتين مقابل تأمين مصالح جوهريـة تحتفظ بها فرنسا وهي ثقافية واقتصاديـة واستراتيجية (٤١) وبعـد نضال طويل تم تسليمها في ٨ تموز (٤٢) اما معركة الجلاء فكانت على صعيد محلي وعربي ودولي حيث صدر في ٢٢ حزيران ١٩٤٥ بلاغ سوري لبناني مشترك حول الاتفاق بين الحكومتين على اتباع سياسة مشتركة للعمل على اجلاء جميع القوات الاجنبية وعلى عدم منح اية دولة من الدول امتيازا او مركزا خاصا . (٤٣)



وفي ١٤ شباط ١٩٤٦ بدأ مجلس الامن مناقشاته حـول الجلاء عـن سورية ولبنان بناء على طلب تقدمت بـه الحكومتان ودافـع مندوبـا

** المصالح المشتركة هي الجمارك ، دائرة الشؤون الاقتصاديـة ، الانفاق المالي ، مصلحة البارود والمفرقعات ، مصلحة المعادن والمطاط ، مراقبة الشركات ذوات الامتياز ، الرقـابـة الصحية والبطريركية ، المراقبة العامة للبريد والبرق ، ادارة حماية الملكية التجاريـة ـ الصناعية ( الـوحـدات الخاصة هي الفرق العسكرية المحلية وكانت تحت امرة القوات الفرنسية ) .

(٤٠) هوفها نيسيان النضال التحرري الوطني في لبنان مصدر مذكور ص ٧٥ ــ ٧٦ .

(٤١) المصدر السابق ص ٩١

(٤٢) نجيب الارمنازي سوريـة من الاحتلال حتى الجلاء مصدر مذكور ص ١٧٠

(٤٣) هوفها نيسيان النضال التحرري في لبنان مصدر مذكور ص ٩٤ .

الدولتين عن حقوقهما في السيادة الوطنية . ووقف الاتحاد السوفياتي موقفاً صلباً الى جانب الدولتين باستعماله حق الفيتو لاول مرة من اجل اجلاء الجيوش الاجنبية عن سورية ولبنان . ولم تستطع الدول الغربية اتخاذ مواقف معادية . وهكذا تحقق الجلاء عن سورية في ١٧ نيسان ١٩٤٦ وعن لبنان في ٣١ كانون اول ١٩٤٦ .

وما بين ١٩٤٦ ــ ١٩٤٨ أستلمت البرجوازية والاقطاع السلطة وبدات مرحلة جديدة او ردة نحو الرجعية للعودة الى التعاون مع الامبريالية ( امريكا ، فرنسا ، بريطانيا ) وغيرها وتعود المؤامرات لتحاك من جديد، حيث عملت بريطانيا الى تنفيذ خطة لتوحيد البلدان العربية تحت اشرافها وانشاء مايسمى « بسورية الكبرى » و « الهلال الخصيب » واخذ التقارب السياسي بين لبنان وتركيا ينشط لانشاء حلف موال للامبريالية في الشرق الادنى ١٩٤٦ وكانت غاية الامبريالية من هذه الاحلاف ارجاع سورية ولبنان الى فلك السياسة الامبريالية والتصدي للاتحاد السوفياتي الذي برزت قوته بشكل واضح اثناء وبعد الحرب العالمية الثانية . وخلال هذه الفترة كانت الرجعية العربية متآمرة مع الامبريالية التي عملت على تدعيم الكيان الصهيوني واغتصاب ارض فلسطين العربية في ١٩٤٨ .



وهكذا كانت الديمقراطية البرجوازية الشكلية المؤقتة بين ١٩٤٣ ــ ١٩٤٦ تترك المجال للديكتاتورية التي ستكون سمة الحكم فيما بعد، وقانون الانتخابات الذي يعتمد الطوائف الدينية المختلفة ، وخاصة في لبنان حيث أصبح اسلوبا سياسيا متبعا مما ادى الى الكثير من السلبيات في الحياة الاجتماعية والسياسية ومازال يعاني منه حتى مرحلته الحاضرة .

## الاحزاب السياسية ، والحركة النقابية في سورية ولبنان ١٩٤٣ــ ١٩٤٨

انطلاقا من هذا الواقع السياسي ــ الاقتصادي في سورية ولبنان كان نشوء الاحزاب والكتل كتلبية لنمو حاجات طبقية داخل المجتمع ، ونتيجة تطور الصراع السياسي بتأثير داخلي او خارجي . وقد تعددت

الاحزاب حتى وصلت في سورية الى اكثر من ٢٥ حزبا (٤٤) وفي لبنان اكثر من ١٥ حزبا (٤٥) واتخذت انواعا متعددة منها الاحزاب العمالية بقيادة البرجوازية مثل « حزب العمال العام » في لبنان واحزاب عمالية بقيادة ماركسية مثل حزب ( الشعب اللبناني ) الذي تحول الى الحزب الشيوعي في سورية ولبنان . ثم احزاب برجوازية متراوحة مابين اليمين واليسار في لبنان . وهي حسب نشوئها التاريخي مابين ١٩٢٠ ــ ١٩٤٣ احزاب برجوازية كومبرادورية ، احزاب عمالية ، ونقابات عمالية وزراعية في ١٩٢٠ « حزب الترقي اللبناني » ١٩٢٤ ــ « حزب الشعب اللبناني » بقيادة ماركسية . في سنوات الثلاثينات تميزت بتبلور الحياة السياسية في ١٩٣٠ اعلان وجود « الحزب الشيوعي » في سورية ولبنان وفي عام ١٩٣١ نشوء « حزب الاستقلال الجمهوري »من البرجوازية الليبرالية ثم رجعية فيما بعد وفي ١٩٣٢ نشوء « الحزب القومي السوري» الفاشي. ١٩٣٥ نشوء حزب «الكتلة الوطنية» المتعاون مع السلطات الاستعمارية وهو من البرجوازية الكبرى وفي ١٩٣٥ نشوء حزب « الدستور » من البرجوازية الكبرى الوطنية من مسيحيين ومسلمين ومعادين للانتداب لكن بشكل غيرحاسم ١٩٣٦ حزب «الكتائب» اللبنانية حزب برجوازي له شكل ديني ومحتوى سياسي ١٩٣٦ حزب « النجاده » كتلة دينية لم تلعب دورا هاما في الحياة السياسية . (٤٦) .

اما في سورية كانت احزاب استقلالية معادية للانتداب مثل حزب « الاستقلال » وحزب « الاتحاد السوري » وحزب « الشعب السوري »

(٤٤) د. ذوقان قرقوط . تطور الحركة الوطنية في سورية ١٩٢٠ ــ ١٩٣٩ دار الطليعة بيروت ١٩٧٥ ص ١٠٥

(٤٥) هوفها نيسيان . النضال التحرري الوطني في لبنان مصدر مذكور ص ٥٢

(٤٦) دبلوم مخطوط مروان حبيب مصدر مذكور صفحات متعددة ( ٩٣ ــ ٩٥ ــ ٩٧ــ ٩٨ ) والكتلة الوطنية في لبنان هي غيرها في سورية تختلف عنها بنهجهاوبرنامجها السياسي .

ويعتبر هذا الحزب اول حزب منظم للبرجوازية السورية الصغيرة ١٩٢٥ ـ١٩٢٧ ونتيجة لتحالف العناصر المسالمة من حزب الشعب والاستقلال تكونت الكتلة الوطنية « في سورية عام ١٩٢٧ وضمت ٨ اعضاء لبنانيين » (٤٧) لعبت الكتلة الوطنية في سورية دورا هاما بين ١٩٢٨ ـ ١٩٤٨ (٤٨) وانحدر أعضاؤها من بيوت الملاكين العقاريين والبرجوازية التجارية والصناعية الى جانب عدد من كبار المثقفين كانت سياستها تتجه نحو الاستقلال والوحدة بمختلف الطرق الايجابية أو السلبية باستثناء الطريق الثوري لانها غير مناهضة للرأسمال وضد الاحزاب السياسية والجبهة الوطنية(٤٩) .

وكانت عصبة العمل القومي ١٩٣٣ ممثلة البرجوازية الصغيرةوكان هدفها اقامة سوق وطنية ومقاطعة البضاعة الاجنبية ودعت من اجل التأميم ومحاربة الاقطاع والزعامات ويلاحظ ان معظم هذه الاحزاب السياسية في سورية ولبنان ومختلف البلدان العربية تفتقر الى البنية التنظيمية والى العضوية الثابتة الدائمة وليس لديها برامج واضحة وشاملة او نظام داخلي ؛ لهذا السبب نراها كثيرة التردد في نشاطها السياسي لانها لاتستطيعالتزام خط واضح خلال الاحداث الخطيرة(٥٠).

أما الحزب الشيوعي في سورية ولبنان فقد نشأ باسم « حزب الشعب اللبناني » في ١٩٢٤ تسعة اعضاء وفي حزيران ١٩٢٥ اصبح اسمه « الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني » وانضم اليه ٢٥ عضوا

(٤٧) د. عبد الرحمن الكيالي المراحل جزء ١ مطبعة الضاد حلب ١٩٦٠.

(٤٨) د. عبد الله حنا . الحركة العمالية في سورية ولبنان ١٩٠٠ ـ ١٩٤٥ دار دمشق ١٩٧٢ ص ٧١ ص ٢٠٣ .

(٤٩) د. بدر الدين السباعي أضواء على الرأسمال الاجنبي في سورية مصدر مذكورص ٣٣٩ ـ ٣٤٠

(٥٠) المصدر السابق ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥

أرمنيا(٥١) وفي عام ١٩٢٨ أصبح اسمه «اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري » فرع الانترناسيول الثالث(٥٢) وفي عام ١٩٣٠ أصبح اسمه « الحزب الشيوعي في سورية ولبنان » واستمر حتى المؤتمر الاول في عام ١٩٤٤ حيث بلغ أعضاؤه ٣٠٠٠ عضو وتم الانفصال بين الحزبين في سورية ولبنان بسبب الظروف النضالية لكن عاد الى الوحدة من جديد منذ عام ١٩٤٨ وتم الفصل النهائي ١٩٦٨ .

تم تكوين الحزب نتيجة التطور الاقتصادي الاجتماعي، وظهور التجمعات العمالية والضغوط الامبريالية التي دفعت بحركة التحرر الوطني الى الامام ، وبفعل تأثير ثورة اكتوبر كانت نشأة الحزب على أساس طبقي عمالي ماركسي ، وعلى أساس التيارات الاشتراكية والطوباوية والاستقلالية التحريرية . ومابين ١٩٢٥ - ١٩٤٤ عقد الحزب اربعة مؤتمرات ووضع النظام الداخلي ١٩٤٤(٥٣) . مر الحزب في ست مراحل اهمها : مرحلة الصعود النضالي مابين ١٩٤٢ - ١٩٤٦ حيث اخرج قادته من السجن ، وعادت صحيفته « صوت الشعب » الى الصدور ، وشارك الحزب مشاركة فعالة في معركة الاستقلال في ١١ - ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٣ واصدر مجموعة من القرارات حوالي ( ١٩ ) نقطة اهمها : استقلال لبنان وتحرره الوطني الكامل ، والمساواة بين جميع اللبنانيين على اختلاف اديانهم وعناصرهم ، والسيادة الوطنية على المؤسسات المالية والصناعية والتجارية الاجنبية ، وتأمين الحريات الديموقراطية العامة والفردية ، رفع مستوى البلاد الاقتصادي ، معالجة



---

(٥١) صحيفة الاخبار اللبنانية للحزب الشيوعي اللبناني العدد ٧٦ عام ١١٩٧٤ في ١٣ تموز .

(٥٢) محمد دكروب « جذور السنديانة الحمراء » دار الفارابي بيروت ١٩٧٤ ص.٤ .

(٥٣) جريدة صوت الشعب اللبنانية النظام الداخلي في العدد ٦٨٩ كانون الثاني ١٩٤٤ جاء في المادة الاولى بان الحزب في لبنان اصبح اسمه ( الحزب الشيوعي اللبناني » وفي سورية « الحزب الشيوعي السوري » في مجلد « صوت الشعب اقوى » دار الفارابي بيروت ١٩٧٤ .

البطالة . العناية بوضع تشريع العمل ، والعناية بحالة الفلاح البائسة الخ ...(٥٤) وكان ضد بقاء قوات اجنبية على ارض سورية ولبنان ، وبلغ نضاله من أجل الجلاء حدا كبيرا حتى سمي « بحزب الجلاء » وأهم نصر سجله « الحزب الشيوعي في سورية ولبنان » عام ١٩٤٦ بقيادة مصطفى العريس صدور قانون العمل(٥٥) .

اما فترة ١٩٤٦–١٩٤٨ اتسع عدد الشيوعيين وأصبح (٢٠٠٠)عضو، وفي هذه المرحلة يعود القمع من جديد ، وتمنع صحيفة صوت الشعب ، ويعتقل الكثير من أعضائه(٥٦) لفضحهم المؤامرات الاستعمارية في مشروعي « سورية الكبرى » و « الهلال الخصيب » .

اما حركة البعث :

فقد تكونت بنية حركة البعث من تلاقي مجموعات من المعلمين والمدرسين ، والمثقفين والطلاب ، والمحامين ، والاطباء ، والموظفين في مختلف انحاء سورية كما ضمت مجموعات من الطلبة الجامعيين العرب من الاردن ، ولبنان والعراق . اذن هي حركة مثقفين .



وفي مرحلة النشوء والتأسيس كان حزب عصبة العمل القومي اقرب الاحزاب السياسية في سورية الى حركة البعث من حيث المنطلق القومي. وقد انضم اليها عدد من الاعضاء السابقين في العصبة ، وكان ابرزهم « مجموعة زكي الارسوزي » . كانت منطلقات حركة البعث امتدادا من منطلقات الارسوزي لأسبقيته التاريخية(٥٧) .

(٥٤) مجلد صحف صوت الشعب أقوى ١٩٧٤/١/٧ .

(٥٥) انظر كولان في الحركة النقابية في لبنان ١٩١٩ – ١٩٤٦ في صفحات مختلفة ص ٤١٤، ٤٢١ (مترجم من الفرنسية الى العربية ) دار الفارابي بيروت ١٩٧٤ .

(٥٦) مقابلة شخصية مع احد الزملاء الشيوعيين اللبنانيين يكتب حول حركة التحرر في لبنان مابين الحربين .

(٥٧) أحمد العلي . البنية الاجتماعية لحزب البعث العربي الاشتراكي دراسة تاريخية تحليلية ١٩٤٧ – ١٩٦٣ أكاديمية ستيفان جورجيد في رومانيا الاشتراكية ( اطروحة دكتوراه ) ص ٤٩ .

اعتبرت حركة البعث منذ بداياتها حزبا سياسيا ، وتقدمت بطلب الترخيص في تموز ١٩٤٥ لكن لم تكن تملك وثيقة رسمية معتمدة من قبل هيئة نظامية ممثلة لقواعده ، وتحدد منطلقاته الفكرية والنضالية الى ان تحقق ذلك في ٧ نيسان ١٩٤٧ في المؤتمر التأسيسي الاول في دمشق والذي حضره /٢٠٠/ عضو(٥٨) وكانت له صحيفة اسمها ( البعث ) ـ وللحزب مواقف نضالية كثيرة من اجل الاستقلال ، والسيادة الوطنية ، وبرزت مواقفه النضالية في معارضته لمشروعي « الهلال الخصيب » و « سورية الكبرى » .

مر الحزب بأربع مراحل : الاولى ١٩٤٥ مرحلة النشوء والتأسيس فيها وضح الحزب هويته النضالية بمنطلقين اساسيين هما : المسألة القومية ( وحدة الامة وتحررها ) وحدد هذا المنطلق في شعاره ( امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة ) ، ثم المسألة الاشتراكية وقد اعطى في هذه المرحلة الاولوية للمسألة القومية .

اما الدستور الذي وضعه فكان ينص على ثلاثة مبادىء اساسية هي: وحدة الامة ، شخصية الامة ، رسالة الامة . وثلاثة عشر مبدءا عاما توضح المفاهيم والمنطلقات الفكرية للحزب(٥٩) . وحقق الدستور في اطار الظروف التاريخية المحلية والعربية والدولية التي صدر فيها قفزة نوعية للنضال بأسره(٦٠) . ووضع أيضا منهاجا مرحليا عمليا يتالف من ٣٥ مادة تعالج سياسات الحزب الداخلية والخارجية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية التعليمية(٦١) .

---

(٥٨) أحمد العلي المصدر السابق ص ٤٨ .

(٥٩) المصدر السابق ص ٤٨ ماخوذ عن مقابلة مع الاستاذ جلال فاروق الشريف احد اعضاء المؤتمر التاسيسي وعن مجلة الحزب الداخلية « المناضل » أعداد ١٩٧٧ .

(٦٠) المصدر السابق ص ٥٥ .

(٦١) المصدر السابق ص ٥١ .

اما المرحلة الثانية فكانت مابين ١٩٤٩ ـ ١٩٥٤ وقد واجه الحزب فيها الديكتاتورية العسكرية التي حكمت سورية . وفي المرحلة الثالثة مابين ١٩٥٤ ـ ١٩٥٨ كانت مرحلة هامة من تاريخ الحزب حيث تم الدمج بين « حزب البعث العربي الاشتراكي » و « الحزب العربي الاشتراكي ». الذي يعود نشوؤه الى ١٩٤٢ وكان يعرف بحزب الشباب ، واغلبية عناصره من المثقفين والطلاب وبعض العمال ، وصغار الكسبة وبقيادة عثمان حوراني ووقف الى جانب مصالح الفلاحين الفقراء بشكل اساسي نظرا للصراع الطبقي الحاد الذي كانت تشهده محافظة حماه حيث نشأة الحزب(٦٢) . وتعتبر مرحلة الدمج هذه مرحلة فاصلة في المواجهة بين الفلاحين المسحوقين وبين الاقطاع على صعيد النضال المطلبي او النضال السياسي . والمرحلة الرابعة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠. تعتبر مرحلة جمود في حياة الحزب نتيجة حل الحزب في ١٩٥٨ من اجل تحقيق الوحدة العربية بين سورية ومصر والتي قامت ١٩٥٨ ـ ١٩٦١ حدث الانفصال في ١٩٦١ ـ ١٩٦٣ عاد الحزب للنشاط وقام بثورة ضد العناصر الرجعية من الاقطاع والبرجوازية التجارية التي نشطت خلال هذه المرحلة . وعاد الحزب ثانية الى التنظيم والنضال في ٨ آذار ١٩٦٣ . وستبدأ مراحل نضالية جديدة في تاريخ الحزب .

### الحركة النقابية في سورية ولبنان ١٩٤٢ ـ ١٩٤٨ :

منذ أواخر العشرينات . وفي المشاغل الصغيرة حيث برزت ببطء علاقات انتاج مميزة للصناعة الحرفية التقليدية . وفي اتجاه تمايز متنام بين العمال وارباب العمل كانت ولادة النقابات العمالية الاولى في سورية ولبنان .

مرت الحركة النقابية في سورية ولبنان بنفس المراحل تقريبا لتشابه ظروف القطرين لكن العمل النقابي في لبنان كان أسبق واعمق منه في سورية .

(٦٢) المصدر السابق ص ٦٥ .

المرحلة الاولى ١٩١٩ ــ ١٩٢٥ :

ظهر التنظيم المستقل للعمال في لبنان ، وكسر فيه الاطار الطائفي الحرفي وكان عام ١٩٢٤ نقطة تحول في حياة العمال لظهور اول نقابة عمالية خالصة طبقية على اسس جديدة هي « نقابة عمال الدخان في لبنان » ومؤسسها فؤاد الشمالي الماركسي(٦٣) . وفي سورية تشكلت اول نقابة ١٩٢٥ « نقابة عمال التريكو والمنسوجات » ومقرها دمشق لكن حسب القانون العثماني للحرفة(٦٤) .

المرحلة الثانية ١٩٢٥ ــ ١٩٣٢ :

بدا العمل النقابي في لبنان يتضح اكثر وتزايد عدد العمال وكان لحزب الشعب اللبناني الذي اسسه الماركسيون اثر كبير في تدعيم المطالب العمالية وتشكلت لجنة لتنظيم العمال بالنقابات وفي ١٩٢٨ تشكلت « نقابة عمال الطباعة » في سورية وبقيت مشتركة بين العمال وارباب العمل(٦٥) . ووقفت قوات الاحتلال باستمرار عائقا امام تطور العمل النقابي في سورية ولبنان .

المرحلة الثالثة ١٩٣٢ ــ ١٩٣٩ :

تعتبر مرحلة تصاعد العمل النقابي في القطرين . حيث تزايد عدد العمال مع نمو الصناعات ــ ففي لبنان تطورت الحركة النقابية ، والوعي النقابي في القطرين فاجتازت ثلاث مراحل من نقابة حرفية تضم العمال وارباب العمل الى نقابة اصلاحية ثم الى نقابة طبقية تمثلها « نقابة عمال

---

(٦٣) مروان حبيب عبدو . حول الواقع الاقتصادي في لبنان خلال فترة الانتداب ١٩١٩ ــ ١٩٤٦ جامعة بخارست بالرومانية ١٩٧٨ ص ٥٨ .

(٦٤) محاضرة لعبد الله الاحمد « مسؤول المكتب العمالي في سورية » صادرة عن المعهد النقابي في دمشق .

(٦٥) المرجع السابق .

الطباعة في لبنان »(٦٦) وكان لسنوات الازمة العامة للراسمالية ١٩٢٩ ـ ١٩٣٣ التي انعكست على البلاد في اثارة الاضرابات وخاصة اعوام ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ حيث بلغ عدد الاضرابات في سورية ولبنان /٤٥/ اضرابا قاد الشيوعيون منها /١٥/ اضرابا(٦٧) وكانت قوات الانتداب تضع العراقيل امام محاولة التنظيم النقابي كما جرى ( بين أعوام ١٩٣٤ ـ ١٩٣٦ الذي شمل ما يقارب ٥٧ تعطيلا للصحف )(٦٨) وفي عام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧ كان اشتراك فعال للعمال في الحياة النقابية وترأس مصطفى العريس نقابة المطابع كما ارتبط باسمه تطور الحركة النقابية حتى يوم الجلاء .

وفي سورية صدر تشريع عام ١٩٣٥ يسمح بالتجمع العمالي وفي ١٩٣٦ اجتمعت ٣٠ جمعية وكونت اتحاد نقابات دمشق وفي ١٩٣٧ اتحاد حلب وكونت جميعها « اتحاد نقابات العمال في سورية » وفي ١٩٣٨ شمل الاتحاد مدينة حمص(٦٩) .



وفي عام ١٩٣٦ بلغ عدد النقابات في سورية /٨٧/ نقابة منها /١٢/ نقابة خالصة و /٥/ نقابات لارباب العمل و /٧١/ نقابة مختلطة ( العمال وارباب العمل )(٧٠) وفي سنتي ١٩٣٧ـ١٩٣٨ شهد القطران نضالا واسعا من أجل الاجور ، وتحسين ظروف العمل والاعتراف الشرعي بالنقابات .

---

(٦٦) جاك كولان « الحركة النقابية في لبنان ١٩١٩ ـ ١٩٤٦ » دار الفارابي بيروت عام ١٩٧٤ مترجم عن الفرنسية ص ٣٢ .

(٦٧) تاريخ الاقطار العربية المعاصرة ١٩١٧ ـ ١٩٧٠ دار التقدم . موسكو معهد الاستشراق ص ٩٤ .

(٦٨) جاك كولان في الحركة النقابية في لبنان مصدر مذكور ص ٢٥٢ .
مصطفى العريس ولد في بيروت ١٩١١ وعمل منذ ١٩٢٤ في الطباعة انتسب للحزب الشيوعي اللبناني عام ١٩٢٧ .

(٦٩) جاك كولان ، مصدر مذكور ص ٢٦١ .

(٧٠) د. عبد الله حنا . الحركة العمالية في سورية ولبنان ١٩٠٠ ـ ١٩٤٥ دار دمشق ١٩٧٣ ص ٤٢١ .

## المرحلة الرابعة ١٩٣٩ ــ ١٩٤٦ :

في السنوات الاولى للحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ــ ١٩٤١ ضربت الحركة النقابية في القطرين . وفي ١٩٤٣ عاد العمل النقابي ينشط ضمن الظروف النضالية للاستقلال السياسي وبلغ مجموع الاضرابات العمالية بين ١٩٤٢ ــ ١٩٤٦ حوالي /٤١/ اضرابا في لبنان كما ورد عند كولان . وتوجه مصطفى العريس بنداء لجميع النقابات واستطاع ان يفرض تحكيما نقابيا لصالح العمال في لبنان . وفي ١٩٤٥ تأسس « الاتحاد العام لنقابات العمال والمستخدمين » وكان الاتحاد الوحيد في لبنان . وبقي حتى سنة ١٩٤٨ تحت قيادة الشيوعيين . وفي ١٩٤٦ تعرض العمل النقابي الى الضغوط والتضييق على الحركة الديموقراطية بعد الاعتراف العالمي بالنقابات الديموقراطية وتمثيلها في المجلس التنفيذي لاتحاد النقابات العالمي برئاسة مصطفى العريس(٧١) واخذت الحكومة على عاتقها وضع قانون العمل لكي تضع الحركة العمالية تحت رقابتها وتحد من تأثير الديموقراطية مما ادى الى اضراب عام وشامل انتزع على اثره قانون العمل في لبنان ٢٣ ايلول ١٩٤٦ . وكان تأثير الحركة العمالية اللبنانية قويا في سورية ١٩٤٥ وبعد الحصول على الاستقلال اخذ النضال الاجتماعي يطفو تدريجيا على سطح الاحداث نتيجة عدة عوامل منها التطورات الاقتصادية والاجتماعية - وازدياد اشعاع الافكار الاشتراكية بعد تحطيم الفاشية على يد الشعوب المناضلة من اجل حريتها وطرح النضال الاجتماعي بشكل حاد وبذلك استطاع العمال السوريون أن يحصلوا على قانون العمل في ١١ حزيران ١٩٤٦ بعد نضال طويل ونتيجة لنمو العمال العددي والجهود التي بذلها انصار الطبقة العاملة أصحاب الفكر الاشتراكي ومرونة البرجوازية السورية وعدم بروز طابعها الرجعي بشكل واضح حتى سنة ١٩٤٦(٧٢) .

---

(٧١) مروان حبيب . الواقع الاقتصادي في لبنان مصدر مذكور ص ٦٢ .

(٧٢) انظر د. عبد الله حنا في الحركة العمالية في سورية ولبنان في صفحات متعددة مابين ص ٤٨٥ ــ ٥٠٤ .

وكان من مكتسبات عمال القطرين الاعتراف بحق تأليف النقابات او العمل النقابي وبحق الاضراب ضمن حدود معينة ، حد ادنى للاجور ، ثماني ساعات عمل يوميا،عطلة اسبوعية ،اجازة سنوية ماجورة ، اجور بعض الاعيـاد . تعويض التسريح التعسفي وتعويض طوارىء العمـل والامراض المهنية . وبعض الفقرات بما يتعلق بعمل الاولاد – والنساء مع اجازة امومـة .

وقيم ابراهيم البكري قانون العمل . بأن القانون احتوى على مواد كثيرة تعتبر انتصارا للعمال السوريين ولكنه احتوى موادا اخرى غايتها عرقلة النضال النقابي وتعقيد الوسائل والطرق التي ينبغي أن يسلكها العمال حتى يحصلوا على حقوقهم(٧٣) .

**المرحلة الخامسة ١٩٤٦ – ١٩٤٨ :**



تعاظم دور العمال في الحياة السياسية على الرغم من ضعف نسبتهم العددية الى مجمل السكان في سورية حيث بلغ عددهم ١٩٤٧ ( ٦٠٠٠٠ ) عامل في /٤٦/ نقابة(٧٤) اما في لبنان فكان التزايد العددي أكبر وبلـغ ( ٢٠٠٠٠ ) عامل في /٢٢/ نقابة منظمة تحت قيـادة الحزب الشيوعي اللبناني و ( ١٠٠٠٠ ) عامل في نقابةالسواقين(٧٥) وفي هذه الفترة عاشت الحركة العمالية فترة جمود بسبب بدء الردة الرجعية بعد تسلم الاقطاع والبرجوازية الحكم . وضربت جميع القوى التقدمية في سورية ولبنان . وبشكل خاص الحزب الشيوعي اللبناني والسوري الذي لعب دورا هاما

---

(٧٣) د. عبد الله حنا مصدر مذكور ص ٤٩٨ ماخوذ عن ابراهيم بكري حقوق العمال في قانون العمل السوري دمشق ١٩٤٨ – ص ١١ .

(٧٤) مقال من اطروحة الدكتور اليزابيت لونغيس « الطبقة العاملة السورية » مترجم عن الفرنسية ورد المقال في مجلة الطريق للحزب الشيوعي اللبناني العدد ٤/٥ تشرين أول ١٩٤٨ المجلد ٢٧ ص ٦٠ .

(٧٥) كولان مصدر مذكور ص ٢٧٣ .

في قيادة وتنظيم الحركة العمالية خلال مختلف المراحل . كما برز الدور الاصلاحي حتى ان النقابات اليمينية في لبنان تمثل ثلثي النقابات وتسيطر عليها أجهزة تابعة للدولة . ومع ذلك حقق العمال اكبر الانتصارات النضالية عبر مسيرة حركة التحرر الوطنية نتيجة التحالف مع جميع القوى الوطنية الدافعة(*) للنضال ضدالاستعمار والسيطرة الامبريالية والرجعية داخليا وخارجيا .

## النتائج السياسية بعد الاستقلال السياسي في سورية ولبنان ١٩٤٣ — ١٩٤٨ :

— انجاز الاستقلال السياسي ومتابعة النضال للحصول على الاستقلال الاقتصادي .

— عاشت القوى الوطنية المناضلة فترة مد ديموقراطي ما بين ١٩٤٣ — ١٩٤٦ مما ادى الى تطور نضالها ثم استلام المصالح المشتركة ، وقانون العمل ، وتحرر النقد السوري وبعض التأميمات .

— ادى الاستقلال الى ضرب بعض مواقع الامبريالية مما جعلها تبحث عن التعويض بالاحلاف العسكرية مثل « حلف بغداد » و « سورية الكبرى » .

— استلام الاقطاع والبرجوازية الكومبرادورية السلطة ووقوفها عند مصالحها مما ضرب الحركة الوطنية الديموقراطية بعد ١٩٤٦ .

— عودة اللقاء بين مصالح الرجعية التي استلمت السلطة الامبريالية العالمية .

---

(*) القوى الدافعة : هي جماهير الفلاحين ، الحرفيون ، الصناعيون الصغار ، التجار الوطنيون ، المثقفون ، الضباط .

- تطور الحركة الوطنية وبروز دور المثقفين عبـر مختلف التيـارات الفكرية المتراوحة بين اقصى اليمين واقصى اليسار .

- ولادة حركة البعث العربي في سورية ١٩٤٧ وبروز دورها النضالي الوطنـي .

- تطور الحركة النقابية العمالية بقيادة الاحزاب الشيوعية والفئات التقدميـة .

- تصاعد نضال الاحزاب التقدمية ، ومختلف الفئات المناضلة في دفع حركة التحرر الوطنية الى الامـام .

- بروز أهمية التحالف بين القوى الدافعة للنضال التحرري ، وتكوين جبهة وطنية واحدة ضد الاستعمار والامبريالية والتبعيةالاقتصادية وحتمية متابعة النضـال في المراحل المقبلة .

- تأزم الوضع السياسي نتيجة للتناقضات بين البرجوازية الوطنية في ١٩٤٧ وحدوث الشقاق في الحزب الوطني وتشكل المعارضة البرلمانية من المنشقين .

- الدخول في ايار ١٩٤٨ الحرب الفلسطينية التي استفزها الامبرياليون والصهيونية العالمية مما زاد في الازمة السياسية والاقتصادية في البلاد وادى لزيادة الضغط على حركة التحرر الوطني .

**المقارنة بين سورية ولبنان اولا ، ثم مع باقي الاقطار العربية :**

ما بين سورية ولبنان : لا توجد فروقات جوهرية في نضال حركـة التحرر الوطنية بين سورية ولبنان خلال هذه المرحلة من الاستقـلال السياسي ١٩٤٣ ـ ١٩٤٨ لانها اتخذت في كلا القطرين ابعادا واسعة ، واستطاعت ان تسبق باقي الاقطار العربية في الحصول على الاستقلال السياسي وهذا ما شجع حركات التحرر العربية الاخرى لتسريع استقلالها .

اما الفروقات التي حدثت بين سورية ولبنان كانت نتيجة التناقضات والصراعات بين البرجوازية والكومبرادورية في سورية ولبنان وموقفها من الراسمال الاجنبي . حيث كان اسلوب الانفتاح الاقتصادي على الغرب في لبنان اعمق منه في سورية مما افسح المجال للاموال الاجنبية ان تتمركز بشكل واسع وهذا ما جعل قطاع الخدمات والتجار يطغى على باقي فروع الاقتصاد .

هذه السياسة ادت الى بقاء المسار الطائفي في لبنان كما كان في عهد الانتداب بل تعمق اكثر وزاد في التجزئة التي اتخذت شكل طوائف « دويلات » . وهذا ما جر الى حربين اهليتين في لبنان الاولى عام ١٩٥٨ والثانية عام ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦ ومازالت قائمة حتى اليوم .

اما في سورية فقد كان اتجاه البورجوازية نحو حماية الصناعة الوطنية الناشئة واتخاذ اجراءات سياسية جمركية حدت كثيرا من الانفتاح الاقتصادي على الغرب وساهمت في انماء الصناعة الوطنية نوعا ما . ولم تتخذ الطائفية هذا العمق في التجزئة رغم وجودها . بقي ان نشير الى ان الحركة النقابية في لبنان كانت اقوى من سورية لان البرجوازية السورية عملت على وضع العمل النقابي تحت قيادتها لتحول دون تطوره ونشاطه . بينما في لبنان كان العمل النقابي ينشط في السر وبغياب البرجوازية اللبنانية رغم ان سلطات الانتداب كانت تعمل على منع العمل النقابي في كلا القطرين .

مع باقي الاقطار العربية : بعد الحرب العالمية الثانية بشكل عام بدا في الشرق العربي نهوض جديد في حركة التحرر الوطني . وبدا انهيار النظام الاستعماري وصفيت انظمة الانتداب في سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن . وادى تغير ميزان القوى على المسرح العالمي لصالح قوى السلام والديموقراطية والاشتراكية الى نشوء وضع دولي ملائم للدولة العربية حيث نجحت في صد حملات الامبريالية واحلافها الاستعمارية لكن جميع الدول العربية سارت بشكل متسارع نحو التحرر السياسي والاستقلال الاقتصادي ، والتخلص من التبعية والرواسب الاستعمارية .

## أدب

### راجع

فصل من رواية

« مأساة ديمترييد »

حنا مينه

### أقواس الحداقة

قصة : جنان جاسم حلاوي

« العراق »

### قصيدتان

المغرب

ذئاب البيت

شعر : جليل حيدر

### الحرائق

شعر : مروان صقر

راجــع

# فصــل مِــن روايــة «مأســاة ديمتريــد»

حنــا مينــه ،



هل حقا أنا راجـع ؟

لقد وقع الذي كنت أخافه واحببت • انا الفقير ، البائس ، صاحب البدلة اليتيمة احببت • في الخمسين من عمري احببت • القدر قـال كلمته • كنت أخاف القدر وكلماته دائما ، ولعل خوفي هو الذي أغراه بي •• لقد رأيتها ، ذات ليلة ، في امسية موسيقية • لكن من أنا أولا ؟ اناديستريو البنيوتي • امي خريستين • والدي اسطفان • ولدت في اليونان • أحمل الجنسية السورية ، اعمل معلما للعزف على الكمان ، اعلم أولاد الاغنياء ، تنافسني البيانو ، كل الاغنياء يريدون اقتنـاء بيانو ، صارت هذه الآلة البغيضة قطعة من اثاث البيت • حيثما دخلت وجدتها تمثالا شيطانيا في وجهي • باستطاعتي ان اعزف عليها • ان اعلم المبتدئين العزف عليها . لكنني عازف كمان • احب عزف الكمان

لا البيانو ، درست العزف عليه في المعهد الموسيقي في اثينا . أصلي من كريت . والدي فلاح بسيط . امي قروية مسكينة . عائلتنا تتألف من أب وأم وثلاثة صبيان وبنتين . اجهل ما حل بعائلتي بعدي . من المؤكد انها تفرقت . ضاعت كما ضعت . مات الاب والام . علمت ، من أحد المهاجرين من الجزيرة ، أن أبي وأمي ماتا . بكيت . ماذا ينفع البكاء ؟ لعلي بكيت على نفسي وليس عليهما . بكيت عقوقي وضياعي . الاخطاء تتطلب اثمانها . انا ادفع ثمن اخطائي . ادفعه دمعا ، ولكن ماذا يساوي الدمع ؟باية عملة يباع ؟ ومن يشتريه ؟ ثم انا ، في مهنتي ودخولي بيوت الناس ، علي أن أمسح دموعي جيدا ، اركب ابتسامة . تمرنت على تركيب هذه الابتسامة . لكن عيني الخضراوين قليلا . تفضحان حزني . يدور البؤبؤان بحركة دائمة . اغمز أحيانا بغير سبب . لكي يبتسم الطفل الذي اعلمه . لكي ابتسم انا نفسي .. ان مهنتي شاقة . قلع الحجارة . تكسيرها . اهون من تعليم العزف . في بلد يجهل الموسيقى ، يكرهها .. ثم فجأة . هذه الايام ، صاروا يريدون تعليم اولادهم الموسيقى ، يريدون تعليم بناتهم الباليه .. يسألونني : الا تدرس الباليه ؟ بلى ! انا اعرفها ، كانت ، في المعهد ، جزءا من الدروس . كان لها قسم خاص ، لكنني التحقت بقسم الموسيقى وحتى لو كنت ارقص الباليه ، واعرف تعليمها ، فانني لن افعل .. لست مهرجا . لن اهرج بعد هذا العمر . اقبل شيئا واحدا ، ان اعزف متطوعة على البيانو . تتمرن عليها الطفلة في البيت . حين اكتشف صلاحيتها ، صلاحية جسمها ، قوامها ، مرونتها ، قابليتها ، نجابتها .. انني افعل ذلك كرمى لها ، للطفلة ، ولكن الدرس الاساسي ، هو

العزف على الكمان • التدريب ، مع الموسيقى . على البيانو ، حصة اضافية • كي اثبت انني اعزف على البيانو ايضا . اعزف ولا اعلم • ليس هذا اختصاصي • انا رجل محترم • فقير ولكني محترم • احترم مهنتي • غير ان الناس ، اكثر الناس . يريدون تعليم اولادهم العزف على البيانو . يقولون انهم اشتروها خصيصا لتعليم اولادهم عليها • ولكن الولد قد لا يحب العزف على البيانو فيكرهونه • يكرهون بناتهم الصغيرات اكثر • وقد تكون هذه البنت او تلك ، هذا الصبي ، او ذاك ، عديم القابلية • اذنه غير موسيقية ، لا فلاح له في تعلم الموسيقى، لكن الاهل لا يبالون بهذا . من تمام الوجاهة ان يرسلوا بناتهم الى المعاهد الموسيقية • افرح بذلك • الموسيقى سر الحياة . فرحها . سحرها . لكن اساتذة المعهد يشكون كما اشكو . يقولون انهم يلاقون ما ألاقي ، يتعذبون كما اتعذب ، لا يجدون قبولا ولا تنبها من الاهل. تعليم الاولاد الموسيقى شيء على الموضة • هم ايضا يريدون ان يكونوا على الموضة . بعد ذلك لا يبالون . يحسبون ان كل طفل ارسل الى المعهد الموسيقي ، او احضر له معلم الى البيت صار موسيقيا . خطأ ! خطأ ! ولكن من يبالي بالخطأ ؟ من يقتنع ؟ ومن يصدق ان هذا الطفل. هذه الطفلة ، قد يكون . او تكون . ميالا او ميالة الى الكمان . وانها قد تبرع فيها اكثر ؟ الكمان ليس حلية . ليس قطعة اثاث . ليس شيئا للوجاهة . وهكذا تهزم البيانو الكمان . ويقل رزقي . ولولا انني بعطف من مدير المعهد الموسيقي ، اعلم بضع ساعات في الاسبوع . لكنت مت من الجوع • صحيح انني يوناني . لكنني سوري الجنسية . ولانني كذلك ، فأنا أُعطى أقل مما يُعطى الخبير الموسيقي الاجنبي • يقولون:

هذا هو القانون ! انا احترم القانون . عشت عمري كله على احترام القوانين ، انما هذا ظلم فادح ، صارخ ، ويقول لي مدير المعهد انـه سيعمل لرفـع الغبن . غير انه لا يستطيع . يصطدم ، كلما حـاول ، بالقانون اياه .

لن اقول ما فائدة الندم . بل ما معناه . الندم صار له عندي معنـى آخر . لا يزيد الا في اجترار ظلم القدر . حياتي صارت ندما كلهـا . ملعونة الحياة التي يغدو الندم نـسيجها . كفى ! أقول لنفسي ، لقدانتهيت. الناس ينتهون في الختام . انا انتهيت منذ البداية . كان علي ، حـين هربت من اهلي في جزيرة كريت . وعملت في آحد الفنادق ، ودخلت كلية الفلسفة في وقت واحد . ان اتابع دراسة الفلسفة . لكنهم عندنا ، في اليونان ، كانوا يتداولون نكتة دارجة : « لا تخف الا تجد مهنة لإبنك ما دامت الفلسفة موجودة » . كانوا يتندرون . يطلقون على اثينا اسما طريفا « مصنع الفلسفات المعلبة » . ربما لم اكن في طبعي من هواة الفلسفة . لـم استسغ حواريات الفلاسفة . أفلاطـون وسـقراط وارسطاطاليس.. كان جو أثينا يعبق بانفاسهم.لكن جو أثينا يعبق بأنفاس المسرح . والاعيادالاولمبية . وبالعلوم . وكان علي . ارضاء لميلي ، ان انضم الى معهد التمثيل . لكنني ، بدافع من ابليس ، اخترت معهد الموسيقى . قلت اصير موسيقيا كبيرا . شهيرا . وفي اسوأ الاحوال . اكسب عيشي من العزف . في الصالات او مع الفرق المتجولة . ألتحق ، اذا اجدت العزف، بفرقة سمفونية . أهاجر . اعيش في أوروبا . أوربا فاغنر وباخ وشوبان . هذا افضل من التمثيل.المثل . تلك الايام ، كان يعيش نصف عيش . انا اردت عيشا كاملا . تطلعت الى المجد ، الخلود .

الشهرة ، وكذلك الى كسب المال ، لمساعدة ابوي الفلاحين وعائلتي في الجزيرة البور • لكن الفقر حال بيني وبين دخول المعهد العالي • تعبت من العمل والدراسة ، وكانت ازمة الثلاثينات قد بدأت ، توقف المرفأ • تعطلت صناعة السفن • كسد الاسطول التجاري • المدينة ، على مرفأ ، تموت اذا مات المرفأ . وفي تلك الازمة الخانقة ، لحقت بملايين العاطلين عن العمل ، وبصعوبة قبلتني فرقة موسيقية مسافرة الى جزيرة قبرص ، لم نتوفق كما يجب •كانت الجزيرة تعيش على البحر ايضا ، والبحر في كساد ، فاغرانا مواطن يوناني ، يعيش في اسكندرونة ، ان نذهب اليها ، حيث تعيش جالية يونانية كبيرة ، ومن هناك تجمع اجرة السفر الى الاسكندرية . حيث قومنا اليونانيون يعيشون بكثرة .

في اسكندرونة وجدنا الحال كما في اثينا ، وقيل لنا ان الاسكندرية كمرفأ ليست افضل حالا ، وامام الفشل المتواصل ، اضطررنا الى بيع آلاتنا لنأكل بثمنها • وقيل لي ان المعهد الايطالي في اسكندرونة يحتاج الى عازف على الكمان للتدريس براتب يكفيني• بقيت ثمة عشرة أعوام لكنني تبينت ، في أواخرها ، ان للمعهد مهمة اخرى ، وان الرياضة ، والموسيقى ، والتمثيل ، ليست الا اغراءات للشباب ، كي يتبنوا الفاشية ، وفعلا شرع معلمون ايطاليون بتعليم الشباب الانظمة العسكرية •• كانوا بغير سلاح ، لكنهم مثل فرق موسوليني ، كانوا يرفعون ايديهم بالتحية ، ويهتفون له • رفضت المشاركة في اللعبة • كانت لعبة الفاشية قذرة • كنت ، وانا طالب ، يساريا ، وكنت يساريا بطبيعية وضعي العائلي وشقائي والبيئة الفقيرة التي عشت فيها ، وكنا نكره الفاشية ، ونكره النازية ، ونعمل ضدها ، وها انا ، بعد كل هذا التشرد ، اجد نفسي ستارة

موسيقية لموسوليني . اللعنة ! رفضت المشاركة في اجتماعات المدرسين ، وفي الموافقة على الافكار التي كانوا يطرحونها في الاجتماعات . بل رفضت رفع يدي بالتحية الفاشية قلت في نفسي : « اقطع يدي ولا افعلها » .

« قطعوا » يدي قبل ان اقطعها ، سرحوني من العمل . قلت في نفسي « لا بأس يا ديمتريو ، ان تجوع خير من ان تخون نفسك » عملت في خمارة صاحبها يوناني . كنت اعزف وامرأة يونانية ترقص . كانت لعنة اخرى ، غير موسولينية هذه المرة ، لكنها انحدرت بي الى العمل في خمارة ، ومع راقصة ، وخمار لا يفهم من الموسيقى الا اثارة الغرائز ، وتهييجها عند السكارى من زبائنه . اصبحت في حال زرية . اين منها الفلسفة ، والموسيقى ، والشهرة والمجد . طال بي الزمن . تقطعت اسبابي باليونان . بالجزيرة . باهلي . وسعى لي الخمار بوساطة أحد زبائنه ، فحصلت على الجنسية السورية . « انتهى الامر » قلت في نفسي ، سترقد عظامي ، بغير احتفال ولا كرامة ، في مقبرة هذه المدينة ، ولا فائدة من الجلوس في الاماسي ، على الشاطىء ، والنظر بعين أسيفة الى البواخر الراحلة والقادمة من اليونان . انا لن أرحل ولن اجيء . صرت عضوا في الجالية اليونانية ، اخذت اعلم اولادهم العزف ، تحسنت حالي . استأجرت بيتا . اشتريت ثيابا لائقة . لم اعد ابالي بالخمار وتهديداته ، رفضت بحسم ان اصبح قوادا مثله ، افهمته ، بكلمات صريحة ، جريئة ، انني ادخل بيوت الناس الطيبين ، الشرفاء ، وانني اذهب الى الكنيسة ، وفي اسبوع الالام ، اشتركت في ترتيل اناشيد الجناز ، صرت محترما . وارسلت لاول مرة ، بواسطة تاجر يوناني ، نقودا الى اهلي ، ورسالة

بكيت بسببها مرتين ، الاولى عند كتابتها ، والثانية عند ورود جوابها . كان في الخمارة فتيات يونانيات ساقطات . لم اعزف لهن ولا مرة ، كان دورهن ان يجالسن الزبائن ، وفي آخر الليل .. الخلاصة : قلت للراقصة انستاسيا : « اسمعي يا صديقتي . انت ترقصين وانا اعزف ، هذا جيد . هذا ، برغم وضع الخمارة الحقير ، يظل من الشرف . اذن جربي ان تكوني صريحة .. انت معي والا مع الخمار ؟ » قالت بغير تردد « معك » قلت : حسنا لا انت عاهرة ولا انا قواد ، نحن فنانان ، ينتهي عملنا فننصرف .. تأتين يوم الاحد الى الكنيسة ، تتناولين القربان ، ترفضين اغراءات هذا الكلب دوبولوس في الجلوس الى الزبائن ، أو مرافقتهم . بعد اغلاق الخمارة ، الى الاسرة .. تحافظين، مثلي ، على كرامة الفن .. لا تنسي اننا من اثينا ، من مدينة هي ام المدن في التاريخ ، وان الحالة اليونانية ، هنا ، تفتح لنا ابوابها » . سألت : « واذا ارغمني على ذلك الشيء » ؟ اجبتها فورا ، وبصورة قاطعة : « تتركين العمل » « ومن اين اعيش » ؟ من دخلي .. واذا طردك مثلي؟ « نعيش من الدخل القليل الذي يأتينا من تعليم الموسيقى » .



اتفقنا . لم يستطع انهاء عملنا . كان البحارة اليونانيون يأتون لسماعنا . كنت اعزف ، اغني ، وكانت ترقص ، صار رقصها فنيا ، محتشما ، وكنا ، حين تفرغ الخمارة الا من اليونانيين ، نغني اغانينا بصورة جماعية ، بصوت واحد ، فيه نشاز ، فيه خروج على اللحن ، فيه عدم اتساق ، لكنه كان جماعيا ، وكان عن اليونان، عن بيوتنا، أولادنا، اهلنا ، وعن بلدنا الجميل البديع ، وكان دوبولوس ، هذا الكلب ، نعم هذا الكلب نفسه ، يغني معنا ، يغلق ابواب الخمارة ، يقدم خمرا

مجانيا ، يبكي • تأملوا ، هذا العاهر يبكي • انه يوناني بعد كل شيء ، وفيه شيء لا يموت ، شيء من اليونان ، دم يوناني ، دم يوناني ، مهما يكن رديئا فهو دم من هناك ، من بلاد الاكروبول • ويوم الاحد كنت اصلي في الكنيسة ، كانوا يصلون بالعربية واليونانية • كنت اجيد اللحن ، وصوتي كان حنونا ، وفي عيد الفصح ، صباحا ، بعد صلاة القيامة ، قبلتني انا ستاسيا قائلة « خريستون سانستي ( المسيح قام ) اجبتها « خريستون سانستي يا حبيبتي » وتناولنا ، ذلك اليوم ، الغداء معا ، ومن صنع ايدينا ، في بيتي ، واعددنا دجاجة ، وبيض العيد الملون ، وبعض الكعك ، •• كان ذلك كله سعيدا كشافي حلم ، ودعينا ، في المساء ، الى حفلة صغيرة ، تبادلنا فيها التهاني ، والقبلات •• وهكذا تغيرت حياتي ، لم يعد القمر مسلولا ، ولا الغروب رماديا ، وكنا ، في ليالي الصيف ، نستأجر قاربا صغيرا نقوم فيه بنزهة في البحر ، تغمرنا اضواء الشاطيء ، يأخذنا الليل في عباءته ويرحل ، وتتعقد النجوم فوقنا ، فاذا حان موعد العمل في الخمارة ، كان العزف والغناء والرقص يحلو •

لم ندع الفرصة تفوتنا • تزوجنا ، باركنا كاهن المدينة ، وحضرت اسر محترمة من الجالية حفلة زواجنا ، وارسل الينا دوبولوس باقة ورد وزجاجات من الخمر ، وقالوا لي : « غننا ، يا ديمتريو ، في ليلة عرسك ، اعزف لنا شيئا يونانيا مما يعزف في الاعراس » وقدموا لنا الهدايا ، وفي اليوم نفسه ، ونحن بثياب العرس ، تصورنا ، وارسلت الصورة الى الجزيرة في اليوم التالي •

كانت تلك آخر رسالة بيني وبين اهلي • لم يبعثوا بجواب • انتظرت ولم يأت جواب • علمت بعد سنتين ، ان والدي ماتا •• انتهت

الحبكة • عقدة البيت انحلت • تفرق الجميع ، ضعنا جميعا ، واكتمل ضياعنا بقيام الحرب العالمية الثانية ، واحتلال المانيا لليونان • هذا ماكنت احسب حسابه • اخاف منه ، اراقب ، من خلال صحف يونانية تصل الجالية ، ان النازية تكشر • بعد التكشير جاء الابتلاع • افترست اوروبا بلدا بلدا ، في ظل هذا النهش والقضم الدوليين ، رأينا ، في اسكندرونة، نيوب انقرة • لا يستطيع اليوناني ، ان يثق بحاكم تركي • التاريخ هو التاريخ ، تاريخينالا يدع للطمأنينة مكانا • دخلت تركيا اللواء ، رأيت جنودها يسيرون في الشارع ، احسستهم يطأون كبدي • الجالية اليونانية اضطربت • دوبولوس الخمار لم يعد يفتل شاربيه • العرب تخوفوا • الارمن اكثر • كانوا يعرفون المذابح القديمة • يذكرونها أبا عن جد • بدأت الهجرة ، راجت الاشاعات ، عقدت الجالية اجتماعا • شرح عميدها الخطر ، طالب الجميع بالاستعداد ، اوصى بانشاء صندوق لجمع التبرعات تسهيلا لترحيل العائلات الفقيرة • تبرع كل من استطاع ، عميد الجالية دفع مبلغا محترما • دوبولوس الخمار ، باع خمارته • دعا الى ليلة وداع فيها • عزفت ودموعي تسيل على الكمان • لم ترقص انستاسيا ، لا مكان للرقص • عزف ، غناء جماعي ، عناق ، بكاء ، وفي آخر الحفلة ، رغب دوبولوس ان يمثل دور الملاك اليوناني • كانت الخمرة قد لعبت به • صعد الى سطح البار والقى خطبة قصيرة • قال ان الزمن الذي جمعنا هو نفسه يفرقنا • وقال بالايطالي : « فينيتولا موسيكا » وبكى من خلال شواربه • اخرج من جيوبه كمية من المال « هذا ، قال وهو يتعتع ، تبرع مني » ضرب على رأسه بكفيه وصاح : انا الخاطىء يا اخواني • اعرف ان في خمارتي ارتكبت اشياء منافية • لكن الخمارة

ليست كنيسة ، فكروا ، انتم ، واحكسوا ايها الطيبون ، انني ، في اعماقي ، لست سيئا ، لكن المهنة هي المهنة . خمار وكاهن لا يجوز . الخمار مضطر الى اغماض عينه الواحدة ، واحيانا اغماض الاثنتين ، لكن من عمل معي باستقامة ، عاملته باستقامة ، اسألوا انستاسيا ، اسألوا ديستريو .. تكلم يا ديستريو .. قل شيئا . تذكر اننا قد نلتقي ثانية .

في تلك اللحظات الوداعية ، صفا قلبي على دوبولوس ، وقفت لأتكلم دفعوني للصعود الى احدى الطاولات ، كان القوس والكمان ما يزالان في يدي ، تهييت الكلام ، كنت اختنق . كان الوتر يختنق ، الاصابع تختنق . والقوس ، دون ان اسحبه على الاوتار ، سمعته يئن ، وصفق الحاضرون . وكان دوبولوس ما يزال على البار امامي ، رسمت الصليب ، قلت : « باسم اليونان ، بلدنا العريق ، بلد الحكمة ، والالهة وهوميروس ، احييكم جميعا كيوناني بار ومخلص » . صفقوا لي . الاستهلال كان جيدا . لكن دوبولوس كان ينتظر شهادتي به . قاطعني ، وصرخ وهو ثمل ، من فوق البار : « اذكرني بكلمتين ياديستريو .. كن منصفا .. لا تترك الخطيئة تثقل وجدانك » صفق الحاضرون . كانوا يصفقون بالسهولة التي بها يشربون . كان كل منهم يريد أن يقول شيئا . وكانت انستاسيا الى جانبي ، وصاحت بي : « هيا ، بحق المسيح ، قل كلمة طيبة بحق دوبولوس .. انه لم يؤذنا ، برغم خطاياه » ، في هذه اللحظة رسم دوبولوس الصليب على صدره ، وانشد نشيد القيامة ، وهتف : « عاشت انستاسيا . أختنا بالروح ، فناننا .. وليغفر الله خطاياها .. ليغفر خطايا الجميع .. ها هو البحر .. لنذهب ونتعمد فيه » وانشد :

« انيوردوني بافتي زوميني سوكيريه »(١) فانشدناها بصوت واحد ، وفتحت فمي لاقول ، اخيرا ، كلمتي فصفق دوبولوس ، واقتدى بـه الجميع ، واشرت لهم ، كخطيب يوناني يواجه جموع اثينا ، الى السكوت فسكتوا ، ولم يفتح الله علي بسوى هذه الكلمات : « هـذا التيس العجوز ( وعلا الضحك والتصفيق ) هذا البرميل من الخمر ، برغـم خطاياه التي بعدد الرمل ، طيب أحيانا . كان يونانيا .. ليغفر الله له ، وفي الاخرة ، ليشمله بمغفرته ويدخله الجنة » وصاح رجل : « على شرط الا يفتح هناك خمارة » وقال آخر « حيثما وجد اليوناني وجدت الخمارة ولو في الجنة ..وقالت امرأة « دوكسا سيكو » (٢) ورسمنا الصليب ، بصورة جماعية ، ونزل دوبولوس عن البار وفي يده زجاجة وكأس ، وراح يتبادل الانخاب والقبلات مع الجميع ، وبعد اسبوع سافر الى قبرص ، وبذلك انتهت الملهاة التي صنعها لنا في وداعه ، ولم يكن احد يؤمن بكل ما قيل ، فالمسيح ليس له علاقة بما جرى ، ودبولوس خاطىء اكثر من ابليس .

اكثرية الجاليـة سافرت الى اللاذقيـة وبيروت والاسكندرية ، اليونانيون رجـال بحر ، جيران بحر ، لا يحبـون العيش سوى في المرافىء ، انستاسيا وأنا سافرنا الى اللاذقية . هذا بلد قريب ، وهو ميناء جيد ، وفيه يونانيون ، ومن حسن الحظ ، ان الاب ايميه فيليكس، الذي كان رئيس مدرسة الفرير في اسكندرونة ، وكان نبيلا ، طيبا ،

(١) باعتمادك يا رب في نهر الاردن .

(٢) يا رب ارحم .

روحا يونانية برغم انه فرنسي ، قد صار رئيسا لمدرسة الفرير في اللاذقية، كنت أعرفه . أحبه . جميع الاسكندرونيين كانوا يحبونه . وكانوا ، بعد هجرتهم ، يأتون اليه طلبا للعون ، للوساطة ، للدراسة . قصدته في جملة القاصدين . قلت له انني بطال ، لا خمارة يونانية في اللاذقية ، ولا أعرف أهلها ، وسأصبر طويلا قبل أن يصير لي بعض التلامذة ، وأنا وزوجي بحاجة الى اللقمة ، ساعدنا ، أيها الاب المقدس . نعم قلت له الاب المقدس وأنا مؤمن بما أقول ، فمازحني قائلا : « لكل منا خطاياه يا ديستريو ، طوبى لانقياء القلب لان الهم ملكوت السموات أنت نقي القلب يا بني ، وانا في سبيلي الى ترتيب أمور المدرسة ، كرئيس جديد لها ، ولدي فكرة : ماذا لو فتحنا قسما لتعليم الموسيقى ؟ أو ماذا لو أعطينا في مدرستنا دروسا موسيقية ؟ » قلت متأدبا . متواضعا . كأنني في حضرة ملاك ، أنت وما ترى يا ابت .. المسيح ، عليه السلام ، قال : « تعالوا الي أيها المتعبون وأنا أريحكم » أنا متعب .فأرحني أيها الاب . يا أخي في المسيح » أعجبه كلامي . سألني : « أين تعلمت في اليونان ؟ » قلت « حتى الثانوية في جزيرة كريت . وبعد هاجرت ، هربا من الفقر ، الى أثينا . حيث عملت ودرست .. وبقيت سنتين أدرس الفلسفة ، قبل أن أترك الكلية الى المعهد الموسيقي » قال : « لو تابعت دراسة الفلسفة .. أو لو دخلت المعهد العالي للموسيقى .. » قلت : « هذا ما كان حظي .. كنت فقيرا، وبحاجة الى اللقمة ، وحكيت له كامل قصتي » ..

زرع الطمأنينة في قلبي . كان خوريا مسيحيا حقيقيا . كان طيبا ، جميلا ، ومن نظارتيه الذهبيتين ، ووجه البدري ، والشيب في ذقنه

وشعره ، وقامته الطويلة ، عريضة المنكبين ، كان يذكر بفارس من القرون الوسطى ، الا انه ، في وظيفته ، كان فارسا ربانيا ، كان قلبه مع الفقراء ، كان الانجيل في ضميره . سقاني القهوة ، أعطاني مبلغا ، وقال لي : « منذ الغد التحق بالمدرسة .. لن تجد عملا منذ اليوم الاول ، لكننا سنتعاون ، وسنرتب درس الموسيقى .. هل جربت أن تعزف على الارغن ؟ » كنت قد جربت..ما أردت الكذب..صارحته بأنني عازف كمان ، لكنني أعزف على البيانو والارغن ، ومستعد ، وقت الصلاة ، أن أعزف موسيقى ترافق التراتيل ، اذا كانت هناك نوطات موسيقية .. قال : « يوجد .. وستعزف للرهبان والراهبات في أوقات الصلاة ، فاحذر غواية الشيطان » قلت : « أتقبل توجيهك المبارك بسرور . روحي بحاجة الى هداية .. برغم انني أحفظ الوصايا العشر ، وأنا متزوج » .



خروف المسيح هذا ، أزل عني متاعبي ببساطة مذهلة . درست الموسيقى في مدرسته ، عزفت على الارغن في أوقات الصلاة ، تقاضيت مرتبا يكفني ، استأجرت بيتا صغيرا ، وقلت لانستاسيا : « الرب ، تبارك اسمه ، معنا . انه نظر من السماء وأشفق علينا . ما كنت أحلم أن أجد عملا بهذه السهولة .. اليك بالفلوس ، انت عاقلة . زوجة صالحة . تدبري الامور .. وسيكون كل شيء على ما يرام . » وقالت انستاسيا : لكنني ، دون عمل ، سأبقى حجرا معلقا في عنقك .. انت تعرف انني أرفض الابتذال ، وليس من اليسير أن أرقص في ايما خمارة حتى لو وجدت .. اللاذقية تختلف عن اسكندرونة . وسيكون عليك ، بعد اليوم ، أن تعيل اثنين .. مؤسف ، انني لا استطيع مساعدتك

يا ديستريو • » هذه الكلمات الطيبة تشربتها عروقي كخمرة المذبح • أنا نفسي لا أريدها أن تعمل • يكفي رقصا للآخرين • لن ترقص لي أيضا • سنرقص معا في رأس السنة ، في المناسبات الكبيرة ، وما عدا ذلك لا •• انستاسيا ، التي حرمت من الولد ، ومن السعادة في الزواج، وفي الحب ، وعاشت تعيسة لتبهج الآخرين ، جاء اليوم الذي تبتهج فيه • أنا من سيدخل البهجة الى قلبها • سأجعلها امرأة بيت سعيدة • واذا توفر معي بعض النقود ، فسأقدم لها هدية ما في عيد ميلادها ، ستكون هدية تحبها ، خاتما بحجر أزرق •

وعدي ظل وعدا • التزمت به وقررت تنفيذه • وتوفر معي بعض المال ، لكن التي أقدم اليها الهدية لم تعد موجودة • رحلت • ذلك الشتاء • اثر اصابتها بذات الرئة • كان هناك طبيب أرمني اسمه بدروسيان • كان قريبا من بيتنا • هرعت اليه ، قلت : « الحقني ، حرارة زوجتي أربعون •• » قال : « انتظر الى أن تفرغ العيادة من الزبائن » انتظرت كما طلب • لم يكن ثمة كثير من الاطباء ، وكان قريبا ، ويمكن أن يأتي معي الى البيت ، ولم أكن أعلم انه يشرب كثيرا • وانه يشخص المرض وهو سكران ، هذه الناحية لا تهمني ، كما لا تهم الآخرين ، لانه ، مهما شرب ، ظل على وعي كاف للمعالجة • كانت انستاسيا تحترق بالحرارة ، وكانت تقيء ، فأعطاها علاجا ، ووصف لها أكياسا من الماء البارد على رأسها • أوصى بتبليعها قطعا صغيرة من الثلج • لقد أراد انزال الحرارة ووقف القيء • كانت مصابة بالنيمونيا ، وتحتاج الى مضاد للالتهاب ، وشيء ساخن ، وها هو ، بدلا من معالجة

العلة : عالج بعض أعراضها ، وخلال أسبوع ، خطف الموت رفيقـة حياتي • كانت الضربة قاتلة لها ، وموجعة لي • لماذا ، هذه المرة ، أخطأ عزرائيل ؟ قالوا لي ان الله أحبها وأخذهـا • كفرت • قلت ليته لم يحبها •• لماذا ، يا رب ، لا تحب الا الطيبين ، وتأخذهم ؟ كانت بعدي ستشقى ، ولكنها ، بطريقة ما ، ستتدبر عيشها ، وهذه الحرب لن تطول الى الابد . وستجد وسيلة للعودة الى اليونان •

بانتهاء ايام ثلاثة ، كان التشييع والدفن والعزاء قد انتهى • فرغ البيت . انطفأ زيت الايقونة ، داخلني شعور بالمرارة ، بالحسـرة ، بالفاجعة التي قصمت ظهري • رحت اغلق الباب ، واقرأ في الانجيـل تارة ، ناشدا العزاء مستغفرا ربي ، مسلما امري الى يسوع ، واعزف على الكمان طورا ، وانكببت على وضع مقطوعات حزينة ، بل صرت مغرما بعزف النشيد الجنائزي لشوبان • كدت افقد عقلي • يـد الشيطان امتدت الى عشي وخربته •• انطفأ شيء في الكون • صرت حزينا الى درجة الموت • تمنيت السفر الى قبرص ، عساني اجد دوبولوس واعزف في خمارته من جديد •• وكمن حكمت عليه السماء ، راحت الاحكام تنفذ بحقي واحدا بعد اخر • نقل الاب ايميه فيليكس من اللاذقية • قيـل انه هرب والتحق جنديا بقوات فرنسا الحرة ، وعندما دخلت هذه سوريا ، سألت عنه طويلا ، فقيل لي انه في بيروت ، في مدرسة الفرير • لم يكن ذلك صحيحا . كنت قد فقدت وظيفتي في مدرسة الفرير باللاذقية ، لاختلافي مع الاب الجديد ، الذي كان ، سرا ، من انصار فيشي ، قلت له اسمع : « انت ترى انني فقير ، ليس لدي شيء اخسره ، كسرة الخبز يمكن ان اجدها في أي بيت اعطي فيه دروسا • انا احب فرنسا ، ولكن

انا سوري الان ، ويوناني ايضا ، والفاشيون في اليونان ، واتسم في سورية .. والاب الشريف ابيه ذهب ليقاتل كجندي شجاع .. انا لن اعلم الحانا اشتم منها رائحة الفاشية .. لن اطيل . صرفني من العمل . لم آسف . في سبيل اليونان ، وطني المحتل ، ارفض ان اخدم الفاشيين.. بحثت عن عمل فلم اجد ، بقيت عاما كاملا اعيش على الخبز والشاي . كان بعض تلاميذي ، في الفرير ، يأتون ويأخذون دروسا . كان بيتي غير لائق ، صرت اذهب انا اليهم . لكنهم كانوا هواة ، وكانت الموسيقى ترفا في نظر اهلهم ، وهي لا تدخل في الامتحانات ، وهكذا ابتعدوا عني الواحد بعد الاخر ، فصرت احمل كماني وأدور على الاسواق ، على البيوت ، اعزف مقابل اي شيء ، ولما جاء الجنرال كاترو الى سورية ، عرضت امري على المستشار الفرنسي ، قلت انا الى جانب الحلفاء .. أنا ضحية الفاشية . لكن المستشار حسبني أطلب صدقة ، فقررت الهجرة الى دمشق ، لعلي واجد فيها متسعا لعملي . ذهبت الى مدرسة « الفرير » ، قابلت رئيسها ، قال ان لديه اساتذة للموسيقى . اعتذر بلطف ، ولما اقترحت عليه العزف على الارغن ، في اوقات الصلاة ، وافق ، مقابل اجر بسيط ، كنت مضطرا اليه فقبلت . سكنت قبوا في القصاع ، قريبا من الليعازارية . كانت هناك راهبة طيبة ، عرفتني الى بعض العائلات ، فاعطيت دروسا على الكمان لبناتها ، تحسن وضعي . والد احدى البنات تكرم علي ببدلة . قال لي : « هذه الثياب لا تليق يا ديستريو » كان شهما ، وفي الاعياد يضع بعض النقود الاضافية في جيبي . هكذا عشت كالخلد ، لا اخرج من وكري الا في المساء ، عندما اذهب للتعليم .. وفي الكنائس صرت معروفا ، وعزفت على الارغن مقطوعات ليوهانس نفسه ..

بعد سنوات انتهت الحرب • خرج الفرنسيون ، اتسع التعليم • اعطيت دروسا في مدرسة « دار السلام » للبنات • اشتريت ثيابا • اعتنيت ببيتي • ومن عام لاخر اخذ وضعي يتحسن •• انهيت عزلتي • اقمت بعض الامسيات الموسيقية • حضرت كل حفلات الموسيقى التي اقامها موسيقيون اجانب زاروا سورية •• الشيء الوحيد الذي افتقدته انه ليس في دمشق جالية يونانية مجتمعة • هناك اسر مبعثرة ، وهناك خمارات لا علاقة لليونانيين بها ، اغشاها من حين الى حين ، عندما اكون مارا بقرب احداها ، لاتناول كاسا من البيرة المثلجة •

فجأة تغيرت الحال • صار غنى فاحش ، الاغنياء اقبلوا على تعليم اولادهم الموسيقى ، ولكن على البيانو وليس على الكمان ، كانت هذه ضربة • كانت منافسة غير شريفة • لم تكن البيانو للموسيقى بل للزينة ايضا • استوردوها من ايطاليا ، والنمسا ، والاتحاد السوفياتي ، وكان علي ان اتطور ، ان اشرع من جديد ، بالتمرن على البيانو ، والتعليم عليها ، ولكن ذلك يلحق عارا بي ، لا اريد لكمان ان ينهزم ، ولا ان اتخلى عنه ، وحين تزول الموضة الدارجة ، او حين يصير في البلد كونسرفاتورا ، او فرقة سمفونية ، سيعود مجدي ، سيعود مجد الكمان ، انا لا اشك في ان مجده سيعود .

أعطاني ، ذات يوم ، مدير المعهد الموسيقي بطاقة لامسية موسيقية على الكمان ، كان الدور الرئيسي لها ، وكان البيانو مساعدا • فرحت جدا ، لكنني ، بيني وبين نفسي ، لم آمل كثيرا •• من هي راجعة المتبحر هذه ؟ وما هذا الاسم الغريب ؟ وماذا يعني ؟ وأية تلميذة مبتدئة ، أو أية عجوز متقاعدة ستعزف ؟ انني لن أجد شيئا جديدا •• هذا واضح • لكنني قررت حضور الامسية ، وحضرتها استحلت الى

كتلة مشاعر ملتهبة • أذناي تفتحتا • روحي غردت • قلبي خفق •• عيناي تعلقتا بالعازفة•أحسست أن فيها شيئا مألوفالدي ، شيئا قريبا ، ناشئا عن مشاهدة ، عن معايشة ، عن صداقة ، عن معرفــة قديمة ، وعندما انتهى العزف وقفت وصفقت ، صحت بغير تحفظ « برافو » تقدمت وهنأت العازفة قلت لها أنا فلان •• راعني منها ارتعاش على الوجه ، واضطراب في اليد ، ونظرات باحثة ، فاحصة ، وتجهم وراء مخيلة تسعى للتذكر •• وحين انتبهت الى نفسها شكرتني على تهنئتي، قالت انها تعتز بها ، وانها سمعت عني •

وعلى بغتة ، بعد اطراقة خفيفة ، سألتني :

— هل التقينا قبل الآن يا سيد ديمتريو ؟

— ربما •• أنا أيضا أقمت بعض الحفلات ••

— لا •• ليس في هذه الحفلات •• في تاريخ أبعد •• أبعد •• كنت تزور والدي ؟



— لم أنل هذا الشرف ••

— أين رأيتك اذن ؟

ابتسمت ، كان نفس السؤال يدور في رأسي ، وقبل أن تنصرف عني الى بعض المهنئين ، أطلقت هذه العبارة بصوت أغن ، عذب كما النسمة الباردة في تموز :

— لسوف نلتقي •• أين يمكن أن أسأل عنك ؟

— في المعهد الموسيقي ••

— أرغب أن تعلم ابني ناهض العزف على الكمان ••

— بكل سرور يا سيدتي ••

وانصرفنا •• ولم أنم تلك الليلة •

# أقواس الحدأة

قصة : جنان جاسم حلاوي



السماء تدور ، تقترب ، تحتبس بعينيه ، السماء تبتعد ، تنأى ، تتركه ، غيومها البيض تنزلق من مدار أبصاره ، فيشف الفضاء عن لألاء وسكينة يكاد أن يذوب فيه .. قريب بعيد هذا الوهج الازرق الذهبي : مزيــج من شمس وســماء يقطر في حدقتيه وميضا لماعــا فيعشيهما .. يطبق جفنيه ، فتأخذه أفكاره عميقا ، عميقا الى دفائن نفسه ......

استسلمت حواسه الى رجرجة الشاحنة العسكرية ــ إيقـا ــ واهتزازاتها ، بينما كان ممدودا على ظهره فاردا يديه على استقامتهما ، مصلوبا على الحديد ، شاعرا بخدر ووهن في أعضائه ، كم تمنى أن

يبقى على وضعه هذا الى الابد ، أن تبقى الرجرجـات والاهتزازات تهدهده ، تنسيه كما لو كان في أرجوحة لا تستقر ، تطير به ، تؤرجحه ، فيدفع عن جسده التعب ، وعن أفكاره العطل والخذلان ، وأن يبقى الوميض الازرق الذهبي نابضا بأقواس ألوان الطيف الشمسي راسما له سلما وهميا يرتقيه بحرية وحبور ، فيصبح طائرا شفافا ، خفيفا له ألف لون ، يحلق ، يغيب في الغيوم ، فيشملها بألوانه الحلوة ، البهيجة .

كانت الشاحنة تقطع طريقا صحراويا غير مطروق ، مثيرة وراءها غمامات من الغبار الرملي ، تمتد كذيل مهتاج خلفها . يسكت ولفترة طويلة ، دالا على مسارها المتعرج ......

قبل فترة وجيزة عادوا وأخذوهم . أصعدوهم الشاحنة واحدا ، واحدا مقيدين لم يفيقوا بعد من نوم ثقيل ، اثر نوبة عمل شاقة دامت ليلة بأكملها . ثم صعد الحراس تباعا وتقنفذوا عند حافة الشاحنة الخلفية ، واضعين بنادقهم في أحضانهم . أو بين أرجلهم .... كانوا جنودا سجناء ومن مختلف الاعمار ، وبمحكوميات متفاوتة وتهم متشابهة نسبيا : الهرب من الجبهة ، عصيان الاوامر . أو التخلف عن أداء الخدمة العسكرية ، أو التهاون في تنفيذ الاوامر . أو شتم الحكومة والاعتداء على ال ( ما فوق ) ، أو الغيابات المتكررة والتهرب من القيام بالواجبات العسكرية ، أو سرقة السلاح وبيعه للعشائر في الاهوار ... الى هناك ، الى حيث سيحمل ألوفا من صناديق العتاد الحربي ويجيء عشرات السيارات بها ، يقتادونه الى حيث سيموت ببطء ، كآلة تأكل نفسها ، وتمزق أشلاءها : كآلة تصنع موتها ... حوله ، وجنبه كان

السجناء قاعدين أو نائمين ، أو مضطجعين . مثله كانوا مستسلمين لقدرهم . لا يقاومون . يموتون وهم نائمون وقد ينهارون تعبا فتهرسهم صناديق العتاد الغادرة ، الساقطة من فوق . في لحظة ماحقة ، فيختلط لحمهم بالخشب ، وينتهي كل شيء ببطانية تضم الجسد المسحوق ليدفن في مكان ما . بعيد ... وشق السماء ، في مستوى أبصاره ، جناحان ولجا مساكب الالوان الطيفية النورانية ، وانزلقا مهلا في قوس منجلي هابط ، ثم اندفعا خطفا الى قلب الشمس : انها حدأة منطلقة تسبح في الاثير السماوي ، تلتمس مراقيه بخفقات من جناحيها ، مرهفات ، متلاحقات ، تخط بحرية رقصتها أقواسا لينة فراغية ، كأنها تتوج السماء بالأهلة .. كان يتابع رشاقة طيرانها ، وانسيابية أقواسها اللعوبة . حتى تلاشيها . في غور صاغته في الوهج ، بعيدا ، لا يقيدها بالارض سوى ملمحها الذي تحسده العيون ، التي لم تعد تراه الآن...

وتمنى لو يكون حدأة .....

استكنت الرجرجات ، حينما انحرفت الشاحنة الى شارع فرعي مبلط . وانطلقت بسرعة أكبر مهدتها رحابة الاسفلت للعجلات ...

تسارعت شجرات الأثل على جانبي الطريق متراجعة إلى الوراء، تلتها أكوام صخرية . وأعمدة تلغراف لاذت بثباتها منهم ، تجاوزوها ، — فكر : انها تودعهم — . ثم أحاطتهم بنايات واطئة عديدة الشبابيك . علتها أبراج حراسة . وكشافات ضوئية ، وساحات مسيجة بأسلاك شائكة . توقفت الشاحنة تحت قوس مالت عن جانبه لوحة تحمل رقم الوحدة ( ٢٣٥ ) وجندي خرج من محرسه معتمرا خوذة بيضاء ،

ستعد بقوة وأخذ للضابط الجالس في صدر السيارة سلاما على قبضة البندقية ثم سمح لهم بالمرور .....

... انهم الآن في مخازن مركز مشاة البصرة التابع للفيلق الثالث..

أنزلوهم واحدا . واحدا . فكوا أصفادهم . ثم اقتادوهم بطريقة النسق العسكري . الى داخل الوحدة . سمعوا كلمة : قف فتوقفوا ....

من الصناديق الخضر المعبأة بقذائف الدبابات والمدافع والقذائف الانبوبية . وقنابل الطائرات ومن مختلف العيارات .

في الساحة المسورة بالاكداس من جهتها الغربية . وبالقاعات من جهة الشرق حتى السور السلكي الفاصل بينها والصحراء . كانت الشاحنات متوقفة بانتظار تعبئتها على وجه السرعة لنقلها الى الآلات النهمة الرابضة على خطوط القتال مع الجيش الايراني ... وزعوهم جماعات . أربعة أربعة على كل شاحنة قرب كل كدس . صعد اثنان الى داخل الشاحنة لصف الصناديق . وبقي هو وسجين زنجي خارجها . وضعا تحتهما صندوقين فارغين كي يطالا حافة الشاحنة . وجعلا يرفعان الصناديق فيتلقفها السجينان الآخران ...

بداية شعرا بتعب شديد ما فتيء أن اختفى بعد أن طاع جسداهما العمل الذي تحول الى مجرد عملية ميكانيكية : انحناء مسك رفع دفع ، انحناء مسك رفع دفع ....

الصناديق ثقيلة . الخشب شظي . باطن الأكف المجرحة تجرحت من جديد . العضلات المتعبة تخشبت . الوجوه تشمت . العيون لا ترى

شيئا محددا سوى عدد الصناديق خارج وداخل الشاحنة . متى يمتلىء بطن السيارة ؟ متى تنتهي الاكداس المكدسة ؟ وكأن للسيارة بطن حوت يبلع ويبلع دون أن يمتلىء ، وكأن الارض تلد الصناديق كدسا فوق كدس وهم يرفعون ويحطون . ينحنون ويقفون .

تعب لا ينتهي ، عمل لا ينتهي . بوادر الانهيار ظهرت عليه . لاحظ زميله الزنجي ذلك .

قال له : لنرتح قليلا . الحراس بعيدون .

رد عليه : لا لم يبق شيء ، لننه الشاحنة ثم نستريح .

ولكن هذه الشمس ، انها تقتل ..... رأسه يفور ، الشمس تغلي ، يحس ضرباتها داخل قحفه . الاشياء تتبخر ، يراها تزوغ ، تصبح لينة ، غير قادر على الامساك بها . الصناديق تموع ، تترجرج بين يديه ، لا يدري ان كان قد سمع ( تشجع لم يبق شيء ) كلمات بطيئة ثقيلة ، ارتجت في رأسه كالصدى ثم انمحت ...

هياكل خضر ، خشبية ، مكعبات ، مربعات ، تستطيل ، تتمعج تعلو وتهبط في رؤية غيبية ، غير واضحة . أنفاسه تحترق ، تهتك صدره ، وعيناه مغشيتان بالحرارة المتأججة والضوء الحاد لانعكاس الشمس على الرمل الابيض ....

تراخت رجـلاه ثم تهاوى على الارض ... شبح أسود مرقق بالتوهج ، يحسه .. زحزحة ثم غاب فلم يبق سوى اللمعان يخزه داخل جفنيه بمسامير حمر : نقط دموية لاهبة تبرق في قعر كثيف العتمة:

قعر موقه . أفاق على ركلة في جنبه . حذاءان طويلان ، ورأس يطل عليه من شاهق وفم يلوك الكلمات ، ويبصقها فوقه : انهض أيها الجبان . الناس تموت في الجبهة وأنت هنا تتكاسل .. هيا انهض .

حدق بالضابط . كان للضابط وجهان قاسيان مزدوجان يتغيران مثل مرآة يتموج زئبقها ، تفرّس فيه أكثر فرأى وجهه في وجه الضابط استقام في وقفة عسكرية تنقصها القوة والثبات وقال :

ــ نعم سيدي .

بعد ساعات بدأ الجو يميل نحو البرودة والشمس تنحدر مرغمة صوب الافق الغربي ، فتستطيل ، وتستدق ظلال أشجار الاثل وتسد القاعات ظلالا كثيفة على الارض المهجورة حولها ، وكأنها أطلال مدينة قديمة . منسية . سكنت يوما ما ، وتركت اثر نزوة مفاجئة ، أو أمر طارىء أو كارثة نثرت بقايا الحياة وشتتها في الارجاء حطاما ، وكسر آلات وأكوام علب سمنة صدئة وآنية زيت ، وحديد سيارات ، وأحذية عسكرية وأربطة طبية ملوثة بدم أسود . وقصاصات جرائد ومجلات نصف مدفونة في الحفر . وملابس ممزقة ماحلة ، وأسلاك صدئة وقناني وعظام حيوانات . ونباتات ميتة يابسة ....



كان هـذا المكان معسكرا سكنه الانكليز في منتصف هذا القرن ثم هجروه .....

وقف مع السجناء المتعبين في الدور ، أمام أنبوب مكسور ينفض الماء . غسل وجهه ويديه ورقبته وصدره من العرق والتراب والسخام ونثار البارود . نشف جسده بـ ( جاكيته ) العسكري الذي علقه على

أغصان شجرة أثل . وانتحى مكانا انتقاه بعيدا عن أعين الحراس وأشعل سيجارة . شرع يتلذذ بدخانها . فهي فرصة نادرة للتدخين قبل نوبة العمل التي ربما ستكون الاخيرة هذه الليلة . كما يظن .. كان متكأ حائط احـدى القاعات ، قاعـدا . مادا ساقيه أمامه . نزع حـذاءه العسكري، وفك حزامه وأطلق لبصره حرية التحديق في السماء الصافية. في الافق المحمر بشفق أرجواني انبثق من حواف الصحراء . مخضبا محيطها بألوان الضوء الاخير .

قعد الجنود السجناء تحت شـجرات الأثل . أو اضطجعوا بـين الصناديق . بعض منهم نام ، وآخر أعطى لجسده فرصة للراحة دون أن يغفو . وآخر لربما بات يفكر . وهو يدخن . في كيفية الخلاص من هذا العذاب .



.... تسلق الحراس أسطح القاعات ، وراحوا يدخنون في غياب الضابط الذي كان قد نام منذ ساعة في بهو الضباط . خدرا على أزيز مروحة خفيضة والمراسل يهش عن وجهه الذباب المتجمع على لعابـه السائح من فمه المفتوح ....

في الصيف يأتي المساء مباغتا الا ان النور السماوي الخفيف يقـاوم الظلمة خصوصا في الصحراء ، فتبدو الارض وكأنها مغلفـة بظـلال السماء ....

سادن الصحارى : طير الحدأة يشخص فجـأة في الاعالي ، يسـد السكون بهفات من جناحيه ، يوشي الشفق برقصاته راسما دائـرة وأنصاف أقواس ، صاعدا هابطا ، دون أن يقترب من الارض . هـاهو

يستقيم حرا في طيرانه . يتطامن جناحاه وينأى . فيصطبغ جرمه بالحمره . ويصبح نقطة تأخذ في التلاشي حال اقترابها من الافق . وهناك يختفي على خلفية من الوردي واللازورد .. تخيل وهو يراقب الحدأة أنها تطرز خلل طيرانها أقواسها في السماء ودوائر أهليلجية في الافق بفي غاطس الشمس الراشح بالارجوان ...

آه كم تمنى أن يكون طير حدأة ويطير ...

قتم المساء وأندرست عناصر المكان في عتمة موحشة . وبانت أجمات الاثل وحشية . أوراقها الابرية مشعثة دكناء . وأضحت شواسع الصحراء حولهم مخيفة . أربدت بسكون خادع وهدأة غادرة . وأكتنزت ظلماؤها بما يباغت ويداهم . وأنطوت نهاياتها على تهاويل عالم يحفق بالمجهول . مواطنه شراك تتخفى بأغوار الليل . حيث تستيقظ الكثبان مثل كائن خرافي لـه ألف عين وألف ذراع يحضهم الغوايه ثم يدرجهم في كائن التيه التي لاقرار لها أبدا ولاحدود . فتصطادهم السيارات المتلصصه الجواله . وهي تنخب الليل بـ ( بروجكتراتها ) الكشافة مثل أشباح تشتعل قلوبها حقدا ولؤما .....

لمت سجائرهم في الظلمة سمعوا صوت الصفارة . مع هدير شاحنات يقترب : شاحنات عسكرية وأخرى مدنية هائلة الاجواف دخلت محيط المخازن وتوقفت عند الاكداس .

هناك من همس في أذنه . التفت فوجده زميله الاسود ( عبود )

ـ يبدو أننا سنظل نحمل العتاد حتى الصباح

أما سمعت ؟ ...

ــ ماذا ؟

ــ عبر الايرانيون نهر الكارون ، وتراجع الجيش عن الاحواز انهم يستنفدون العتاد . المعارك متواصلة . أنظر الى الشاحنات سنعبئها وستأتي غيرها .. المدافع والدبابات بحاجة الى العتاد ...

بهرهم نور ساطع ، أنار الساحه . الشاحنات التي مرقت تحت جنح الظلام دبت ــ في الشارع المؤدي الى الوحدة دون ان تضيء مصابيحها لاسباب عسكرية . ولكنها حال دخولها مخازن العتاد أضاءتها وركزتها على الاكداس نظرا لتعذر التحسس في الليل ...



بدا السجناء الحمالون أنصاف أشباح وأنصاف بشر ، اذ ما شطرتهم حزم الضوء .. كانوا يدخلون مجال الانارة ويخرجون منه ، والحراس يدرورون ويراقبون ، والضابط يقف على أحد الاكداس يصرخ بهستيريه أو يؤشر بعصاه فقط ، وكأنه يحرك هذا الكون المضطرب، الراجف ، وينسقه ويرتبه أو هو يتشكل مع كل أمر وينفرط مع أمر آخر ...

سيل الشاحنات لاينقطع . تقف ثم تصطف واحدة وراء الاخرى بانتظار دورها ، ينزل السائقون منها أشباه مجانين ، يلوحون بتصاريح تعبئة سياراتهم .

ــ سيدي نحن من المحمره . الدبابات تنتظر العتاد

ــ كيف وضعكم ؟

ـ الايرانيون يواصلون قصف مواقعنا ، مازلنا نرد الا أننا بحاجـة الى المزيـد من العتاد .

وآخر ـ سيدي نحن من الاحواز .. نفد العتاد من مدافعنا

ـ والايرانيون ؟!

ـ أجتاحوا الارض الحرام ، استطعنا أيقاف هجمات مشاتهم

وآخر ـ نحن من الكارون .. وضعنا صعب .. الهجـوم الايـراني متواصل .

انهم يعبرون الكارون .

ـ سنبيدهم أليس كذلك ؟

ـ نعم سيدي ...



فرقوا السجناء على الاكداس ، وزعوهم جماعات ثم قسـوهم أرهاطا على الشاحنات وبدأ العمل ، وتواصل في سرعة أجبارية ، مفزعة ، ولاهثة ... العضلات الهزيلة ، مفاصل الاصابع المتيبسة ، الارجل الواهنة ، تقاوم ضعفها ، تخرج من كونها لحم ودم الى صوامل وعتلات وتروس تتلوب وتنثني .. وتحمل ...

تصببت الاجساد عرقا ، ونَدت الشعور القصيرة بالدبق وفاضت العيون دموعا ، هيجها الغبار ، وخدشت الانوف ذرور البارود النتن الرائحة ....

وهم يحملون ، وينقلون ، ويدفعون الى الشاحنات قنابل الدبابات وقذائف الهاون ، وصواريخ الراجمات ....

جاءهم أمر آخر مثل قدر نزل على رؤوسهم : الى القاعات تراكضوا، أصطفوا بطريقة النسق العسكري . عبروا القاعات المهجورة تجاوزوا فسحات مسيجة بأسلاك مهدلة ، وأحواض آسن ماؤها ثم شرعوا يهرولون مدفوعين ، محكومين بقدرية الامر الذي لابد أن ينفذ بدقة وبلا جدال . لقد عرفوا ذلك بطبيعتهم كجنود كما عرفوا مسبقا نتيجة أي تباطؤ او تماهل ...

نزعوا ( جاكيتاتهم ) العسكرية ، وجوههم مسخمة ، جهمة ، أكمهم ممزقة ، رقابهم سواعدهم مسبخة بالعرق اليابس المختلط بالبارود والغبار . كانوا أشباحا تتنفس . وأعضاء تتصاع وعيونا متغورة ،جامدة، وآذانا مرهفة لتلقي الاوامر وتنفذها .. لم يعودوا بشرا على الاطلاق. كانت هناك شاحنات اخرى تنتظر قرب أبواب القاعات أنقسموا الى ثلاث مجموعات . كل مجموعة انقسمت الى أربع زمر : واحدة داخل القائمة ، والثانية عند الباب ، والثالثة خارج الشاحنة خلفها ، والرابعة داخل الشاحنة ...

دفعه الحراس ثم سمع كلمة هنا ، فوقف داخل القاعة محاذيا أكداس الصناديق المصفوفة حتى السقف حيث الخطر أكبر ، لذلك بات على حذر منه بالغريزة وتكرار التجربة ، اذ أن هناك فراغات غير مرئية بين الصفوف ، فاذا حدث أي تخلخل نتيجة أنزال الاكداس الى الارض . ستنهار الصناديق فوق رؤوسهم .

القاعة مكفنة بظلام عميق ، حرارتها خانقة ، هواؤها غبار بارودي رائحته فاسدة ...

الجنديـان القاعدان فوق يرميان اليه وزميله الصناديق دون انقطاع يتلقفانها واحدا اثر آخر في انتقالات سريعة آلية تجمدت وأصبحت محض تلقف وحمل وركض الى الباب جيئة وذهابا ...

الحراس يصرخون بهم ان يسرعوا حتى أفلت الصندوق مـن يـده أكثر من مرة . أنهالت عليه اللعنات . مرة سقط الصندوق على قدمـه . شعر بألم فظيع . أخذ يعرج في مشيه مما جعل عمله بطيئا متعثرا . كاد أن يسقط على وجهه . طالب زميله باستبدالـه . صرخ به الحراس أن يسكت ....

الوجوه تلوح طافية في الظلام . منفصلة عن أجسادها . عيونها جمر مطفأ . قسماتها غريبة ملوية من التعب والاجهاد ..

سمع صرخة قاطعة . وأقداما تركض . وسبابا وأوامر . وجملة تلقفها في حومة لهاثـه . ودوران رأسه .. سقطت الصناديـق على محمود .

استطاع أن يميز عبر الباب . في حدود أشعة أضواء الشاحنات تكوم الجنود على جسد مهروس . يجرجره حارس مسـوح كظل الى دائرة الظلمة . عاد الجنود السجناء الى دائرة الضوء . توعدوا الجندي المتعب الواقف عند حـافـة الشاحنة .. قال : أنا متعب استبدلوني أنا مريض . نزل الى أسفل وصعد آخر محله . ترنح السجين المجيد برك على ركبتيه، تقيأ ثم هوى الى الارض مسرغا وجهه المصفر في التراب والقيء ،وجهش باكيا . انهال الحراس عليه بأعقاب البنادق وهم يصرخون:جبان ،الناس تموت في الجبهة وأنت هنا تلعب ... ثم سحبوه من رجله ، خارج دائرة الضوء الساطع ، الى ستر الظلمة واختفى هناك ...

عاد الى عمله ينقل الظلام من مكان الى آخر ، يصارع أثقالا غير مرئية .. الصناديق حوله وفوقه كتل سود يقتلعها من جسد الظلام الظلام ويرميها ، والظلام يلد مكانها ظلاما بصلابة وأضطراد ، في دورة لاتنتهي من الاقتلاع والايلاد .. خيط من ألم حاد شل فقراته ،وتوزع بين كتفيه .

عيناه مشغولتان بحركة يديه . رجلاه لاتحملانه . أرتجف وترنح . انه الوهن يصارع مافي جسده من جذاذة قوه وخز الالم مشط قدمه . قد تكون عظامها مفطورة ؟ عجبا كيف لم يحس بالورم ينمو وينتفخ ؟ أيكون ورم فكرة طارئة ، أحس ، توا ، بوجودها الطافي على بحيرة خوفه وتردده ؟

ووقع ماكان يتوقعه ، وهزته صدمة مفاجئة أخرجته من قاع كان يسبر أعماقه ، غائصا فيه ، مأخوذا برهبته الى عالم يئن هو وسطه ، ويتحرك ضمنه . علاه التراب ، رمى بجسده الى الباب : المنفذ الوحيد ، وهو وان لم يعرف بما يحصل الا أنه لم يفكر الا بشيء واحد : أن يقتلعه الانفجار والصناديق والقاعة ، ويرميهم في جوف الليل .

تساقط الجنود حوله ، وارتمى الزيت في الخارج أرضا ، وهومت كتل الغبار في القاعة ، لم يميز من يصرخ : الكدس ينهار ... أخلوا القاعه ... أتسعت الفجوه التي عملوا تحتها فمالت الصناديق تاركة للكدس فوقها ان يتقلقل وينزلق ، دون ان يستند الى مايعترضه،وتتالت الانهيارات في لحظة اصمت آذانهم بخبطات الخشب ورنين معدن

القذائف المتدحرجة على الارض بين الصناديق المفكوكة ، التي تهشمت أقفالها بفعل الانهيار .. ثم حل السكون .. كانوا يعرفون أن كبسولات القذائف مأمونة ، أما حين تحدث مثل هذه الانهيارات المتوقعة ، فاللوالب تنفك مع الحركة والارتطام ، وهذا يحصل بل وحصل في مخازن أنس ، في الدريهسيه حين أنفجر الكدس ، ومزق الحراس والسجناء ...

هرع الضابط متفقدا الصناديق المتكومة فوق بعضها ــ والسجناء الجنود يحلقون فيه ببلاهه ــ قال ببرود .

ــ أنكم مهملون ... متباطئون ، غير متحسين خطأ آخر ، ولن أعاقبكم أنا .. لانكم لن تكونوا موجودين ، ستتلاشون في الانفجارات ...

لقد كان على يقين بأنهم سيمضون الليلة حتى الصباح يحملون صناديق العتاد كما قضوا الليلة السابقة ، كما سيقضون لياليهم المقبلة .

توالي الشاحنات لاينتهي ، أكداس العتاد لاتنتهي ، وهم ينتهون واحدا اثر آخر ، بصورة أو بأخرى ...

برزت الفكرة من جديد فاصحة ، راسخة ، متركزة ، سهلة .. كل سجين يفكر في الهرب ، هذه نظرية طالما تشدق الضابط بها ، وهذه حقيقة طالما فكر السجناء بها ، أما كيف يمكن أن تتحقق فذلك أمر متروك للمصادفات أو للحظ ... أعتاد الحراس بعد انتهاء نوبة العمل الاعتيادية أن يعدوا السجناء المرهقين .. أما في الحالات الاستثنائية .

حينما يكون العمل متواصلا فسلسلة الايدي المرتبطة بنقل الصندوق من الكدس على الارض حتى وضعه في السيارة . ووجود كل سجين في مكانه ـ وبرقمه المعروف قمين باطمئنان الحراس الى اكتمال العدد في كل رهط ـ دون ان يعدوهم . أضافة الى أن فقدان أي سجين يعني توقف العمل تماما الا في حالات الموت الطارئة . او الاصابة الشديدة حينذاك يستبدل المصاب بآخر وبعلم الضابط ... لذلك فان ترك هو مكانه وخرج من القاعة . سيفتقده زملاؤه العاملون معه . كما سيتوقف العمل تماما .. ثم كيف سيخرج من الباب ؟ معضله مرتبطه بأخرى . واذا تهور وغادر المعسكر فستكون عملية اصطياده سهلة في الصحراء.. من فوق الكدس الى زميليها فيعمل الاربعة في نقل الصناديق ، مـن اسفل الكدس وبذلك يتاح لاحدهم بين آونة وأخرى أن يأخذ قسطا من الراحة ..



ولقد جعل سقوط الصناديـق من عل الامر كما يريدون ـ وبذلك راحوا يتناوبون فترات الراحـة ، وفترات الراحة لاتعني القعود او ترك مكان العمل ـ او تدخين سيجارة خارج القاعـة . وانما الوقوف والتحرك مع الرهط ايحاء بالعمل وهذا مايسميه السجناء بـ ( العمل المخادع ) أو ( الغش المقبول ) الذي قد ينطلي على الحراس أحيانا ، ولكنه لاينطلي على السجناء الحمالين اطلاقا حينذاك يعترضون ويتنمرون فاذا أمتثل الرهط المخادع لهم ، وزعوا العمل من جديد ، وان رفضوا فقد يتحول الامر الى شجار وبالتالي الى عقوبـة قاسية يتحملونهـا جميعا . وهذا مالا يريدونـه .

قال أحد السجينين العاملين خارج القاعة . متشنجا ، غاضبا

ـ أنتم هناك في الداخل كثيرون .. أربعة ...

أنتم ترتــاحون على حسابنا .. تلتقطون الصناديــق مــن الاكداس السفلى ..

ليخرج واحد منكم ويساعدنا .. لقد هلكنا ..

اذ ذاك قال لــه منسحبا من رهطه العامل في الداخل

ـ أنــا قادم ... فعلا نحن كثيرون ... ثم آنــا بحاجــة الى استنشاق الهواء قليلا ..

اتخذ مكانــه خارج القاعة . شعر وكأنه خارج من حمام ساخن . لفحه الهواء . بخثر عرق وجهه وصدره . فلذعته برودة لذيذة .وانعشت حواسه ونبهته الى الحارس الواقف خلفه ....



سيلعب لعبته الاخيرة . فاما ان ينجو أو يموت والامر لايحتاج الا الى مقدار قليل من الحظ ... اللحظة صعد الضابط درجات القاعة ودخل . فدخل الحارس وراءه أغتنم الفرصة . وقال لاحد زميليه العاملين آنــا ذاهب لاتبول فاذا سأل الحارس عني قل لــه : ذهــب يصف الصناديــق داخل الساحة .

عينان حادتان . مشفقتان . كادتا ان تعيداه الى صوابــه : عينــا السجين الذي همس له بما يجب أن يقول للحارس .. غير أن السجين ـ أي سجين ـ حينما تومض في ذهنه تلك الومضة الشيطانية فــانــه يذهب مع الشيطان الى أبعد مدى . حتى لو كلفه الامر حياته . لقــد وصل الى نقطة لا رجوع بعدها . لقد استولت عليه قناعاته واستحوذت

على ذهنه فكرة ، واحدة ، متسلطة ، واضحة ، قوية هي الخلاص .. والخلاص النهائي بأي ثمن ...

انسل من مكانه ، خارجا من دائرة الضوء ، واحتوته الظلمة ... الاصوات خلفه مازال يسمعها بوضوح ، قرقعة الصناديق ، صراخ الضابط ـ اغاني العمل الاجباري الباكية ، جلبة الشاحنات ، زعيق الصافرات ...

التفت كان الحراس والجنود يلجون نطاق الانارة ، ويخرجون منه ، يؤدون حركات بدت له مجنونة ، لا معنى لها ، وكأنهم أبالسة ترقص رقصة غريبة ، في هدأة الليل ، في قلب الصحراء ، بعيدا عن كل ماهو حقيقي ...

لقد بدوا له غير حقيقيين ... بل اشبه بالدمى ... ركض بكل ما يملك من قوة . لابد أن يجتاز حاجز الاسلاك الشائكة ، ثم يغوص في الصحراء ، يتجه يمينا ، ويظل يركض واذا حالفه الحظ فسيصل بعد أقل من ساعة ونصف الى قضاء الزبير واذا حدث واكتشفوا أمره ، فستصطاده الدوريات السيارة كما تصطاد الارانب ... نط من فوق الاسلاك الشائكة ...

المدى أمامه ، حوله ، فوقه مظلم ، لم يلتفت هذه المرة أبدا ، استتر بالظلمة ، تدثر بها ، ركض بأقصى ما يسكن من سرعة مغيرا اتجاهه كل مرة .. قطع مسافة لابأس بها الا انها لم تكن تعني شيئا اذا ما لحقته احدى السيارات المطاردة ... أنفاسه تضغط عليه ، عيناه مثبتتان في نقطة ما في الظلام تتلمس الافق ، تهفو اليه ...

الليل منور بنور باهت : نور النجوم .. لا قمر .. تعثر أكثر من مرة . سقط في أكثر من حفرة . اشواك العاقول مزقت ساقه ، الحـذاء العسكري يثقله ، لم ينزع حذاءه !...

نسي أمرا تذكره الان .. وهل ينسى الانسان ألما ؟ باللجنون عاود الالم مشط قدمه . أخذ يعرج في ركضه ، يحجل كطير مصاب . ليرتح قليلا .. لا .. مازال أمامه الكثير .. ليركض بأقصى ما يستطيع ويمتلك من قوة . قاوم ألمه .. قلبـه يخفق بشدة .. وقف .. جاس الارض والسماء بعينيه المرعوبتين .. حدد الاتجاه .. تردد .. نظر الى النجوم .. لا وقت لديه .. أخذ مسارا تقريبيا لما يعتقد .. خوفه شل تفكيره تماما .. النجوم تغمز له ، الليل خلفها عميق مرشوش بأنوار المجرات ؛ والكواكب تختلج في ضبات الظلام ، ظنها تغير مواقعها واشكالها : الثريا تنفرط وتلتم ، ثلاثي الميزان يميل نحو الدب الاكبر ، بنات نعش يحطن بالنجم القطبي : النجوم قناع الليل والشهب شعره المتساقط : الليل يركض وراءه ، الليل يركض أمامه .. لا بداية للافق ، لا نهايـة للسماء ، عقله يسبح في اللانهاية ، المرئيات تلتاث في رأسه : اشباحها ، صورها الحقيقية والموهومة ، الظاهرة والمستورة تطارده ، أصابعها تتسـاك به ، بشعره ، بظهره ، خراطيمها تلتف حول بطنه ورقبته ،تجره الى الوراء ، يتملص ، يندفع الى أمام ، يهب نفسه للفضاء ، فيحـده جسده ...

المسافات خداع .. أصوات يسمعها توشوش خلفه ، أهو تناوح الريح .. ما أكبر الارض وما أضيقها أتكون الصحراء عارية بهذا الشكل، أتكون قد خانته وراودت يقينه وأغوته شراكها التي زينت له فكـرة

الهرب والافلات . اذ ما نظر اليها عبر اسلاك معسكر العمل الاجباري . كأنها معقل الليل . وقبضته . ياللصحراء المراوغة . ياالليل المخادع ...

مكشوف هو الان على أديم الرمل . كزورق يغرق في مياه غادرة لا تلوح منه سوى صارية تتوسل الريح بلا أمل .. كم مضى عليه وهو يركض ؟ لا يدري ! تحول الالم في قدمه الى عطل حقيقي ، وحصل أن خانته الصحراء أخيرا . وخانه جسده ولسعته رعشات الخوف . كم تمنى أن يكون طير حدأه يبزغ له جناحان ويطير مبتعدا يحلق في سماء الليل فتطيره الاجرام بزخات من ضياء قصيرة محض طائر من نور ...

كان ذهنه مشوشا تماما حينما ارتمى على الارض . وهدير السيارات يقترب . يكتسح كتل الظلام بأشرطة الضوء البراقة عواء الكلاب المجروح يختلط بهشيم الاصوات وراء الصمت ... كانت السيارات المطاردة تقترب وتقترب حتى تخلل هديرها مسامات جسده ، وملأ رجراجها رأسه ... التصق بالارض .. احتضنها اراد أن يغوص فيها .. يدفن رعبه وخيبته في أعمق اعماقها . كان الرمل تحته باردا قاسيا ... وكانت الارض تتنفس .

دمشق — ١٩٨٤

* * *

# المغرب

شعر: جليل حيدر



أيُ دمٍ ؟
أيُ خطابٍ يأتيكَ بهزّتهِ ،
وجنازتهِ ،
أي فمٍ ؟
صيّادٌ خلفَ شبابيك العمرِ ، و
صيّادٌ يُلقي أسماكَ غرابتهِ
صيّادٌ يُهدِمُ كوخاً في الروحِ ، وشارتهُ كنزَ الأسنانِ
على حلُمٍ .

أي دمٍ ؟
أيُّ خطابٍ ،
أيُّ فمٍ ؟
صيّادٌ بينَ مجاعتهِ ومرائرِهِ سوطٌ أرجَحهُ تأريخٌ
يمشي دونَ خُطى.
أيُّ خطابٍ يا صيّادُ يُناديكَ ولا تسمع
وقْعَ الأعداءِ ؟
هل التاريخُ يجنزرُ بالأخطاءِ ؟
شباكُكَ ملحٌ أو أشتاتٌ تُدوِّرنُ غيمةَ أشلاء
فأي دمٍ مصُلكَ ؟
من يحملكَ إذا انتكستْ رايةُ بيتِكْ ؟
من يُقلقكَ إذا انهزمتْ بحةُ صوتِكْ ؟
من يعرفكُ إذا التجأتْ نسوتُكَ العربياتُ إلى موتِكْ ؟
من ينفيكَ
ومن يعرفكَ
ومن ينفيك ؟
فلا تلجأ للملائكةِ ،
أو ندمٍ
أو

أيْ فمٍ .
يخرجُ أو كتافيو باث من الطعنةِ
يخرجُ وجهُ أبي الحسَنَينِ على نغمِ السيكاهِ ،
فهل تخرجُ أنتَ من السكتهْ ؟
أسكتَتَ سنينا . . أنتَ
خلدٌ أعمى تسرحُ مابينَ عسى ولعلّ وليتَ .
أيةٌ أغنيّاتٍ هربتْ من إثيا كا — بغدادَ — وصبرا ؟
أيةٌ ريحٍ ترُسلُ منشوراتِكَ لله
والعرْبانِ ؟
ويلي منكَ عليكَ وويلي .
من لَهَبٍ وبقايا سيلِ
من صَخَبٍ وعويلٍ .
أي دمٍ ؟

الرباط /شباط/ ١٩٨٤

# ذئاب البيت



سيدٌ أسلمَ رأسي للحروبْ
ونساءٌ في دمي مثلَ دويّْ
وأنا بينهما محضُ غروبْ
قاتلٌ يُقتلُ والميتُ حيّْ .
. . . .
. . . . .
ليْ
هجراناتٌ وخسائرُ تحسرُ عن فخذيها .
لي
أصحابٌ علّقَ فوقَ تحيتهَمْ قمرٌ منسوفٌ بالخبرِ
يئنُ مريضاً
تُطالقُهُ شائعةٌ حافيةٌ ،
إلاّ من هتكٍ ومصيرٍ .
ليْ

أغنيةٌ في غَسَقِ المرأةِ
تفرُكُ عينيها بينَ الأغطيةِ الصيفيةِ والدمعِ .
أنا صوتٌ في الغرفةِ ،
أسكُنُها .
تسكُنُني ريحٌ مومَسٌ
كُنتُ بعيداً
وبعيداً كنتُ
أجالِسُ صوتي ونداني .
ليْ
منديلٌ للإستقبالاتِ
يُرفرفُ حُرّاً
كحماماتٍ تائهةٍ تفضحُني
أو أرملةٍ داكنةٍ بالسُمِّ ،
وبالشمعِ المصوبِ العينينِ ،
وليْ
مُزحةُ ليلٍ أسلمَني للكاسيتِ
يُشرذِمُ أعصاباً ثكلى
ليْ
قفَصٌ في الروحِ

جِيرارٌ للذكرى
وسكائرُ مطفأةٌ للقصّةِ .
ليْ
سوَمرُ وقوافلُ قهرٍ يسعلُ قبراً قبرا .
. . . .
. . . .
سيّدٌ قاتَلَ في جرحي وكمْ
يلمس الجرحَ سِواه وسوايْ
فانطوتْ زهرةُ إثمٍ وندمْ
في فضاءٍ من بُكاءاتٍ وآيْ .
ليْ
أوراقٌ للنومِ
جُلوسٌ طالَ على أسيجةٍ
إطلاقاتٌ طائشةٌ للصبرِ
نِيامٌ ينتحرونَ بأُمسيةٍ .
وطريقٍ غائبةٍ
عن طُرُقٍ ضائعةٍ
خلفَ نداءاتٍ خائبةٍ
ونوافذَ

تهجرُها عاشقةٌ تبكي عاشقَها .

ليْ

نصفُ الصفنةِ في الساعةِ

والساعاتُ لثرثرةِ المدعوّينَ لحزني الأبيضَ .

أينَ مائدةٍ يا لَهَبُ ؟

لهبٌ . . وغضبٌ .

وبقايا تعَبٍ من حطَبٍ

والأيامُ تئزُ تعَبْ

ليْ

حيواناتٌ من آيٍ ،

وشتاءاتٌ دونَ سَبَبٍ .

ليْ

غضبٌ /

تعَبٌ /

سَبَبٌ للسهرةِ

تكتبُ توصيةً للماضي ،

وذئابُ الماضي تعوي

( أينَ ؟ )

ذئابُ الحاضرِ تعوي

( أينَ ؟ )

ذئابُ الوقتِ

ذئابُ البيتِ

ذئابُ الإفلاسِ

ذئابُ الوطنِ اللاعقِ دَمَهُ

وذئابُ دمي .

. . . .

. . . .



سيّدٌ أسلمني يوماً إليّ

ما الذي يُنقذُني منّي . . ومنْ ؟

كُلُّ ما حوليَ خوفٌ ، وَلَدَيّ

وطنٌ يبكي على مرأى وطنْ .

دمشق

آذار ١٩٨٥

# الحرائق

شعر : مروان صقر



للذاهب الى دمار الأغنية ،
المتلالىء بالمدار الدهشة
ان يغني ..
للاسماء المقنعة ،
والاسماء المترددة ، التي بلا اقنعة
ان تستوي ..
وهي تسقط في حلبات المجاملة ..
للشبابيك المطرزة بطلع البحر ،
وغموض مساء صحراوي
ان تتوهم الموعد الذي تشاء
وتنام باكرا

ولي انـا ..
ان اكتئب .. كمـا اشـاء ..
واحتفل سعيـدا بانتحاري ،
وانطلق الى فسحتي الاخيرة ..

. . . .

ايتهـا الفسحة الاخيرة ..
القريبـة ، المستحيلة ..
هـا انـا
اودع أيامي المقتولة ..
واسترخي في الذاكرة .. ،
التي تكتب حماقاتها المدمرة ..
وتخذلني ..



. . . .

للفسحة الاخيرة احتمالاتها ..
المشبعة بجاهلية الالوان ،
ولي احتمالي ..
لصحرائي سخطها ، وقمرها الخائب .
ولي كآبتي ذات الأنياب والأظافر الحادة ..
لذاكرياتي اغصانها اليابســة
وانكساراتها المفزعـة ..
ولي صوري السرية ،
التـي تتكـاثر بحريـة

في حرائـق وقتـي ،
تحمـل افكارها المتخمة ..
بروائح صباح بحري ..
وموتى قادمين لزيارتي .. !!

. . . .

لماذا لم تضج الارض بعد ،
من الخطى التي تقود المارة ..
الى الحلم ، الفزاعة » . ؟
أمـا فقـد الايقاع الدموي
دورته الصوتية !
فالحجر الابيض فقط
يمكن ان يصغي .. ويرقص
في كرنفال الجثث .. المتحركة ..

. . .     . . .     . . .

« خبأ الحلم بين شظايا سؤال
وترامت خطاه
تمـزق وجـه الطريـق .
وحـده البحـر يعرف سـر الحريـق .
وحـده البحـر
يرسـم بـين رؤاه
بقايـا احتمال !! »

. . .     . . .     . . .

مايزال هنــاك :
متســع مــن الحــزن
للرماد كــي يؤلف مهرجاناته الجرداء
ويقتلني .. ،
لعيونهم كي تؤسس انفعالاتها
وتهديني طعناتها « الودودة » !
مايزال هنــاك
متســع مــن الانهيــار
لتاريــخ الأوقــات المتآكلــة
او عنــاق « الارجواني »
ســيد اللحظــات المقبلــة



. . .

« قال للاصدقاء :
اخرجوا هــذه الريح مــن ذكرياتي ،
دعوني اواصل هــذا التشتت
بــين انتحاراتكم وسطوعي ،
فــذات حريــق
سيعصف فينــا لقــاء غريــب ،
وذات لقــاء
سوف يسقط نجــم ويعلــن :
إني ارى زمنــا نائمــا في العــراء ..
ســوف ينهض يومــا ..

ويأتي ..
نبدده بين لحظة قتل
ولحظة رعب .. تعربد فيها الدماء ..
قال للناس :
هذا أنا
اتناءى ،
أواري مراكب أيامكم
في جحيمي ..
واعلن ان الصباح بعيد عن الحلم
مازال ،
أن دمعي
ضل درب قصائده ،
والبلاد التي عشقتني
بعيدا عن النزف تمضي ..
كنافذة خاصمتها المواعيد ..
حين اعتراها حنين الى البحر
ذات مساء .. »

. . .        . . .        . . .

ها هو الرماد البدائي ..
يخلق بحارا
دون موانئ أو صيادين ،
يصنع حقولا وجبالا ..

ملآنة بأعشاب الكآبة ..
وزواحف الماضي .
ها هي سطوة الكلمات العاطفية
تدفعني صوب حرائقي الأولى
أما أنتِ

أيتها الخطوات المرتجلة
فقد التهم الرمل حركاتك .. البهلوانية ..
إذن لم يبق الا ..
ان تؤلفي مراثي الحريق القادم ..

. . . .

هل هو الرماد ام دمي ؟
هل هو دمي ..
أم وجه أوغايت ،
الذي يتأهب ، بقوة ، ..
لاستقبال « الحريق السابع » ؟!

. . . .

حيثما تتأجج او تموت اغنية
تبدأ اعترافات عابرة
لكنها سريعة الانفجار .
لتعترف السنابل .. بخيبة هذا الصيف .
وليعترف البحارة « الطيبون » ..
بانفعالاتهم التي سرقتها المراكب ..

والعربات المذهبة ..
ولتعترف اوغاريت ايضا
بطفولتها المترهلة ..
وانت أيها الصراخ المتالق
لك ان تمد فطائر الصباح
لعرائس النار المقدسة ..

. . . .

وانتم يا أصدقاء البحر
تأرجحوا في سرير اللهب ..
فالنار سيدة اللون ... والمكان
ثم .. انت أيها الأزرق
لتندحر ..
ـ قبل فوات الأوان ـ
فالأمواج تنشق عن سفن غامضة
وشعوب متوحشة ..

. . .  . . .  . . .

« وكان يسمي المسافة
بين النبوءة والقتل
بيتا
يسمي جراح الشجر
بلادا
وتخدعه لغة الحلم

حين يسمي تقاليد غربته
موعداً للمطر ..

. . . .

وها هو يمضي ..
يخاصم صحو القصائد ،
يقرأ في نزق الآخرين مخاوفه ،
ويفتش عن رغبة لم تخنه ،
يغني
ـ لماذا يغني ؟
تساءل نجم وودعه باسما
وقريباً من « الجرح مات » ؟ .



. . .

تمرة .. تمرة
تسقط كلمات شتى
من معاجم القراصنة
يطاردنا فحيحها السام من حلم الى حلم
فليتوقف حوار الزوارق المهشمة
مع الموج المتخاذل ..
خنجرا .. خنجرا
تنهض كلمات شتى
واناشيد شتى ..
من موتها .. وتضيء ..

اذن فليتدفق جوار ما ،
كاسرا الافق الزجاجي ،
متجها الى الفسحة الاخيرة .
قطرة .. قطرة
يهطل مساء الحبيبة
في رغبتي
فارسم غيومه المتداخلة
مع القرنفل واغترابات الصيادين
شكلا لعناق ابدي ..
بين طلقة وجسد عصفور
وكاول قبلة مسحورة
يذبحها عاشق
ارسم حيرة حبيبتي
المسوّرة بالانتظار والفرح المؤقت
ثم اؤرخ عادات اللقاء البعيد
وابتسم مكللا بالغرابة ،
محاصرا بالوداع القريب

. . . .

سامحيني ايتها المصافي

فلقـد لوثـت سـماءك

بضبـاب اغنياتـي

سامحيني ايتهـا البـلاد

فاني احببتـك اكثـر ممـا يجب

سامحيني أيتهـا الشواطيء النهائية

فليس بمقدوري ان اكـون قرصانا

ولـذا

اختطفتـك ذات يـوم

لأبنـي عش حبيبتي

وانـت ايتهـا المفاجآت المذهلة

اعذرينـي

فقـد اكتشفت « العصـا السحرية » ،

التي تؤلف مهرجاناتك المذهلـة .. ؟ !!

. . .  . . .  . . .

« إنهـا لحظـات

ويصطـاده هاجس قاتـل ،

وعـود مزاجيـة ،

وهـو مازال مغتبطا بازدهار مخاوفه

قـال للحلـم : « كـن »

فتراءت على الافـق صـورة مجـزرة

قــال الجـرح : هــذا زمانــك ،
فاتضحت خيبــة العمـر ،
ماذا يقول له البحر اذ يشتهي الآن
تغريبــة ..
في مســاء قديــم .. قديــم
إنهــا لحظــة

ويباغتــه الشـــوق ،

يهرع صوب « صفاء » التي ركبت عربات
حرائقهــا ،
هــل تذكرين السماء البعيدة ،
اوهامنــا الحلــوة الباسقــة ؟ :
عــن بــلاد يضرجها العشق بالفرح الأبدي ،
وعــن شجــر ساحلي يلـون ايامنا بالفناء ،
وهــل تذكرين .. ؟ .
اعترفت لعينيك اني ارتجلت مكانــا
وسميتــه جنتــي ..
إنهــا لحظــات ..
وتصطــاده شهـوة للرحيل الى « النــار »
او فلنقــل :
إنــه قابــل للبزوغ علـى حافــة الانفجار .

. . .        . . .        . . .

المساحات تكتظ شيئا فشيئا
بالهياكل الخلبية .. ،
القابلة للاحتراق والترمد ..
اما الحرائق المتناحرة
فنهائية الامتداد
فمن ينتظر بعد حريقا آخر ؟

. . . .

لكل حريق نكهته الخاصة ،
آلامه ومشاعره الذاتية ..
وله أوقاته ومواسمه ،
التي تأخذ شكل خرافة
ولكن الرماد اخيرا ..
هو الرماد .. !

فتحرك
ـ ايها الرابض خلف متاريس احلامك ـ
وامض الى فسحتك الاخيرة .
ايها الذاهب الى دمار الاغنية ،
المتلألىء باقمار الدهشة
انشد نداءك البحري

واحتفـل سـعيدا بانتحـارك
قبـل ان تشتعـل داخليـا
فتتلاشى ابجدية البحر ... والنوارس
وتمحي « حضــارة الرحيــل » ..
ثــم تســميك الايـام القادمــة ..
« مجـرد حريـق تامـن .. » .. ؟



<٥>

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

## الوفيــات

لمحمد بن رافع السلامي الدمشقي

القسم الاول

تحقيق : عبد الجبار زكار

سلسلة احياء التراث العربي « ٦٧ »

< ✡ >

## ابلوموف

القسم الاول

تاليف — ترجمة

ايفان الكساندروفيتش غونتشاروف — يوسف سلمان

سلسلة روايات عالمية « ١٢ »

< ✡ >

## الموت في المدينة

مجموعة قصص

حسن صقر

كتاب الشهر

# المرأة

## بحث في سيكولوجيا الأعماق



أنور حاج عمر

كتاب الشهر

# المـــــرأة
## بحث في سيكولوجيا الأعماق

أنـــور حـــاج عُمر



صدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي ، في شهر ايلول عام ١٩٨٣ ، كتاب عن المرأة بعنوان «المرأة» بحث في سيكولوجيا الاعماق . تأليف ( بيير داكـو )، ترجمة الاستاذ وجيه اسعد . والكتاب مـن القطع المتوسط ، ويقع في ( ٥٤٣ ) صفحة من الورق الابيض الجيد .

وهذا الكتاب هو الاول من نوعـه ، لامـن حيث موضوعـه ، اذ تناول باحثون عديدون المرأة بالدراسة قبله ، بل الاول من نوعه من حيث كون المؤلف يعرض فهما بالمرأة جديدا كل الجدة وخاصة به . اضافـة الى طريقة الدراسة ، والعمق ، والسعة والدقـة وغناه بالامثلة المستقاة من خبرة امتدت على مدى ثلاثين عاما في ميدان علم النفس ولاسيما التحليل النفسي .

وما يزيد الكتاب أهمية ، اضافة الى ماسبق ، وخاصة بالنسبة للقراء باللغة العربية هو انه قيض له ترجمة موفقة وامينة ودقيقة . وبلغة سهلة متينة في الوقت نفسه ، تجعله في متناول فهم القراء بكافة مستوياتهم ، سواء القراء العاديين منهم أو المتخصصين .

وما يزيد ، كذلك فهم الكتاب يسرا ، هو أن المؤلف كان قد مهد له بكتابين هما : كتاب الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث ، وهو بجزاين ، وكتاب انتصارات التحليل النفسي ، وهما ايضا من ترجمة الاستاذ وجيه أسعد . ويكاد يكون من الضروري ، قراءتهما لفهم ماجاء في كتاب المرأة .

وبادىء ذي بدء ، اقدم عبارات دار النشر الفرنسية ( ملرابو ) على جلدة الكتاب الثانية من الطبعة الفرنسية . عبارات تعتبر صوى أساسية جدا ومفاهيم رئيسة جدا في الكتاب ، وهي : « يدفعنا ( بيير داكو ) ويوجهنا الى البحث عن المرأة الحقيقية والابدية ، مؤكدا ، بصورة واضحة، ان تجديد العالم منوط بتجديد المرأة .

الرجل يخدع المرأة دون أن يعلم لانه يعاني منذ الازل حصرا تدفع المرأة تكاليفه ولكن المرأة ، كذلك ، تخدع نفسها بنفسها ، اذ تجعل نفسها متواطئة لا ارادية لهذا الحصر . وعالم النفس ، بيير داكو ، يشر لنا ، وبأسلوب ساحر وغني بالصور ( الامثلة ) ، لماذا يخدع الرجال النساء، ولماذا يسطونهن ، ولماذا يخشونهن على وجه الخصوص . ذلك أن هذا الكتاب هو دراسة لخوف الذكر أمام الانثى . وهو يؤلف بوضعه ثمرة سنين من الممارسة السيكولوجية ، مشروعا حقيقيا لتحليل المرأة ودراستها دراسة موضوعية . ويبدو لناالمشروع متماظما تماظما مذهلا » .

يؤكد ( داكو ) أن تجديد العالم ، برأيه ، منوط بتجديد المرأة . ولكن لماذا تجديد العالم ؟ لان العالم لم يسبق له خلال القرون أن كان بمثل ماهو عليه الآن من الجحود والضجر ، وفقدان الحياة والحرب

والعنف ، والعدوان ، والنزعة الفردية ، والترويض ، والتفجر ، والتسامت ، والتماثل والخراب ، ولم يسبق له ان كان الى هذا الحد من المبالغة في الاتصاف بصفات الذكورة عالم يعيش على قطب واحد ويدور عليه . انه عالم الذكور فقط .

ولكن ، كذلك ، لماذا تجديد المراة ؟ لانها مزيفة واوشكت ان تفقد معناها بتحول الانوثة الى سحر هزيل خال من الابداعية . وقد كانت من قبل تلك المراة العميقة والابدية . وتتصف بأنها ثاقبة الفكر ، وتحب ماهو اصيل ، ومشخص ، وطبيعي ، وانساني ، ومستقر وان كانت هي ذاتها تجهل ذلك .

الرجل يمنع المراة من تحقيق ذاتها ، تحقيق انوثتها ، ويعطلها . فالرجال يخدعون النساء ويهملونهن لانهم يعانون حصرا منذ الازل ، ويعانون خوفا امام الانثى ، ويتم كل ذلك لاشعوريا .



وتتمثل هذه الخدعة ، في خدعة الحرية ، وهي موضوع الفصل الاول من الكتاب ، يقول ( داكو ) : لم يسبق للمراة ان كانت مسحوقة ومنهارة ، ومستقرة ، وخامدة مثل ماهي عليه الآن .

ولكن لماذا هي كذلك ؟ الم تنل حقوقها العادلة ، الاجتماعية والقانونية ، والعمل ممنوح لها في هذا العالم ؟ نعم ! ولكن في عالم الرجال طبعا . والرجال ، بذلك ، يستعبدون المراة ، ويوقعونها في الفخ ، وقد وقعت بالفعل . انها على وشك ان تفقد شخصيتها واصالتها الخاصتين . ومفعول روعتها وقدرتها الداخلية ، تم ابطالهما :

الرجال يستعبدون المراة مدفوعين بالحصر . والعديد من النساء ، كذلك ، ضد النساء فهن يرفضن انوثتهن ، بل ويكرهن الانوثة ، احيانا ، وبذلك يدفعن زميلاتهن الى النضال ضد الرجال ، ولكن في عالم الرجال .

اما النساء اللواتي يرغبن في ان يكن احرارا من الناحية الداخلية والخارجية ، ويرفضن الخضوع الى الضرورات الجديدة فمدعوات الى عمل عسير . وربما كان كل شيء منوطا بهن ، ولكن ماموقف الرجال، قادة التكنولوجيا ؟ .

اولا : العالم التكنولوجي المجرد من الانسانية ومخططه المعادي للمراة . ان كل ما يحدث كما لو ان قادة العالم التكنولوجي المجرد من الانسانية تواطؤوا :

ـ فلنحذر : لقد بلغ السيل الزبى . المراة تطالب بحقوقها وتحصل عليها . وبدات تفهم اعمالنا . وهي تنذر بالخطر ، وعلينا منعها بأي ثمن .

ـ المراة تتصف بانها ناقدة الفكر ، وهي تحب ماهو اصيل، ومشخص وطبي وانساني . الخ . وستهدم مابنيناه .



فرسمنا عندئذ خطة عامة :

الامر الاول من الخطة : ان ينجذب العدد الاكبر من النساء الى العمل . ولتحقيق ذلك ينبغي تملقهن ، واتخامهن من الناحية القانونية والاجتماعية . دع القيود ، ولكن احتفظ بالرق الكلية . امنحهن الانطباع بانهن متحررات من وصاية الذكر ، تمق في الوقت نفسه حريتهن الدائم اجذبهن الى الاعمال التي تلزمهن بوصفهن نساء .

الامر الثاني من الخطة المعادية للمراة : استاجر النساء حتى في الاعمال الكبيرة ، ولكن في اعمال لن يكون للانوثة اي علاقة بها . ستغضر الانوثة بوصفها غير مستعملة ، وستفنى ، وسيتوقف الخطر .

الامر الثالث من الخطة المعادية للمراة : يمكن للمراة ان تصبح شاهدا صاحيا ، وبالتالي يخشى جانبه فلا بد من استبعاد هذا الشاهد

بجعله شريكا في الجرم . ولن تحشر المراة انفها في اعمال بصفتها شاهد اثبات .

الامر الرابع من الخطة المعادية للمراة : اجبار ملايين النساء على ان يفقدن شخصيتهن ومن اجل هذا نستخدم الازياء والكيمياءوالاعلان والملايين .. الخ كل ذلك . لتكون العبودية كاملة .

ثانيا : ولكن مانتائج نيل المراة حقوقها العادلة،الاجتماعيةوالقانونية، وخروجها الى ميدان العمل بالنسبة اليها نفسها ؟

١ ـ اصبحت النساء محصورات في عالم الذكر ، لانهن لم يغزن بالحرية الخارجية ، بل وقعن في الفخ . صحيح انهن شاركن في سبر العالم مشاركة متزايدة . ولكن في اي عالم ؟ في عالم لم يسبق له خلال القرون ان كان بمثل ماهو عليه الآن من الجمود ، والضجر ، وفقدان الحياة . والحرب والعنف ، والعدوان .. الخ . ولم يسبق له ان كان ، الى هذا الحد من المبالغة في الاتصاف بصفات الذكر ! يقال ان وابلا من الهرمونات المذكرة عطلت في حين ان الهرمونات الانثوية بقيت في القيود .

٢ ـ « المنافسة » النسائية : منافستها للرجال عبث لانها منافسة مبينة على تضخم في المنصب وتضخم في العقل . الذكاء موجود عند المراة ، ولكنها اوشكت ان تفقده . اما الرجال فقد فقدوه منذ زمن بعيد . وفي هذه المنافسة ، لابد ان تفقد المراة انسانيتها . وهنا ، انما تكمن مأساتها وعدم شعورها بالامن ، وتشوهها وحصرها . شاركت المراة في منافسة جعلت خصائصها خصائص تحط من القدر . ورأفتها الطبيعية احالتها مرحلة التكنولوجيا الى مسحوق . موضع تحقير . أما عاطفة الامومة فقد اصبحت جيدة بالنسبة للنساء الساذجات .

٣ ـ حال المراة اسوا مما كانت عليه من قبل : كانت سلطة المراة واستطاعتها كبيرتين فيما مضى عندما كانت تمارس تأثيرا خارج الحياة

العامة . وتعدل اخطاء الرجل ... وتصنع قرار الرجل ولكن قــدرة المراة . تلاشت او تكاد تتلاشى . واختفت روعة المراة التي كانت تتمتع بها فيما مضى فاصبحت نحلة في عصر النحل العاملات .

ثالثا : العالم التكنولوجي المجرد من الانسانية مهتم .

١ ـ مسرور ولكنه قلــق :

ـ النتائج تتجاوز التوقعات . لقد تم استعمار المراة . وتــم تجميد القسم الاكبر مــن النساء وهــن مبتهجات بكونهن مستقلات . انهن يعملن من أجل الرجال . انهن ايد عاملة رخيصة الاجور انهن لسن نساء ولارجالا . ومايطمئن قادة التكنولوجيا أن النساء سيؤثرن على أولادهن فليس ثمة من خطر على عالم الذكر .



انهن ناصلات اللون . ضرب من الظاهرة الاجتماعية . لقد نجح الرجال في ان يفقدوهن كامل شخصيتهن .

ولكن . بقي عدد كبير من النساء ذكيات . ومتوازنــات . وصاحيات واحتفظن بالخصائص القويــة . وهــن ينذرن بالخطــر . ولكنهــن لا يستطعن ان يفعلن شيئا وحدهن . الا ان يتحدن فيما بينهن اذن فلا بد من منع هؤلاء النسوة من أن يتحدن .

٢ ـ المراة شاهد يخشى جانبه :ثمة نساء سليمات،نافذات البصيرة بقين على الرغم من ابــادة الجنس انهن شاهدات . انهن ملاحظات لاخطاء الذكور الخطرة . ويعاين ماينتظر العالم . يلاحظن ان الرجــل لايدرك انتحاره التدريجي المحتوم . ومن المحتمل أن تصبح هذه النساء متهمات . وسيوقدن نار التمرد ضد ضروب الظلم . انهن يرغبن في كوكب تسكنه موجودات انسانية تسكن وتتغذى بصورة انسانية . لذا . على الرجال استبعاد هذا الشاهد بجعله شريكا في الجرم . وعندئذ تنطلي الخديعة . ولن تستطيع المراة ان تحشر انفها في اعمال الرجال بصفتها

شاهد اثبات . لانها شريكة في الجرم . والحيلة الثانية لاستبعاد الشاهد هو ان يشتروا سكوتـه . وانما هنا يكمن دور ممثلي العالم التكنولوجي المجرد من الانسانية . اذا كانت النساء يردن ان يكن مصححات الخطأ ،او يرغبـن في ... فليكن ، مادام الرجال يبنون حاضرات لاروح فيهـا فلنحول هؤلاء النساء الشاهدات الى نساء عمال . فيمكن لهن انتقاد الرجال وهن متهمات بفعل المسؤولية التي يقبلنها . وقد انطلت الخدعة على الكثيرات .

٤ ـ اشعار المرأة بأنها آثمة على كل الجبهات : لو امكن استئصال الاخطاء القديمة . ولو وعت النساء ذاتهن . لاصبحن مجددا قوة وحكمة وذكاء وعملا . ولأمكن لهـؤلاء النساء المتجددات أن يباشرن نفاذهـن التدريجي في العالم الخارجي الذي سيتصف بالتوازن مجددا . بدلا من أن يستمرن في الانهيار . وبدلا من ذلك . اشعر الناس المرأة بالاثـم . اكدوا لها بأنها آثمة ان عملت في بيتها . وآثمة ان عملت خارجـه ،آثمة لكونها لم تهتم بمسكنها ، آثمة لان لها اطفالا وآثمة لانها ليس لها اطفال الخ . وكل ضروب النهش هذه . ينكأ جرح المرأة القديم : اي شعورها بالدونية . القديم العهد . انهن يرين انفسهن ملزمات بأن يكن نساء ورجالا في الوقت نفسه . ولكن مع توقفهن عن أن يكن نساء ، وعجزهن عن أن يصبحن رجالا لقد الغى الناس ماهية المرأة . ولقد تعزز شعور المرأة بالاثم بفعل بعض فئات من النساء « المتحزبات لمطالب المـرأة » بنقلهن حالاتهن الشخصية الى المستوى العام . أصبحن ضد المرأة وضد الام . وضد الرجل وضد أنفسهن من جراء كونهن يعانين صعوبات عميقة مع اماتهن وآبائهن وأزواجهن . وهذه الفئة لاتدافع عن المرأة . لايسعين الى تجديد الانوثـة . بل الى هدمها . لانهن مفعمات بالضغينة .

ولم يترك الشعور بالاثم لدى هؤلاء النساء غير حلين : اما أن يجدن اللذة في مطالبهن واما ان يصبحن مكان الرجال الذين استعبدوا المرأة .

وانما هنا ، يجدن انفسهن ايضا واقعات في الفخ ، شريكات في الجرم ، وموضع شبهة .

ولكن ، كيف تستطيع المراة ان تواجه هذه الخدعة ، خدعة الحرية؟ هل بالعمل ؟ ثمة عدد من النساء النخبة اللواتي يتصفن بالمهارة في ايجاد ابداعية سعيدة ، في منازلهن وفي الخارج . والنساء اللواتي يبحثن عن هويتهن من خلال مهنة من المهن لن يجدنها ابدا وينبغي على النساء الصاحبات المتوازنات أن يكن قادرات على الكلام والكشف ، واعادة التنظيم وكونهن يعملن خارج منازلهن امر عديم الاهمية . فالاهمية الوحيدة لفضيلة النفس .

ولكن أي الوسائل يمكن للنساء ان يستخدمنها ؟ يقول ( داكو ) : انني افكر بالفعاليات ذات الانتشار الواسع : الاذاعة والصحافة والتلفزيون ، حيث لا يزال للانسانية بعض الكلمات التي ينبغي ان تقولها .

وعلى المراة السليمة الذكية أن تكون حصان طروادة الجديد ، الذي ينزلق داخل منظمات الرجال دون أن تدع نفسها تتشوه . ودون ان تقع في الفخاخ . فان يعملن ضد الرجل امر غير مطروح على بساط البحث اطلاقا ، وانما ان يعملن مع بعض منهم بهدف تجديد العالم الراهن .

وفي الفصل الثاني ، يتكلم ( داكو ) على خدعة ثانية هي خدعة الدونية او عقدة الدونية المزعومة ، او دونية المراة . فيرى ان هذه الدونية تقوم على بعض السخافات . فالناس يبحثون دائما عن مالا تتصف به المراة قياسا الى الرجل لا العكس . ويعبرون عن الاعاقة ، وعن الميزة بالتفوق الخ . وثمة سخافة كبيرة هي ان المراة قد تم تصنيفها تصنيفا نهائيا : ان قدر المراة ان تعجب بالرجل ، وأن تصل من اجله ، وان تلد اطفالا ، والمسالة مسألة اقدار المراة الطبيعية الوحيدة .

ولكن بالقياس الى اي شيء تتصف المراة بأنها ادنى ؟

تصاغ ضروب السلوك الانساني دائما بمصطلحي الدونية والتفوق . ويعجب الناس بالمتفوق ويحتقرون المتصف بالدونية . المتفوق ينضح بالاهمية . والادنى ينسحب خجلا مرتبكا . وسؤال ايهما متفوق . المراة ام الرجل يصبح لا معنى له . لان التفوق والدونية يقاسان بمقياس واحد . فبالفصل بين الجنسين . يصبح متعذرا كل قاسم مشترك . وكل مناظرة بينهما متعذرة . كيف يمكننا ان نبرهن على تفوق احد الجنسين ؟ بالقياس الى اي شيء يتصف احد الجنسين بانه متفوق .

اننا لا نسأل ابدا ما اذا كانت المراة والرجل هما حقا ما يمكن أن يكونا عليه . او ليس المراة والرجل . كلاهما في مستوى ادنى من حيث امكان تحققهما الخاص ؟

يقول ( داكو ) : هنا تكمن المسألة . فالمراة المتحققة « اسمى » من رجل مراهق ولو كان عبقريا . والرجل المكتمل « أسمى » من امراة طفل . والمراة الجميلة التافهة ادنى من امراة تتصف بأنها امراة على نحو كلي ... الخ . لذلك يقترح ( داكو ) مصطلح « معوق » محل مصطلح ادنى . فالمسألة مسألة بالطبع . ولكنها مسألة تحقيق الذات .

والتباس آخر هو ان المرء يوازن شخصا بآخر بدلا من ان يقيسه بمعيار امكاناته الخاصة وتدافع المراة عن نفسها : وهذه بعض الامور الاساسية تخلق الشعور بالدونية :

ـ الاحساس المؤلم بكون المرء « اقل » من الآخرين .

ـ الانطباع بأن المرء « تحت » المعيار . مثل القلق الذي يستحوذ على المراهقات : قلق ناشيء عن احساسهن بأنهن لسن كسائر الناس .

ـ الاحساس بأن المرء ليس على مستوى المهنة التي حددها لنفسه او فرضها المجتمع عليه .

تستجيب المراة للشعور بالدونية :

١ ــ بضروب من التعويض يمنحها الاحساس بالقوة والتفوق .

٢ ــ او بضروب من اعلان الحرب المعممة .

٣ ــ او بضروب من الغيرية المغالية .

٤ ــ او بالكارثة الكلية او الغرق في تشاؤمية حادة تؤدي الى الانتحار .

والاختجاج المذكر لاثبات الوجود ، وحرب العصابات يؤمنان للمراة احساسا قويا بالتفوق . الدهان الهذائي ينطوي على مروحة واسعة من ضروب السلوك تغطي شعورا بالدونية راسخا . ويستخدم الدهاب الهذيائي وسيلة من وسائل الدفاع .

اذا كان وضع المراة امام الرجل كما ذكرنا موقف الشعور بالدونية . فما بالمقابل وضع الرجل ازاء المراة ؟



يرى ( داكو ) انه ليس ثمة شيء من العبث في السؤال بأن الرجال يحسون بانهم ادنى من النساء لانهم لا يستطيعون ان يلدوا اطفالا ، لان اي خليقة حية لا تتشكل في جسمهم . فعدد كبير من الرجال الاسوياء يتألمون ، بصورة لا شعورية ، من عجزهم عن خلق « ماهو حي » فيشير هذا « الجفاف » في الابداع احساسا بعدم الكمال او العجز امام الحياة .

قال احد التقنيين لمخترع . كيف حال الطفل ( يعني طبعا بالطفل الاختراع ) .

وقال آخر : لقد حملت اثري الفني في ذاتي خلال سنين ( رسام ) .
وقال بناء لمعاونيه ، في الغد ايها السادة ، ستكون ولادة الطفل .الخ .
نرى في هذه الامثلة فكرة الحمل . وحب ما يصنع ، فكرة الولادة .

فالرجل يعاني مرارة عجز عن الولادة بالمعنى الدقيق للكلمة ، مع ما يرافق ذلك من استطالات لامتناهية يفترضها ، ويعاني خوفا من المراة وهو خوف ميتافيزيقي .

اذن ، كل موجود انساني يكابد الحاجة الى ان يخلف اثرا . وهذه الامكانية التي تتصف بانها طبيعية لدى المراة ، يبحث عنها الرجل خلال اي شيء .

الرجال يبنون ويغزون المجهول كيما يعوضوا استحالة الخلق بصورة حقيقية . ويبيدون الاحياء اذ يغزون ولا يضايقهم في ذلك اي شيء . يضايقهم انهم لم يخلقوا حياة ، وابتعدوا ، في الوقت نفسه ، عن الطبيعة .

وهذا هو السبب الذي من اجله قد تتوقف الحروب ، لو ان العالم كان تحت سيادة نسائهن نساء على نحو كلي . اذ كيف يمكن لهن افناء الحياة وهن يخلقن الحياة .



ولكن ، لماذا تشعر المراة بانها ادنى ؟

انهن ملزمات بالانجاب . ولا يستطيع بعضهن الانجاب . لذلك يغرقن في ضروب من الشعور العميق بالدونية . وهن يائسات بصورة صحيحة وعميقة .

اما ضروب الشعور بالدونية فثلاثة : يمكن للمراة ان تعاني ثلاثة انواع من الشعور بالدونية ــ شعور شخصي نتيجة ظروف الحياة وطفولة المراة وتربيتها ، والاسلوب الذي استخدمته في رد فعلها على احداث وجودها .

ــ شعور جماعي من جراء انتمائها الى السلالة الانثوية .

ــ عاشت المراة وفق مقاييس ليست مقاييسها ، بل مقاييس الرجال .

ولكي تتخلص المراة من هذه الخدعة ، خدعة الدونية : يقول ( داكو ) : يمكن ان نقول ونتمنى :

ــ ان لا تراعي المراة ضروبا غير موجودة من الدونية او التفوق ؛ وان تصبح مجرد امراة .

ــ ان تتعلم الى اي حد يتصف الرجل بانه ثلوم بدونها واعزل .

ــ اذا كانت المراة تهدف الى ان تكون محبوبة ، وان يرد اعتبارها، فان ذلك يجب ان لا يتم لقاء انتحار داخلي . ولا لقاء ان تصبح نصف رجـل ، ولا ان ترتدالى امراة طفل بـل عليها ان تصغي الى اصواتها الداخلية .

ــ ان تبدا بان تقول لنفسها ، ان كل شيء مزيف حتى ولو اخطات، وان تاخذ في مسيرتها ما يطابق ماهيتها .

ــ ان تعلم ان التسامح غير المستساغ اسوا انواع التمييز العنصري.

ــ ان لا تصغي الا الى العبارات التي تنسجم مع ما « تقدر عليه » .

ــ ان تعلم ان اقل عطف فاعل اقوى من الف معركة ومئة الف فكرة.

ــ ان تفهم ان اختفاء المراة يعني زوال العالم .

ــ ان تعلم ان الابطال الحقيقيين رجال ونسـاء في الوقت نفســه . عطف ومعركة معا . وان العطف لـدى المراة يسبق المعركة ، فتتوقف المعركـة .

ــ ان تعلم كم يزكو المؤنث في ضروب الحلم الاكثر تواضعا ، وخلال ضروب الاحسـان الكبيرة .

ــ ان تفهم اصول اضفاء الشعور بالدونية الذي فرض عليها .

ــ ان تحاول صعود مجرى زمنها الخاص الخاص لكي تتسـاءل : اين توقفت ؟ لماذا لم أستطيع ان اصبح ما انا عليه ؟ في اي برهة كنت الشريك المتطوع في لعبة مزيفة .

ــ ان تتمنى مع كل شخص ، ان ينزلق العالم من القوة نحوالعقل ، ومن الكم نحو الكيف ومن المظهر نحو الماهية .

ــ ان ترفض اخيرا ، ان تستمع الى اولئك الذي ينادون بالغاء ما تختلف به المراة عن الرجل بل على العكس ، ان تجعل هذه الفروق الاساسية اصيلة وتعمقها ، وان ترجع الى اصل انوثتها التي تتصف بأنها قوة ، وذكاء عميق ، وحكمة ، ورحمة .

وفي الفصل الثالث وتحت عنوان : فرويد : من سوء حظ المراة ، يبين ( داكو ) موقف فرويد من المراة ونظرته اليها .

يرى فرويد ان الذكورة هي الاساس . وفي دراسته للمراة انطلق من الرجل واعتبره مقياسا . وانطلق من ان ضروب حصر المراة وصعوبات الحياة والاخفاقات ، تفسر رغبتها التي لا يمكن تحقيقها في ان تكون رجلا . وعليه ، فان الحاجة الى ان يكون لها « علامة القوة لدى الرجال، العضو المذكر ، تعذبها ، وتشعرها بأنها مخصية » . ويترتب على ذلك ، في راي فرويد ، ان :



ــ الليبدو ذو ماهية مذكرة .

ــ العضو الجنسي الاصيل الوحيد هو العضو المذكر . والبظر عضو مصغر .

ــ ليس للمراة جنسية حقيقية .

ــ المراة موجود مخصي ومثقوب . شبيه بالعدم .

فالمراة ، بحسب هذه النظرية موجود « دون جنس » . وتريد من جهة اخرى ان تبلغ المحال : ان تكون رجلا ، ان يكون لها العضو المذكر .

وهذا البيان الفرويدي جعل المراة « مشوهة » بمرسوم علمي : انها ضرب من نصف موجود ضرب من رجل غير تام ، محكوم عليها بالضغينة ازاء وضعها وبالغيرة ازاء الرجل ، « مالك العضو المذكر » . كانت هذه الوثيقة قد دفعت المراة نحو العطالة والتبعية واللاابداع فكيف لم تكن

المراة تعاني الحاجة ، في هذه الشروط ، الى خصاء الرجل بدورها . ويلاحظ المرء على الغالب ، ان ثمة نساء يحاولن تشويه الرجل ، أو أنهن يحاولن استلام القيادة واجبار الذكر على ان يستسلم دون شرط . وهذه هي النساء القضيبيات .

ان عائق المراة طبيعي بيولوجي : فهو اذن ، غير ممكن الشفاء ، ونهائي .

ويبين « داكو » ان آراء فرويد لها اثر كبير حتى في آيامنا هـذه . ونظرياته انتشرت انتشارا سريعا واذيعت ونشرت . وبقيت الصحف الواسعة الانتشار ، والسينما والمسرح والاعلان ذاته ، متأثرة بفكر فرويد وقد انطلت الخديعة على النساء والرجال على السواء .

الا ان فرويد ، شانه شان كل موجود انساني ، كان مشبعا بالافكار النمطية الثابتة التي كانت سائدة في عصره ، وببعض الآراء المسبقة .



تمثل « المراة » ، منذ الازل سرا كتيما ، غامضا ، غير معروف . وهي كذلك في ايامنا هذه لا من الناحية العملية ، وانما مـن الناحية الوجدانية .

لم يستطع فرويد ان يدرس المـراة في ذاتها . ولكنـه فحصهـا وانطلق مـن الرجل واختاره مقياسا . وكان لآراء فرويد اسقاطـات سلبية . وعانى العالم بأسره من نتائجها . وتاثرت بها التربية ، وعلـم الاجتماع ، وتم تفسير التاريخ من خلال فرويد ، وطبقت نظرياته بالقوة على المرضى وفي مجالس الاسرة ، والزواج ، على ان هـذه النظريات اصبحت امرا مفروضا بيد ان كل ذلك ، لم يكن من فعل فرويد ، ولكنه فعل ضروب من الشيوع الخرقاء او غير المفهومة وماذا عن فرويد ؟ لقد عزي اليه انه اكد بصورة حازمة ما لم يكن غير امر مفترض ، الامر الذي كان يعاني منه .

ومن جهة ثانية ، يقول فرويد بالثنائية الجنسية الانسانية . فكل موجود انساني يتسم بأنه انثى وذكر على السواء . وقد رسخ بصورة علمية التقابل القديم بين الجنسين . الا ان فرويد قد استخدمه ذريعة. واذا كان الرجال بحاجة الى الاعتقاد بأولية الذكر ، فانهم يتبنون افكاره، وعندئذ .

— يمكن للرجل ان يحتقر المراة .

— الخوف والرهاب ازاء المراة يضعفان .

اما فيما يتعلق بالنساء ، فباستطاعتهن ان يجدن في هذه النظرية ذريعة . فبدل ان يبحثن عن انفسهن من حيث هن نساء ، وبدلا من أن يبحثن في ذواتهن عن سبب آلامهم فانهن يتهمن الرجال .



فحصر المراة انما بسبب كونها امراة . فهي تخضع وتتحدث .ويلعب كثير من النساء لعبة عميل مزدوج . فهن ، من جهة ، يردن تمثيل دور المؤنث الابدي مقتضيات جميع المزايا والامتيازات وضروب الاهتمام والحماية ، التي ترتبط به .

ويرفضن ، من جهة اخرى ، وفي الوقت نفسه ، هذا الوضعنابذات عون الرجال . يقول ( فرويد ) ، بل يعمم فكرة مفادها : ان الرغبة الاساسية لكل امراة هي ان يكون لها طفل ذكر ويصبح هذا الابن بديلا لما لم تستطع الام ان تكون : رجلا .

غير ان فرويد يدفع الامور الى ماهو ابعد . فهو يعتقد بأن « حمل طفل في البطن » يرمز بالنسبة لمن ستصير اما في المستقبل الى انه « سيكون لها عضو الذكر كالرجل » . وتبقى آراء فرويد مثار نقاش .

ان فكر ( فرويد ) ساد العالم بأسره دائما ، وتعاني البنت نتائجه ، منذ المهد . فالظاهرة معروفة . فالجنسية النسوية ، في رأيه ، عدم من

الناحية العملية . وجنسية داخلية : وهنا تكمن نقطة الضعف . فيشعر بعض النساء ان اعضاءهن وسخة ، وناقصة ، ( مخصية ) ومدعاة للخجل . الخ . وثمة سبب اكثر اتساعا اضافة الى البواعث التي ابرزها ( فرويد ) وهو : ان الرجل يحس ببطن المراة وكانه مغارة الموت . انها انما هي الرمزية الاكثر اثارة للرعب ، التي غلفت المراة .

ان رفض الانوثة ، والمغالاة في تقييم قيم الذكر المزعومة التي يدعي البعض نسبتها الى فرويد يفضيان الى نتائج لا يرغب احد في الموافقة عليها .

وقد تم تنقيح ما كتبه ( فرويد ) . ولم يعد مطروحا على بساط البحث ان تؤخذ بحرفيتها عبارة « رغبة المراة في ان تكون رجلا » ولاسيما ان احدا لا يعرف ما قصده فرويد بها . فالنظر متجه في ايامنا هذه الى ان كل حالة نوعية ، مختلفة بحسب التربية التي تتلقاها المراة . والدين الذي تمارسه . والاخلاق التي تعلمها . وثمة تاكيد من جهة اخرى على القيم الحضارية .



بل انتهى بعض علماء النفس الى نتيجة مفادها ان الرغبة الشهيرة « الرغبة في عضو الذكر » لا وجود لها . وعلى اي . لابد من التمييز بين العضو التناسلي للرجل وبين الرمز الذي يمثله القضيب .

ويرى داكو ان التربية التي تولي اهمية كبيرة للذكر . وتهمل الانثى ، هي المسؤولة عن رغبة المراة في ان تكون رجلا ، وعن نزعتها الى التسلط في بعض الاحيان داخل الاسرة . فالمراة تفكر لاشعوريا في ان تكون رجلا لانها لم تتعلم ابدا ان تكون امراة وما ان تتعلم ذلك حتى تختفي رغبتها في ان تكون رجلا .

اما في الفصل الرابع يتكلم ( داكو ) على عضو الخدعة . وتتلخص هذه الخدعة بان المراة مخصية وناقصة . اي انها لا تملك عضو الذكر ؛ غير ان المهم في راي ( داكو ) ليس هو عضو الذكر في ذاته . وانما ما يرمز

اليه هذا العضو . والمقصود بذلك ان عضو الذكر اصبح القضيب الذي يمثل السلطة والقوة . بل العبادة في بعض الاحيان .

وفي الفصل الخامس يتكلم على المجازر وضروب التآخي :

١ ـ الرجل المذعور امام المراة : كل رجل يخاف المراة . فهو يعاني رهابا عميقا مما تمثل المراة بالنسبة اليه . وان تبدلت الحضارة وانقلبت القوانين وتطورت الازياء ، ولكن اسلوب احساس الرجل العادي بـ « المراة » لم يطرا عليه اي تبديل .

فالمراة موضوع نوعين اساسيين من الخوف الذي يحس به الرجل على وجه الخصوص :

ا ـ خوف حيواني يتصف بانه لاشعوري على مستوى النوع ( اللاشعور الجمعي ) . فالرجل لا يخاف « المراة » ولكنه يخاف ما ترمز اليه المراة بالنسبة له .



ب ـ خوف سيكولوجي : فالمراة تخشى لبعض المواقف ،كالنظرات وضروب السكوت والكلام وهو خوف يثير دائما لدى الرجل ، ضربا من الحذر والتراجع الغريزي ، وحالة من اليقظة ، واسلوب معينا من الاحتراس ، بعبارة اخرى ، يولد هذا الخوف ردود فعل .

واعتمد ( 'داكو ) على اسلوب التداعي او الارتباطات بين الكلمات التي طرحها على رجال ونساء اجابوا عليها اجابة تلقائية . وتبين من نتيجة الدراسة ان المراة محسوسة على نحو اما فعال ، في الايجابية ، واما فعال في السلبية ، وهذه الارتباطات ذاتية جدا ، ولكننا نستطيع ان ناخذ بالحسبان ان « المراة » تثير في وقت واحد :

ا ـ الحذر والخطر .

ب ـ البعيد المنال والحلم الفردوسي .

فهذه الارتباطات ذاتها كان يمكن ان تتم في العصور الوسطى كما تتم في أيامنا هذه . انها تنبعث من تيارات لاشعورية تقود الرجال والنساء ، وتزيف الحياة الاجتماعية بالتأكيد . ويظل تحرر المراة الحقيقي متعذرا ما استمرت هذه الذاتية وهذا الخوف .

اولا : احساسات الرجل السلبية : وتتلخص في ان الرجل يعاني حصرا تجاه المراة . وينشأ هذا الحصر من احساس الرجل بان المراة تتصف بخصائص داخلية اقوى من خصائصه . انها ذات استطاعة متضمنة بمقدورها ان تستعملها في اي وقت . ذلك انها جاهزة دائما ، لذلك فان الذكر « يرخي العنان » ويمنح المراة حقوقا ومسؤوليات . وواجبات الى حد معين . الى الفترة التي تستميد فيها المراة الراضية على وجه التقريب . مواقف الصبر . ومنذئذ يتوقف الاحساس بالخطر لدى الرجل . والرجل يهب المراة كثيرا من الاشياء . لانه اذا ذهب بعيدا في الاستبعاد امكن للاستطاعة الداخلية ( القوة الانثوية ) ان تدمر السدود وتجرف كل شيء دون رقابة .



ويكمن جذر المأساة الانسانية : واساس الرهاب الغريزي الذي كانت المراة ضحيته في كل العصور . في ان الرجال بداوا وجودهم في كهف انثوي . ولكنهم من الاتحاد به بحيث كانت هذه الانثى قبل ان يتمايزوا . وكانوا جميعا ظلاما وعدما قبل ان يحوزوا قناديلهم . قناديل الشعور . والرجل يخشى المراة لان فيها عدمه .

والخوف من العدم اقدم عدو للنوع الانساني : المراة لا تعاني حصرا من العدم بقدر ما يعاني الرجل . ذلك انها قادرة على صنع الحياة ، والمادة لا ترهبها : فبطنها ينتجها . ولا تخشى الزمن . ولا تخشى الطبيعة : فهي ترتبط بالطبيعة بجميع اليافها الجسدية والسيكولوجية . هذا في حين ان الرجل لا يعرف الحياة « الحية » الا بعقله . فهو رهابا من كل ما يذكره بعدمه الاصلي ، وبكل ما ينذره بعدمه في المستقبل . وبكل ما يرمز اليه العدم .

وباختصـار : ترمز المراة الى المجال الاعلى لحصر الرجل الميتافزيائي. والمراة تجهل الى اي مدى هي « ركيزة رهاب الرجل » . تقول ( سيمون دوبوفوار ) : لو لم يكن النوع الانثوي موجودا ، لوجد النوع المذكر شيئا آخر يسقط عليه خوفه . ويسوق ( داكو ) عشرات الامثال والوقائع في هذا الميدان .

وليتخلص الرجل من خوفه من المراة ، فانه يبني مجموعة كاملة مـن السدود . فهو لا يرغب في السيطرة على المراة ، بل في أن يجعلها بعيـدة عنه ، لذلك ، فهو يتصرف ، بحيث لا يكون بوسع الاستطاعة الانثوية ان تتجلى على نحو حر . وافضل وسيلة لمنع المراة من ان تعبر عن نفسها تعبيرا حرا ، كانت ابقاءها تحت نير العبودية ، هي تحييد المراة . ولكـن كيف ؟ الرجل يشعر أمامها بالدونية شعورا قويا ، لهذا فهو يحتال علـى هذا الشعور او يحاول التعويض عنه ، فهو يزيف المواقف ويصطنعها . مواقف سلبية ، هدفها سحق المراة ، ومواقف ايجابية هدفها ملاطفة المـراة .



اما الخوف السيكولوجي ازاء المراة ، فثمة عدد كبير مـن الرجال يصبحون ثانيا صبيانا صغارا أمام نسائهم منذ دخولهم المنزل . يخشى الرجل ، على وجه الخصوص : نظرة المـراة ، وصمتها ، وكلامهـا . وباختصار ، ان ما يخيف الرجل خوفا عميقا هو كل ما يبدو ، في موقف المراة ، انه يذل وينعص من القدر . وهذا انما هو موضوع الخصاء ، و « الغاء ، شخص الذكر . ويخشى الرجل من مواقف المراة كل ما يبدو أنه يضع موضع الشك قدرته وشجاعته ومظهره وذكاءه ، وكل موقف وكل كلام ، ويبدو انهما يخلعان قناعه ويعريانه هذا الرجل يلاحظ ان مظهره لا يطابق ماهيته . ويخشى ، كذلك ، كل موقف يبدو أنه يمهد لثورة الانثـى « غضبة الانثى » غضبة يحس بها الرجل انها لا رحمة فيها ولا ملاذ ( موضـوع « الانثى الملتهمة » ) .

ثانيا : الاحساسات الايجابية وتبين ان الرجل يغالي في ايجابية المرأة بل يرفعها الى حد العبادة ، فالقصائد والاغاني والمدائح الكثيرة التـي قيلت في المرأة تدل كلها على هذه الاحساسات الايجابية .

ولكن ، هل يعتقد الرجل اعتقادا عميقا بما يقول ؟ اذا كان الرجل يعتقد بما يقول نظرا لوجود الخوف اللا شعوري لديه من المرأة ، فلماذا اذا هذا التعظيم ؟ الواقع ان هذه الاحساسات الايجابية وسيلة من الوسائل التي يلجأ اليها الرجل الخائف لا شعوريا ليوقف خوفه . اذن ، نستطيع ان نقول ان الهدف اللا شعوري الوحيد من لجوء الرجل الى تدليل المرأة ليس الا محاولة منه لايقاف خوفه .

اما الحل ، ففير موجود ، ما دام اي اخوة صحيحة بين الجنسين لن تكون مابقي الذكر يخشى الانثى . وهذه الخشية تثير ضروريا مزيفة من السلوك الايجابي والسلبي . ولن يقبل الرجل ان تصعد المرأة الى مستواه مادام خائفا . والمسألة ليست مسألة حاجة طبيعية الى التفوق .



على الرجل ان يغير ويكتشف جذوره وروابطه بالارض والمادة والحياة والموت . وعندئذ على سبيل الحصر ، يتوقف خوفه من العدم ، وخوفه من المرأة في الوقت نفسـه .

وعلى النساء ان لا ينادين بالنصر . ان عليهن ، هن ايضا ، ان يغيرن الاتجاه والا استمرت الانوثات الطفولية او العدوانية في تغذية حصر الذكر وعدائه .

ودور الامهات المتوازنات ذو اهمية عظيمة ، ذلك ان الام هي المرأة الام التي تنشىء صـورة المـرأة التي يحملها الذكر معه طيلة حياته . ولا بد لنا من ان نتعرف على رموز المرأة ، هذه الرموز اللا شعورية التي لها الغلبة على كل ما عداها ، والتي توضح صورة المرأة في اللا شعور . ورموزه المرأة تثير نوعين مـن : الاحساسات الايجابية والاحساسات السلبية .

وهذه بعض رموز المرأة : الماء ، الجبل ، الارض . وسنقتصر على رمز الماء ، لان الماء هو رمز المرأة الذي يتصف به اكثر كلاسيكية ، واكثر لصوقا ، واكثر واقعية على الغالب ، فثمة خصائص انثوية عديدة ، ايجابية او سلبية ، تجعل المرء يفكر مباشرة بالماء .

وهذه بعض الارتباطات بين الافكار ، صنعتها بعض النساء .

الكلمة المقترحة : الماء :

اجابت سكرتيرة في الثامنة والعشرين :

ـ الماء ؟ آه . . . انه ، انا في اسعد ايامي ! انا . مرنة ، انا ، اتكيف جيدا . سيال وطيبة . الماء سيال ونسوي . والماء نسوي على نحو رائع . ينساب على الارض . سعادة . الماء . نهر يحمل القوارب لا شكل له . . . نعم لا شكل له . وله جميع الاشكال . تلاؤم يسير وعذب . الماء انه المرأة . انه الحياة التي تغنى بين حافتين . . . والرجل يموت قبلنا .



وقالت طالبة في الحقوق في الثالثة والعشرين :

ـ ينبغي أن الغي الاجتهاد القضائي ! الماء ، الماء ؟ الينابيع بين يدي ، وصورتي في الماء ، انعكاس ، مجرد انعكاس . مرآة متغيرة كوجه امرأة ، انني جافة ، الى حد المغالاة ينبغي ان اصبح اكثر ماء . . . ولي مرونة الماء اللا متناهية .

واجابت موظفة في الثالثة والثلاثين :

ـ اعصارات ، ممتصة ، منجذبة حتى الاعماق ، اسماك لزجة ، باردة ، لقد افزعتني أمي من نخاعي .

في هذه الارتباطات نلاحظ ان الماء يذكرهن بالانوثة التي هي رمزها الكامل . وهذه بعض الرموز السلبية والاتجاهات السلبية :

الرمز السلبي والاتجاهات السلبية :

| الماء : محسوس على نحو سلبي | الاتجاهات السلبية لدى بعض النساء |
| --- | --- |
| – ينساب ويتسلل في اصغر الشقوق . | – يسللن بمهارة كلاما وافعالا ، ويسر : « السم » بصورة ماكرة . والمقصود ( افتراءات ) . |
| – ساحر على سطحه ويظل يثير القلق في الاعماق . | – يفتنن الرجال لكي يجذبنهم على احسن وجه الى الدمار والافلاس . |
| – يجمع قوته قبل أن يتدفق . | – يراكمن الضغائن ومشروعات الثار بصورة صامتة حتى ينفجر الغضب الاعمى الذي لا رحمة فيه . |



الرمز الايجابي والاتجاهات الايجابية :

| الماء : محسوس به على نحو ايجابي | الاتجاهات الايجابية لدى بعض النساء |
| --- | --- |
| – استطاعة كامنة مستقرة ومرنة . | – لا يمكن انجاز شيء يتصف بالدوام دون دعم الانوثة، المرنة التي تتلاءم مع الظروف . حدسهن وحسهن السليم يقودان اعمال الرجال ويصلحانها . |
| – يغسل ويطهر . | – فهمهن الامومي يطهر من الخجل . وبوسعهن اجراء بحث وجداني حقيقي . ويبعثن الحياة في اعمال الرجال التي اصابها الجفاف . |

وهذه الرموز رواسب فاعلة .

وحاجة الوجود الانساني الى هذه الرموز كحاجته الى الخبز ، ولو اختفت لجفت عبقرية الشعراء ، واغلقت دور السينما ابوابها . الخ . واختفت كذلك ضروب الخوف والقلق ، ومعها الرموز . وسيكون على الارض ، طوف من جليد الموضوعية والعقل المحض .

ونضج المراة ثانية ما هي عليه — ولكن هذا يعني صعوبة احتياز الشعور بها . ويمكن ، بالتحليل النفسي ، ان تصبح الرموز شعورية .

ويمكن للرجل ان تكون لديه فكرة واضحة عن ضعف طبيعته ، وان يفهم ان كل حاجة للقوة او الابدية تعويض عن حصره . وتختفي عبادة المراة ( عبادة سوداء او بيضاء ) عندما يفلح الرجل في مواجهة حصره .

وفي الفصل السابع ، يعرض داكو وسيلة اخرى لاستعباد المراة من الرجل ، الا وهي تصنيع المراة ، وتجميع اجزائها جزءا نجزءا . وهذه المراة المصنعة ، هي المراة التي سماها داكو ناصلة اللون . اصيبت المراة بنصول اللون في شعرها في معظم الاحيان ، وفي شخصيتها . انها وليدة التقنية الغازية . فبعض النساء الشهيرات بدان يجسدن بالرمز حالات مرضية من الناحية الوجدانية كـ ( مارلين مونرو ) على سبيل المثال . ثم اخذ عددها يتكاثر من بعد بحسب تجرد عدد كبير من الرجال من انسانيتهم تجردا تدريجيا .

هذه المراة هي البغي اللا ارادية لهذه الحقبة ، نهاية القرن العشرين . انها دون ان تعلم ، في قصر الحريم الحديث .

اما البطاقة البيانية لناصلة اللون : تحتوي على اسماء مستعارة لها ، مثل ، لعبة جميلة ، حيوان اصيل ، يمامة عذبة ، نزوة مساء الخ . وموطنها : الغرب وامريكا على وجه الخصوص ونسخها : في الافلام والروايات والمجلات ، وموجودة بين المغنيات والممثلات وفي الصالات والاعمال . وخاصيتها : بعض الممثلات من هذه الفئة الناصلة اللون

أصبحن أسطورة حية حتى ذوات الشخصية وذوات الشعور السوداء منهن « صنعتن ثانية » . وهـذه المرأة ، في بعض الاحيان ، امرأة طفل ، شفافة سريعة العطب ، وأحيانا اخرى ، امرأة تمثال ، نرجسية .

عينا هذه المرأة الناصلة اللون زرقاوان ، أو خضراوان ، مائلتان في بعض الاحيان وجفونها تمر في جميع اللونيات بحسب الطلب اليومي . ابتسامتها طفلية او متخثرة . ايماءاتها وكلامها ليس لها لون ولا رنين . وعفويتها طفلية أصيبت بالتوقف . وهي ، على الغالب ، شديدة الخجل وهي ظل وضباب ، وموجود لا متمايز . ولها فئات فرعية . فهي موجودة بالملايين في المدن وعلى شواطىء البحار الخ . وهن فتيات جدا على الغالب . شبحيات ، متسكعات الخ ، يزرعن الخوف في نفوس الرجال . ومع ذلك، يفتن بهن عدد كبير من الرجال الذين يتصفون بانهم لا يمنحون قيمة الا للاشياء المادية ، وللمظهر ، وللنجاح الخارجي . ولا يؤمنون الا بالنجوع والمردود ، والعمل الذي لا تتخلله الراحة ، والذي يهرب الرجل فيه من نفسه .



اما تصنيع هؤلاء النساء ، فيقوم به الرجال المصنعون ، والتكنولوجيا ، والاقوياء ماليا ، والنشيطون بفعل عقليم المتضخم . فالصناعة قذفت الى السوق بمنتجات الجمال وبالمنتجات الكيمياوية . ثم الاعلان من جهة اخرى ، والسينما ، والمجلات ، نشرت صورة المرأة المزعومة انها « انثى جدا » وهي ، في الواقع ، ليست الا امرأة يرقة ، انها صورة المرأة الطحلب .

وهناك صيادو البنات وصيادات البنات ، ذوات الاحلام . يبحثون عن عارضات للازياء أو نجمات الخ . وهكذا ، فان طلب الذكور يتحقق بصورة طبيعة لا شعوريا .

ولكن ما سبب هذه الخدعة التي انطلت على المرأة ؟ وما سبب حصر الرجل ازاء المرأة ؟ انه جهل المرأة بنفسها كانثى ، وجهل الرجل بنفسه كذكر ، وبالتالي جهل المرأة والرجل كل منهما الاخر . لذلك ، يعرض

داكو في الفصل الثامن : الانوثة والذكورة بالتفصيل ويبين علاقـة كـل منهما بالاخرى .

يؤكد ( فرويد ) ان الوجود الانسـاني ثنائي الجنسية . اما ( يونغ ) فيقول : ان في الرجل جزءا من الانوثة ، وفي المراة جزءا من الذكورة . فالذكر المحض كالانثى الصرفه الذكر المحض سيكون ضربا من الغول المتفجر ، وعلى نحو مستمر ، ضربا من العدوانية والنزوات والغضب .

والانثى الصرف ستكون برقة هائلة لامتمايزة ، وآلة تكاثر كملكةنحل . فلكي يصبح الذكر رجلا والانثى امراة ، لا بد ، اذن ، من ان يتصف كل منهما « بشيء من الاخر » .

فالانوثة والذكورة سلوكان واتجاهان ، واسلوبان في التصرف ازاء الظروف ولدى كل موجود انساني في كل لحظة ، كمية معينة من الطاقة ، وينبغي له ان يسوسها ويستخدمها كما يفعل ذلك مع راس مال مالي . وتوازن الانسان او عدمه ، وعطالته او فاعليته وصحته او مرضـه ، وتحقيق الشخصية او تشوهها ، يكون وفق استخدام الطاقة استخداما جيدا او رديئا ، وادارتها ادارة حسنة او سيئة ، جمعت او شتت . وهذه الطاقة لا جنس لها ، وليست من ماهية الذكر كما يظن الناس . والظن ان الانوثة دون استطاعة خطأ ، وذلك ان المراة تمتلك الطاقة . ولا بد من التمييز ان الطاقة التي لدينا شيء وطريقتنا في استخدامها شيء آخر . وثمة اتجاهان ازاء الطاقة :

الاتجاه الاول : ان نحتجز الطاقة فينا .

الاتجاه الثاني : ان نحرر الطاقة خارجنا .

من الجوهري ، أن نفهم جيدا أن الانوثة والذكورة مصطلحان ليس لهما علاقة ، على الاطلاق . لابد انيكون الموجودالانساني رجلا او امراة . والمسألة ، هي ، مسألة اتجاهين ازاء الطاقة ولسوء الحظ إن النساء

أضفوا الصفة الجنسية على الطاقة، مما أدى الى تصور خاطىء للمرء فيقال: الانوثة = سلبية . الذكورة = فاعلية . الا أن الناس لا يميزون بين السلبية والعطالة في اذهانهم . فالسلبية الحقيقية حالة من الراحة والانتظار . ومن التوتر التدريجي المتنامي . حيث يجمع الموجود طاقاته بنية القيام بحركة من الحركات لوضع هذه الطاقة موضع الفاعلية .

فالسلبية = شحن الطاقة او الطاقة الكامنة .

والفاعلية = تفريغ الطاقة ، او الطاقة الحركية .

ولدى كل موجود انساني هذا الايقاع في داخله .

وتخطيطية القطبية ( قطبية الأنوثة والذكورة ) توضح لنا ما يجعل منا ذوي صفات سوية او ذكرية ازاء الظروف . وفي هذه التخطيطية : القطب المؤنث ( الانوثة ) يشتمل فينا على ما هو في حالة من الاسترخاء . الراحة والسكون . الانتظار . السلبية . وعلى كل ما بالقوة . ومايجمع الطاقة الكامنة . وما يعد لعمل خارجي معين .



أما القطب المذكر ( الذكورة ) ويشمل فينا كل ما هو : في حالة حركة أو فاعلية ، أو بالاحرى ، في حالة من بذل الفاعلية ، وما هو بالفعل وما يفرغ الطاقة المجموعة ، وما يتصرف خارجيا على نحو معين .

ولا يمكن أن يكون المرء في وقت واحد سلبيا يجمع الطاقة وايجابيا يفرغها . ويمكن للمراة ، شأنها شأن ، كل كائن حي ، أن يتبنى اتجاهين امام الظروف .

آ ــ الاحتفاظ ( تجميع الطاقة ) ويكون اتجاهها هذا اتجاه الأنوثة .

ب ــ تحرير ( تفريغ الطاقة ) ويكون اتجاهها هذا اتجاه الذكورة .

وهذان الاتجاهان مشوهان على الغالب لدى المراة . فالأنوثة غير متميزة عن الضعف والتبعية ، والخضوع الخ . أما فيما يخص ذكورتها ،

فانها لا تعرف ماذا تفعل بها . وهذا اذا لم تستخدمها استخداما سيئا جدا .

وهذه التخطيطية تطبق على كل موجود انساني .

القطب المؤنث = استقرار . لا عطوبة ، ديمومة .

القطب المذكر = عدم استقرار ، عطوبة ، آن .

ففي المراة السوية ، القطب المؤنث اكثر استعمالا من القطب المذكر . وفي الرجل السوي القطب المذكر اكثر استعمالا من القطب المؤنث .

وعلى هذا ، فالانوثة ليست ضعفا . انها ليست عاجزة ... الانوثة استطاعة في حد ذاتها ، وتمثل مدخرة الشخصية . واذا اصبحت هذه القوة على الغالب ثقلا مصابا بالعطالة ، بخارا دون قوام ، وذلك ناجم من اسباب عديدة .



الانوثة هادئة بصورة آلية ، لانها سلبية ، فهي موصولة بالواقع مباشرة . انها في حالة التنصت على الاشياء والموجودات ، ومرتبطة بالزمن .

اما الذكورة ، فغير مبدعة . لان الابداعية في الداخل والذكورة خارجية . اذا الانوثة هي المبدعة ، اما الذكورة فشيء زهيد في حد ذاتها ، فهي لا تفعل سوى انها تستخدم الطاقة المتجمعة سلفا .

الانوثة تستقبل الطاقة اكثر مما تصرفها . لذا ، فهي مستقرة ، وداخلية ، ومرنة . واسباب تشوه الانوثة هي دائما ذاتها : رد فعل التربية ، والمناخ العائلي والمعايير الاخلاقية والدينية والاجتماعية . وتجري البنية ، ثم المراهقة فالمراة ، نحو آفاق لم تكن مخصصة لهن قط .

والمهم جدا هو علاقة البنية بامها . اذ انها تواجه منذ بداية حياتها ، شخصية رئيسة هي امها ، ولكن البنية ترفض بصورة « لاشعورية ان

تكون شبيهة بأمها ، وتسرع في ايقاف انوثتها الخاصة وتتبنى اتجاها مناوئا للانوثة . ولكنها بطريقة غير مباشرة ، ترفض انوثتها الخاصة بها . وبالتالي ترفض استطاعتها الخاصة . وينشأ عن ذلك عقد وضروب كف تلتهم طاقتها ، وذكورتها تنحط وان استطاعت ان تجمع الطاقة الكافية .

والدور الاول لعلم النفس الحديث هو أن يعيد لمفهومي الذكورة والانوثة معنييهما الحقيقيين . اما الدور الثاني هو انه ، اذا كانت الانوثة الحقيقية قوة حية لا غنى عنها ، ينبغي لنا ان نشرها خلال العالم .

لا بد من أن تعود للانوثة مكانتها ولكن . ليست المسألة مسألة ضرب من تمرد النساء ضد « قانون الذكر » بل الصعوبة اعمق بكثير : انها خاصة بالحصر والخوف اللذين يشرحان هذا القانون المزعوم . « قانون الذكر » ولا بد من أن نعيد الانوثة الى العالم .



وعمل علم النفس هو أن يحدد لنفسه هدفا : اولا ان يساعد المرأة على ان تكتشف نفسها بنفسها :

ــ أن تصبح ثانية مراقبة وصاحية ، ومنتبهة . وثاقبة النظر وعادلة .

ــ أن مشاهدة لذاتها وللعالم بدلا من أن تكون ممثلة تطبع الاوامر القديمة أو الجديدة بفعل الاثمية .

ــ أن تعيد تنظيم انوثتها بالمعنى الاقوى لهذا المصطلح .

ــ أن تتخذ « بعدا » معينا يتيح لها ان تكشف الاخطاء الحالية وأن تصلحها .

ان اهمية الفصول السابقة تتجلى في كونها تمهد للنظر في وضع الثنائي حاليا . فعندما تقول امرأة لرجل ، أو رجل لامرأة « احبك » . فان المضمون على الغالب : « أحب فيك ما ينقصني » وذلك يعني انهما يحبان نفسيهما حبا شديدا .

ذكاء الانوثة يمتد عرضا ، وذكاء الذكورة يمتد عموديا . أو ليس ذلك ضربا من التكاملية الرائعة التي ينبغي لكل رجل ولكل امرأة ان يحوز عليها . كل في ذاته ؟

ذلك هو موضوع الفصل التاسع : صوب الثنائي .

يعرف ( داكو ) الثنائي بانه : موجودان ، توحدهما الارادة او العاطفة او اي سبب آخر يجعلهما قادرين على ان يتصرفا باتفاق وتعاون مثل : ثنائي من العشاق ، ثنائي من الاصدقاء . والثنائي يفترض الديمومة والوجدانية ( اتحاد بين وجدانيتين ) . وعدو الثنائي هو الخوف من الغير. الحصر من الضياع في الاخر ، او من ان يكون محجوبا بـه .

ولكن ما دور المرأة في الثنائي ؟

سؤالان يوميان ، ان لم يكونا سؤالي كل لحظة ، تسألهما المرأة .

— ماذا يمكن ان اعترض على الرجل الذي يعيش معي ؟

— ماذا اطلب منه ؟

اذا كانت انوثة المرأة ضعيفة وذكورتها عدما من الناحية العملية ، تكون مطالبها في بعض الاحيان لا متناهية وقد جعلتها الغيرة متصلبة ، فلن تقدم لرفيقها سوى الاغلال . ولن تطلب غير ان تكون المركز الوحيد ( المرضي ) لرجلها هي . وعندئذ ، فان الثنائي لا يمكن أن يؤكد ديمومته . انه يمضي من آن لآن ، تحطمه بصورة مستمرة، ضروب من اللوم والخصام، والضغائن الخ . ولن يكون هؤلاء الرجال والنساء ثنائيا .

ولكن المرأة التي لها « حنان الام » ماذا تعرض اذا كانت ذات انوثة قوية ؟ يمكنها ان تظهر نزعاتها الدافئـة . والمتسامحة ، والمسؤولة ، والحفية ، والنشيطة ، والمشاركة . ولكنها ، اذا كانت ذات انوثة مشوهة ، فليس في امكانها ان تعرض غير نزعة حنان الام المشوهة ، وستصبح دبقة

ونزاعة الى الملك ، وسلطوية ، ومدققة ومراقبة . اذا ، فالثنائي لا يتم الا اذا كانت انوثة المراة متحققة وتتصف الانوثة المتحققة بانها : مستقرة ، جلود ، حنون حنان الام ، وقور ، وفيه ، منظمة ، نافذة البصيرة ، بعكس الانثى المعطلة .

الا ان الثنائي قد يقتصر على التكامل الذي لا وجود لتفاهم عميق فيه ، وذلك بسبب التواطؤ اللا شعوري . يسوق (داكو) امثلة كثيرة على هذا التكامل . بل على ضروب من الثنائي السادي ــ المازوخي .

وعقدة أوديب تمثل المرحلة الاكثر حسما في حياة المرأة . وتستمر في التأثير بصورة خفية وعلى نحو لا شعوري طيلة الحياة ، في عدد كبير جدا من ضروب الثنائي .

وتظهر هذه العقدة بوجود كثير منها :

المراة الطفل ــ المراهقة الابدية ــ المراة المتاقضة ــ المراة العدوانية .

ولما كانت الذكورة والانوثة اتجاهين ازاء الحياة ، أسلوبين في ادارة الطاقة ، فلا بد للرجل والمراة ، لكي يحققا ثنائيا عميقا ودائما ، من أن ينميا الانوثة والذكورة الموجودة لديهما ، وسيكونان عندئذ موجودين كاملين في ذاتيهما . فتمتد انوثة الرجل في انوثة المراة وتمتد ذكورة المراة في ذكورة زوجها .

وهكذا ، فبمقدار ما يتحقق الثنائي ، بمقدار ما يكون متين الروابط ، خلاقا مسرورا يتابع طريقه التي تغذيها بالنشاط روح واحدة .

وهناك ، بعض المشكلات التي تصادف الثنائي ، وقد عرضها ( داكو ) في الفصل العاشر وركز بالتالي على ما هو ناشيء من المراة ، ومن جملة الاسباب : البرودة الجنسية لدى المراة ، والنرجسية والمازوخية الخ ...

اما في الفصل الحادي عشر ، يبين ( داكو ) لماذا يصاب كثير من النساء بالحصر ، فيتكلم على البنت المحصورة ، يقول : لا تتصف اي مراهقة بأنها قليلة الشأن . فهي ترغب في الكمال حتى عندما تكون عاطفتها مقموعة ، ومكبوتة ، وملجومة . واذا تابعت الفتاة مسارها دون عارض . حققت ابتداعيتها الشخصية وتعبيرها عن ذاتها ، مستندة الى انوثة متفتحة .

فلماذا ينتهي كثير من النساء الى ان لا يكن العنزة ولا الملفوف ، او أن يكن شبيهات بالرجال ، ومنتصبات بصورةشرسة ضد النساء والرجال، او أن يكن مستجديات للاهتمام والحب . بصورة تعيسة .

وحو ما يسميه ( فرويد ) عقدة اوديب . يقترح ( داكو ) تسمية الوضع الاوديبي وهو وضع ضبابي عسير لدى البنت . فتجد المراهقة نفسها فيه معوقة بصورة واضحة ، قياسا على الصبي الذي يتصف وضعه الاوديبي ، بانه واضح على العموم . وهو وضع لا يجد . من الناحية العملية . حلا في سن الرشد ، على الاطلاق . الا فيما يتعلق بفتيات يتصفن بأنهن متوازنات على نحو فريد . ويتصف الثنائي الذي ينحدرن منه بأنه متحد على نحو يخلو من كل عيب .

ففي ثنائي الابوين المصاب بالتصدع . تثير الام المصابة بالاحباط والتعسة ،ابنتها ضد أبيها ، وتجعل منها متواطئة معها . أو تحتقر الام علنا او خفية ، زوجها امام ابنتها . او بالمقابل ، قد « يثير » الاب ابنته ضد ابنته ضد أمها . وفي جميع الاحوال . يلغى ، معا ، موضوعية البنت ورأيها المستقل .

ويبين ( داكو ) الحالات الاربعة الاساسية للوضع الاوديبي بالنسبة للبنت :

١ ـ المرأة المتفتحة : هذه المرأة شبيهة بأرض تثمر أجود الزرع .

٢ ـ المرأة البائرة : هذه المرأة شبيهة بالارض الطيبة ولكنها بائرة .

٣ ـ المرأة الملتصقة باستطاعة الام : الانوثة في حالة يرثى لها . هذه المرأة مائدة من الناحية الوجدانية . « لدى ماما » ، الى اوامرها التي تبقي هذه المرأة خاضعة في الاغلب. انها تعيش في خوف من رأي الآخرين. انها ميتة من الناحية الوجدانية . وان كانت وديعة والذكورة لديها برقية دون اي استقلال . هذه المرأة شبيهة بالارض المشبعة بالماء حيث ترقد بعض نباتات النيلوفر الليلية .

٤ ـ المرأة العدوانية : وهي ليست امرأة ولا رجلا . انها عدوانية دائما ، ومهتاجة بصورة مستمرة ، ومتمردة ابدا ضد الرجل والمرأة . وضد نفسها . انها في حالة من الذعر العميق ، ولكنها تقنعه بعناية . انوثتها ضعيفة . متصلبة . وذكورتها صعبة المراس . تفرغ شحنتها بضروب قذف من العدوانية . انها ليست اجتماعية . قلما تتزوج ، او تتزوج لأمد قصير . وهي سحاقية تقوم بدور الرجل . صوتها عال وقوي . وتسحق الرجال والنساء بمطالبها التي توحي بالاحتقار ولا احد يحبها ابدا . انها شبيهة بالارض الجافة التي لا تنبت غير الشوك .



ويبين ( داكو ) كيف يمكن للمراهقة ان تصبح امرأة متفتحة . وفي حديثة عن دور الام النوعي : يبين ان انوثة البنت منوطة بانوثة الام على نحو اساسي :

١ ـ دور الام أن تبين لابنتها ، بسلوكها وحده ، ماذا يجب ان يكون موقفها امام الحياة فالام صورة اللاشعور العميق ، صورة « النفس » ، صورة الثقة . والاسلوب الذي تنظر به البنت الى الوجود منوط بالطريقة التي تستشعر بها امها .

٢ ـ دور الاب : فاذا فحصنا الادوار التقليدية ، ادوار الام والاب ازاء المراهقة يرى المرء ان كل شيء خارجي ، واجتماعي ، وقائم على النجوع ، والنجاح ، والمظهر ، وثمة قليل من الاشياء تتصف حقا بانها عميقة ، لسبب مفاده ان الرجال تعلموا أن يكبتوا وجدانيتهم وان يظهروا

قبل كل شيء ناجعين . فدور الاب ، اذن ، هو التأثير على ذكورة المراهقة في التعبير عن ذاتها تعبيرا خارجيا .

٣ــ دور الثنائي : في نهاية المطاف ، يعني من الناحية العملية :

آ ــ ان اي فتاة لا يمكنها ان تحقق كلية وجدانيتها اذا كان ابواها لا يكونان ثنائيا موحدا من الناحية الوجدانية ، ملتحما بعمق . واذا لم يكون الثنائي « شخصا واحدا في اثنين » .

ب ــ ان دور الام فوق انساني على وجه التقريب ، فعليها اولا ، أن تمنح ابنتها انوثة قوية ، وهي ثانيا ، تقوم مقام الصاروخ الحامل ، فتضع ابنتها في مدار ابيها ، وفي الوقت اللازم ، ويغذي الاب ابنته وجدانيا . ثم انه لكي تكمل الصورة ذاتها ، يساعدها على أن تشغل محركاتها الخاصة وتترك المدار على نحو مستقل .



وبذلك تنجح المراهقة في امتحان عقدة ( أوديب ) بالحد الاقصى من النقاط . وبوسعها الآن أن تدخل حياة الرشد . انها امرأة فتية متوازنة ، فرحة بالحياة ، قادرة على الابداع داخليا وخارجيا ، وقادرة ، بصورة خاصة ، على أن تكون ، بدورها ، « ثنائيا وجدانيا » مع رجل . ولن يكون هذا الثنائي ، اياه ، بحاجة الى ان نتمنى له حظا سعيدا .

ويحاول ( داكو ) في الفصل الاخير المسمى ( من هي ) ان يقدم خلاصة لكتابه تطرح رأيه في ماهية المرأة . وهو يتوج بهذا الفصل كتابه . فيحاول ( داكو ) تعريف المرأة ولكنه ، يجده امرا صعبا ، ذلك انه لا يمكن الاحاطة باحساسات الحياة ، الاحساسات الواردة التي تتصف المرأة بأنها المؤتمن عليها بفعل طبيعتها . ومن المتعذر حصر المرأة بقوانين دقيقة . الا ان ( داكو ) يعرف المؤنث بأنه : لا متمايز ، لا صورة له ، انه يجمل ،ويحيط ، ويتكيف ، انه صبر ، انه يلاحظ ، ويهتز ، ويلتقط ، ويصغي ، يتلقى الرسائل الاشياء ، انه وضوح ، ونفاذ بصيرة ، وفطانة .

ومن خلال بحث ( داكو ) عن المراة والعاطفة الشخصية ، والمراة والزمن ، والمراة والرجل ، وذكاء المراة ، يعرض لنا رأيه في ماهية المراة :

أولا ــ المراة والعاطفة الشخصية :

ــ النساء لا يبالين بالمجردات . لن تستخدم اي امراة ، على الاطلاق، التعبيرات العامة الجاهزة التي تتصف بأنها ، بالنسبة اليها ، فارغة من المعنى ، مثل : الشرف ، والواجب ، والعمل ، والاخاء ، والمنطق ، والعقل الخ . فالمراة مشخصة . قريبة من الاشياء والواقع ، لانها هي هذا الواقع . والمراة شخصية اكثر من الرجل بما لا يقاس . وكونها شخصية يعني انها تمارس الامور المجردة ممارسة شخصية انها تقول مثلا : عملي انا ، بيتي انا ، وواجبي انا ، ومنطقي انا ، في حين يقول رجل : «الوطن» وهو عاجز ، على الغالب ، عن ان يوظف في هذه الكلمة اي قيمة وجدانية. فيحاول عندئذ ان يحيط بالعاطفة ، والطبول والابواق . ولكن « الوطن » يبقى بالنسبة اليه فكرة .



واتصاف المراة بالصفة الشخصية يجعلها تضفي الصفة الشخصية على كل شيء . فليس لديها نظرة اجمالية عن المصورة . في حين ان الرجل يكتفي بنظرة عامة ، ويهمل الخاص . وهذا شأنها مع العدالة على سبيل المثال : تضفي المراة الصفة الانسانية على المجردات . ان بامكان احد الرجال ان يدافع مخلصا ، دون ان يدرس « موكله » ؛ في حين ان احدى النساء السويات تكون عاجزة عن تطبيق عدالة ما دون أن تعرف الوجه الانساني لمن هو موضع الاتهام ، لانها ترفض اللاشخصية في الكلمات والافكار .

وموقف المراة من العمل لاينشد عن المبدا . فهي تفر منه عندما تحس بأنه عمل غير شخصي واذا كان العمل المطلوب منها عملا غير شخصي ، سولت لها نفسها أن تدور نصف دورة وهي تفكر بـ « بيتي الخاص بي »و « أسرتي الخاصة بي » . انها ترغب في أن تجد ثانية عالمها الدائري ،

والمنحني . والمغلق كبطن دافيء . والعمل في ذاتــه لايعنيها ، الا اذا كانت تعمل مع أناس تحبهم .

ثانيا : المرأة والزمن : المرأة بفعل بنيتها ذاتها ، تعيش في الحاضر ، وتستشعر الحاضر كما لا يستطيع اي رجل في العالم ان يفعله .

وزمن المرأة . تنظم الظاهرات الداخلية ايقاعــه . فالمرأة ملتحمة بالزمن . وجسمها تذكير دائم وهي ملزمة بأن تضــع نفسها في مــوقف الاصغاء للحياة . لحياتها هي . في الواقع ، اذ ان كل شهر يحدث فيها ، الطمث والعادة الشهرية . وبفعل بطنها (الحمل) تتصف بأنها تابعة للزمن . ولاتتلقى الاوامر من الخارج ، بل من داخلها هي . والصبر شقيق الزمــن ، يصبح مألوفا بالنسبة اليها . تقول احدى النســاء : ــ الصبر ؟ انــه لدينا من الكثرة ، بحيث يمكننا التعسف في استعماله دون ان يكون ذلك مطعنا كبيرا لنا .



ــ الصبر غايتنا .

ــ حملي عدة مرات علمني الصبر .

واذا كانت المرأة هي الزمن والصبــر ، فهي الانتظار . يقول بعض النسـاء :

ــ كل امرأة زوجة بحار ، فهي تنتظر العودة .

ــ تتيح لي امكانياتي في الانتظار ان اصغي الى الموجــودات والحياة .

ــ نستطيع ان ننتظر من نرغب زمنا طويلا .

ثالثا : المرأة وحاجتها الى النظام :

ــ حرب الجوارب : « انــه ، يترك جواربه ملقاة في كل مكان ! فهــل يحسبني خادمة عليها ان تفعل كل شيء .

ـ المرأة والنظام شيء واحد . فهي لاتستطيع ان تعيش في الفوضى . فالنظام حياتها . والفوضى ترعبها . وهي ، لهذا السبب ، تصاب بالاكتئاب عندما تبدل منزلها ، ذلك ان التبديل قطيعة مع نظام ثمال في التشخيص . وعالم هؤلاء النساء انما هو النافذة على اليمين والكوب على الى الشمال الخ .

ـ والمرأة من منطلق حاجتها الى النظام ، تدافع عن الاخلاق بوصفها تفرض النظام على السلوك الانساني لابوصفها كلمة مجردة كما يتعامل معها الرجال .

وهذا يبين بوضوح ، ان الاتهام الذي يوجهه بعضهم الى المرأة بانهـا لا اخلاقية امر بعيد عن الصدق فالاخلاق المجردة لاتسترعي اهتمام المرأة، لانها لاتوقظ اي صدى وجداني لديها .

رابعا : المرأة والرجل موجودان لايرتد احدهما الى الآخر :



ـ المرأة حكيمة ، والرجل مغامر .

ـ الرجل بحاجة الى اضفاء الخارجية على ذاته والى القفز والكشف . وله نزعة اساسية الى الترحال . وبحاجة الى التعجب المتحمس بمشروعاته وحماساته وانجازاته . هذه حال غزاة يوم الاحد ورواد الافكار الضائعة في لحظاتهم الضائعة . وقد كانت طفولتهم زاخرة بالاحلام ، وانقرضت كل ابداعية بين الاضابير والآلات المغفلة الخ . فهم يفكرون بيوم الاحد الآتي بلهفة ، ليستعيدوا رغباتهم ، رغبات الطفولة وهم الآن ينظرون أن تمر الايام وتنقضي الليالي ، وتنتهي رتابة الحلم البشع . وهم يعملون من اجل البيت الصغير ، والحمام الصغير والتقاعد الصغير ، والموت الصغير . ويقولون في انفسهم : انهم سيستردون طفولتهم وسيستردون اخيرا هذا العمل الخلاق الذي كان يلازمهم منذ زمن طويل . ذلك ان الموجود الذي لايبدع ابدا ، موجود ميت .

ولكن الرجل بحاجـة شديدة في بحوثـه وانجازاتـه ، الى نظرة عميقة من المراة ، انـه بحاجة الى مساهمة زوجية ، لانـه يبحث عـن الحماسة التي تردد صدى حماسته . انه يرغب في ان تشاطره زوجته فرحه بالعمل الرائـع .

غير ان المراة قادرة على ان تجندل الرجل وهو في كل انطلاقته . فماذا يحدث لو ان المراة لم تمد تملك الحماسة ؟ لو أن دهشتها انطفات ؟ لـو انها اصبحت عاجزة عن اللعب وهي تبدع ؟ انها عندئذ تفقد خيالها عندئذ مسمرة بحاضر نفعي ، وتسقط في نزعـة واقعية باردة ، وتخنق عندئذ ابداعية الرجل .

ومع ذلك ، تستطيع المراة ان تنقذ الرجل بفضل نفاذ بصـيرتهـا « المرعب » . تقول المراة ماينبغي ان تقول ، وتفعل ماتقتضيه الحكمة ان تفعل . او كذلك ، انها تحس ، وهي تعرف الطبيعة الحقيقة للامور معرفة لاشعوريـة ، باخطار ضلال الذكر ، بالقصور في كلامه الذي يفضي بصورة حتمية الى القصور في أفعاله . فجراة المراة الانثوي يمنحها التصاقـا بالطبيعة . والمراة ملتحمة بالواقع . فالمؤنث في المراة ، انتولوجي يكشف الاشياء في ذاتها ويضرب صفحا عن الظاهر والمراة هي الشاهد الطبيعي للضعف الانساني .

والمراة قادرة على أن تعدل ذمة المركب ، اذا كانت المراة العاديـة والمتفوقـة قادر على اكتشافات ضلالات الرجال ، او يكون دورها ان تقوم هذه الضلالات . فالرجل ينزلق نحو مجردات ومفهومات خالية من الحياة . واذا كان الرجل « ينتقل » سريعا بين الافكار ، فمن المتحمل ايضا ان يهرب منها ، وأن يضيع مغمورا بها ، ولايعود يحس بشيء .

فالرجال بنوا عالما من الاشياء ، عالما من الموجودات بدءا من انفسهم هم . لقد كبتوا وجدانيتهم ولكنهم يجهلونها مادام الكبت يهدف الى الاحتفاظ بها مطمورة . وتلك انما هي آثـار طفولة اجهضتها أم . فصورة الام ،

الصورة الذهنية المثالية ، ابتلعت كل شيء والمؤنث فيهم مختلط بأمهم وبطفولتهم التي يكرهونها . هذه الام علمتهم الخوف من الوجود .

ولكن . لنفاذ بصيرة المراة وجه آخر : فقد يغير نفاذ البصيرة اتجاهه، ويغير هدفه ، وينعطف نحو الظلام ، وينجمع بغية التدمير بدلا من ان يكون بناء . عندئذ . يصبح نفاذ البصيرة لدغة . ونكدا . وتهكما الخ . ونفاذ البصيرة المناوش صورة من صور حرب الفوار ، حرب لامتمايزة والعدو غير مرئي ، وضبابي ورخو . وهذه الحرب المفضلة لدى العديد من النساء . والقصد المبطن سلاح آخر لكثير من النساء ، فقوامه كلام خداع . وغريات وكلام مبطن . ويتمثل ايضا في رسائل مغفلة والصمت، والتسميم المادي والمعنوي . وهذا . هو ثانية رمز الماء بمظهره السلبي. وغني عن البيان ان القصد المبطن هو دائما صنع النساء والرجال الذين انحطت انوثتهم .

خامسا : ذكاء المراة . الجنسان لايمكن ان يكونا على درجة قصوى من الحساسية مثلما يكونان حول موضوع الذكاء . وكل فرق بين الرجال والنساء يتم تاويله على انه فرق في الكيف ويتردد مباشرة بمصطلحات الدونية أو « التفوق » ويقال ان الرجل يفكر بطريقة مجردة . والمراة بطريقة مشخصة . وكذلك فالناس ميالون الى ان لا ياخذوا بالحسبان غير النتائج المرئية يسمونه الذكاء .



ان أن ( داكو ) يقترح تعريف ( رافيسون ) للذكاء وهو : يشير الذكاء الى المعرفة الحديثة المباشرة بقدر ما يشير الى المعرفة التصويرية والاستدلالية ويقول : أولا يبدو أن هذا التعريف يجعل المراة والرجل على وفاق ؟

الرجال والنساء انبثوا من حالة لاشعورية عميقة . والنوعان : نوع الذكور ونوع الاناث لامتمايزان وبرقيان وكامنان . وعلى هذه الحياة العامة انما تتكون فقاعات فتصبح نساء ورجال وذكور او اناثا معا.

بالنظر الى ان كل فرد يحتوي على نسبة اكبر او اصغر من « الانوثة » و « الذكورة » .

ان كل امراة سوية تمتلك جزءا مؤنثا راجحا ( القطب المؤنث )وجزءا مذكرا ( القطب المذكر ) والجزء المذكر يختار على النسبة التي تبقى .

الانوثة والذكورة اتجاهان ازاء الحياة ، وطريقتاه في الاستجابة للظروف . فكيف يعمل ذكاء كل من هذين القطبين ؟

ان ذكاء الجزء المؤنث في الذكاء الاجمالي للمراة ذكاء دافيء لان اتجاهات المراة اتجاهات التلقي والسلبية واضفاء الداخلية ، ومؤلف من احساسات وحدوس ، ويتصف بانه متلق ، انه هوائي و « يوصل » بالوجود . ويتسم بانه لامتمايز . اما ذكاء الجزء المذكر في الذكاء الاجمالي للمراة فمؤلف من محاكاة شعورية . ويتصف بانه صلب ومرسل . وهو الذكاء البارد . فالذكاء الدافيء هو ذكاء القطب المؤنث من المراة ، والذكاء البارد هو ذكاء القطب المذكر للمراة .



ولما كانت المراة تمتلك القطبين الانثى والذكر ، وهما متصلان ؛ واحدهما ينفتح على الآخر ، فان ضربا من الانتقال الحر بين الخزانين (الجزء المؤنث والجزء المذكر ) امر لاغنى عنه لذكاء اجمالي .

ولكن ، قد يحدث ، غالبا ، عند بعض النساء ان يسد المعبر بين الخزانين نتيجة صدمات خلال الطفولة والمراهقة . ويمنعهن ذلك من التعبير عن آرائهن وشخصيتهن ويضللن دربهن ، خلال عقدة أوديب . فالموازين تقلب والامور تعكس عندما تتشكل سدادات بين الخزانين كان يكون خزان الذكر غير مستخدم ، او ان الذكاء الدافيء منضغط في اناء مغلق ، لاقدرة له على الانتشار في خزان الذكورة او اذا كان هذا الخزان ملوثا .

هذا فيما يخص الذكاء والمراة . اما فيما يخص المراة والمنطق . فهل المراة ينقصها المنطق ؟ هل هي متقلبة كالهواء ؟ وكذوبة ببراعة ؟

ان القول بأن الانوثة منطقية او غير منطقية لاينطوي على اي معنى. لان الانوثة تلتقط مثل الهوائي فهل الهوائي منطقي ؟ انه في حالة اصغاء ، ويتلقى الرسائل جملة من غير تنظيم ، ومختلطة ومميزة ودون اصطفاء . وفي لاتمايز كلي . ان الانوثة لاعمل لها مع المنطق ، لان المنطق ينتمي الى القطب المذكر . ويصدر الجزء المذكر من امراة محاكمات منطقية . اما جزؤها المؤنث ، فلا يفعل ذلك ابدا .

ويطلق الرجال على المراة القابا : مخيخ عصفور ، دوارةهواء،معبودة الخ . ولكنهم نسوا انهم يحسبون المراة تفكر حسب منطقهم هم ، الامر المتمدر لاختلاف في الطبيعة . اما الاتهام بالكذب فالمقصود به أن المسألة مسألة كذب بالقياس الى المعايير الاجتماعية . ولكن الحاجز الذي يفصل بين الجنسين هو الاخلاق « الفلسفية » المتصفة بانها متعالية ومطلقة . بعبارة اخرى . مجردة وعقلانية ، وغير محسوسة . والانوثة لا تستشعر هذا الجانب المجرد العام من الاخلاق الفلسفية المذكرة .

سادسا : يولد الرجل مرة ثانية منها :

ليس ثمة امراة لاتحسب ان رفيقها هو « طفلها » قبل كل شيء .ذلك ان المراة تفكر براسها اقل بما لايقاس مما تفكر بواسطة الدائرة الوجدانية الواسعة التي يمثلها بالنسبة اليها بطنها . لذا . فان الرجل اي رجل يمكن بواسطة المراة ان يولد مجددا ، يوما بعد يوم او ان يموت .

بوسع الام ان ترتبط الى الابد بطفلها بعد ان يخرج منها ، وبوسعها ان تجففه في مكانه.وما تفعله الام بولدها يمكن ان تكروه مع رفيقها ، فهي

تحتفظ بـه كفنان يحتفظ بلوحته . ولها نزعة ان تتكد على موجود منذ ان يصيبه الضعف والحرمان والجراح ، منذ ان يصبح طفلا مرة ثانية. فالرجل يتلاشى ويفنى في المراة ، ويصبح في بطنها هي ، ويكف عن ان يتظاهر بأنـه رجل ، ترعاه وتحميه كأنـه طفل . وتستحيل المراة عندئذ الى ام راعية ، مهتمة تحاول ان تمد الآن بالحب اطول فترة ممكنة .

وهكذا تسهر المراة على الرجل . انها الحامية في معارك الرجال انها تتركهم يقولون ولكنها تصمت . انها الاصغاء والصمت والانتظار . فهي القادرة وحدها على ان تجدد الرجل ، وبالتالي ان تجدد العالم .



تعليــق :



وجدنا من خلال هذا العرض الملخص لكتاب المراة هذا ان ( بيير داكو ) يعتمد في التحليل النفسي على ثلاثة تيارات : تيار ( يونغ ) ، تيار (فرويد) والتيار ذي المنحى الاجتماعي .

يرى ( داكو ) ان الكائن الانساني يتالف من قطبين اساسيين هما : قطب الذكورة وقطب الانوثة . فلدى كل كائن انساني – في رايه – طبقتان للبناء الانساني ، بينهما طابق الانوثة .

فالطابق الاسفل يشكل حالة من الفوضى واللاتمايز . او هي تلـك الحمأة التي تنطلق منها فقاعات الانوثة والذكورة .

اما الطابق الاول فهو طابق الانوثة التي هي اعداد ( فاعلية داخلية ، لا صورة لها ، ولا متمايزة ، وفي حالة انتظار ، وتجمع الطاقة وتلتقط ، وتستشعر وتلم الاحساسات من أجل هدف ) .

الطابق الثاني هو طابق الذكورة التي هي انجاز ( فاعلية يتم التعبير عنها في الخارج ، ذات صورة متمايزة ) .

فالقاعدة الاساسية هي الانوثة . ثم تليها الذكورة التي هي التعبير الخارجي عن الانوثة والابداع . الانوثة استطاعة لامتمايزة ، واستطاعة كامنة ومستقرة ، طاقة مجمعة . اما الذكورة فانها شيء زهيد في حد ذاتها . فهي لا تفعل سوى ان تستخدم الطاقة المتجمعة سابقا . وكل اظهار الى الخارج ــ جسمي او فكري ــ ليس سوى محصلة . الذكورة ، اذن ، لا تفعل سوى « التصنيع سواء كان الامر بصدد عمل فني رائع ام عزيل . فهي ليست متصفة بالعبقرية على الاطلاق انها مجرد العامل المنفذ للانوثة ( الحياة الداخلية ) . وبذلك ، فالذكورة انجاز نهائي . وهي المعبر الخارجي عن الانوثة . لذا ، فمن الواضح ان بناء الشخصية منوط بمتانة الطابق الاول ، طابق الانوثة وباستطاعته .

نجد ، اذن ، ان الانوثة في رأي ( داكو ) هي الاساس على الرغم من اقراره بوجود القطبين ( الذكورة والانوثة ) لدى الانسان .



وبذلك ، يقف ( داكو ) موقفا معارضا لفرويد الذي يعتبر الذكورة هي الاساس . ففرويد وان كان يقول بوجود ثنائية ذكرية وانثوية في الفرد ، الا انه يجعل الذكر هو الاساس ، وعليه يبني نظرته الى المرأة ودونيتها . ويبني نظريته ، كذلك ، في العقد ، وخاصة ، عقدة الخصاء عند الذكور . بل يبعد فرويد اكثر فيعتبر الانوثة عدما من الناحية العملية .

ويخالف ( داكو ) ، كذلك ، ( يونغ ) الذي نظر الى الشخصية الانسانية على انها تتكون من ( ديالكتيك ) الذكورة والانوثة دون اسبقية احداهما على الاخرى .

يرى ( يونغ ) ان في الرجل انوثة ، هي الشريكة الداخلية له . وهو في اتفاق معها حتى انه يبحث عن المراة طوال حياته . وهذه السمة

الانثوية التي يحملها الرجل في ذاته يسميها ( يونغ ) الـ « انيما » . وللانيما جزء متصل بصورة الام . وتظهر الانيما وجود نموذج الانوثة في الرجل تماما كوجود المورثات الانثوية التي تبني في الجسم الذكري هيئة انثوية ضامرة على صورة ( هيرما فروديت ) التي تحوي . في الوقت نفسه . سمات ( هرمس ) وسمات ( افروديت ) .

وبالمقابل . تمتلك المرأة صدى داخليا يخالف شخصيتها التي يجسدها . فحياتها النفسية متسمة بسمة ذكرية تعدل انوثتها . وبذلك، فان طبيعة الرجل تستلزم المرأة وطبيعتها فيزيائيا ، تماما ، كما تستلزمها نفسيا . وفي الرجل قابلية نفسية سابقة على وجوده للالتقاء بالمرأة التي ينظمها ويسوّغها .

فالذكورة والانوثة ، اذن ، هما انموذجا هذه الوحدة الازلية . فهما تخلقان في الفرد صدى مزدوجا خنثويا . ويظهر ( الدياليكتيك ) بين الذكورة والانوثة ، بين كائنين متحابين ، ظاهرة اسقاط نفسي في غاية الجودة فالرجل الذي يحب امرأة « يسقط » عليها كل القيم التي تقدس منها انوثتها . وكذلك « تسقط » المرأة على الرجل الذي تحبه كل القيم التي تريد ذكورتها الحصول عليه .

تتحدث ذكورة كل منا الى انوثتها الخاصة بها ، مثل شاعر يناجي ربة الفن . بل ان انوثة كل منا تعيش في تناغم لطيف مع انوثة الآخر ( هذا راي يونغ في الثنائي الذكري الانثوي ) . بينما تتعارض الذكورة ، ( شقاء المرأة والرجل في ان الانوثة تحولت الى ذكورة وقام التعارض بين الذكورتين ) .

هكذا ، نرى ، حسب راي ( يونغ ) ان تجديد العالم ليس منوطا ، فقط ، بالمرأة وحدها ، كما راى ( داكو ) ، بل منوط بالرجل والمرأة معا. منوط بتناغم الذكورة والانوثة على قدر سواء .

**دمشق ١٩٨٤**

## فؤاد الشايب وتجربة البحث الاختصاصي في "المعرفة

د. حسام الخطيب



## الإنسان وعلم النفس: تأليف كتاب أم تجميع نصوص؟

نجوى قلعجي

# فـؤاد الشـايب وتجربـة البحث الاختصاصي في "المعرفة"

د. حسـام الخطيب



ـ قلق نفسي وكتابي :

كان فؤاد الشايب نموذجا للمفكر القلق ، واذا كان يصح ان يميز انسان بصفة نفسية واحدة فان السمة المميزة للشايب هي القلق .

وكان هذا القلق الكتابي او الابداعي او الفكري او الفني ـ سمه ما شئت لانه يصح بالنسبة للحالات المتنوعة لتجربة الشايب ـ مصحوبا بقلق ( وظيفي ) او ( حياتي ) لان هذا الرجل الكبير كان دائما يبحث عـن ( الموقع ) الافضل الذي يستطيع من خلاله ان يؤدي الرسالة الثقافية ـ القومية التي ندب نفسه لها بطبيعة شعوره بمسؤولية المثقف العامة ازاء مجتمعه ووطنه وامته ، وربما ازاء الانسانية جمعاء .

وليس هذا القلق الذي تمكن من مفاتيح نفسية الشايب هو موضوعنا الان ، ولكن ــ استكمالا للفكرة ــ يمكن ان نقول ان التفسير الاجتماعي لهذا القلق يأتي دائما ومثبتا للتفسير النفسي الذي اكتفينا بالوقوف عنده حتى الان .

فالشايب ، الذي ولد عام ١٩١١ وبدأ الكتابة عام ١٩٣٠ ، كان دائما صورة لتقلبات مجتمعه وهموم أمته ، ففي الثلاثينات من هذا القرن كان المجتمع العربي ــ في سورية وربما في غيرها من اقطار المشرق العربي ايضا ــ يتطلع سياسيا الى الاستقلال والوحدة ، واجتماعيا الى الدخول في المشروع الاجتماعي الحضاري المعاصر ، وكانت تغلب عليه الثقافة الادبية الشعرية التقليدية المتوارثة من القديم والمحمية من قبل الطبقة الارستقراطية او الاقطاعية السائدة ، وفي الوقت نفسه كانت حياة المجتمع العربي السوري تسلم نفسها بالتدريج الى منافسة شديدة على السيادة من قبل الطبقة البورجوازية الناشئة التي حملت لواء التطور والتحديث والانفتاح في مواجهة التقليدية الاقطاعية ، وهو موقف استهوى المثقفين الشباب الذين لم يكونوا جميعا بالضرورة من ابناء البورجوازية او قريبين منها ولكنهم وجدوا في صحفها ومجلاتها واوساطها الاجتماعية والرسمية فرصة مواتية لعرض افكارهم وتطلعاتهم القومية والثقافية والادبية .

وكان هؤلاء المثقفون ــ والشايب رائدهم ونموذجهم ــ يتسابقون الى الاتصال بمناهل الثقافة الحديثة ، المتمثلة في الثقافة الاوربية وقتذاك ، كما كانوا تواقين لتطوير الادب العربي والفكر العربي بما يخدم متطلبات المجتمع العربي الناشيء .. ولم يكونوا ، كمثقفين ، يمثلون موجة طبقية منسقة ، كما ان مجتمعهم كان ما يزال في بداءة طريقه نحو التنظيم العام ودقة الاختصاص وقوة القانون الاجتماعي ..ثم انهم كانوا روادا قليلي العدد ، ونتيجة لهذه العوامل ولعوامل اخرى نفسية تختلف من واحد لاخر ، وجدناهم منذ الثلاثينات حتى الخمسينات على الاقل ، يحاولون التصدي لمختلف جوانب المسألة الثقافية من خلال شعور ــ ربما مضخم ــ

بالمسؤولية الفردية الشاملة . وهكذا كان على مثقف موهوب مثل فؤاد الشايب ان يجرب فنا جديدا هو القصة القصيرة . وان ينشيء مجلات او صفحات ادبية في المجلات . وان يضع اسسا لنقد ادبي متفتح ، وان يحاول كتابة المقال السياسي والاجتماعي . وغير ذلك .

وكانت الخمسينات فترة استقلال وفترة توثب وفترة تغير اجتماعي شديد . كما كانت فترة صدام سياسي ايديولوجي اجتماعي بين القوى التقليدية والقوى الجديدة . ووقف فؤاد الشايب في هذه الفترة حائرا ـ سواء على المستوى السياسي ام على المستوى الثقافي ـ واعلن منذ مطلع الخمسينات عدم ثقته بكل ما كتب في مجال القصة القصيرة ، وبشر بتحوله الى فن الرواية ونشر فصولا من روايته الموعودة ( اوراق موظف ) ، ولكنه لم يكمل الشوط . وانغمس في بعض نشاطات الكتابة السياسية التي كان قد بدأها في مرحلة الاربعينات بل قبل ذلك . ثم جرفه تيار الحماسة للوحدة العربية وقيام الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ . فأعطى كل جهوده في نهاية الخمسينات للعمل الوظيفي ـ السياسي . وطفق ( يعمل ) و ( يقول ) بقوة واندفاع من اجل تثبيت الحلم الوحدوي الذي حمل له تباشير تحقق اهداف قومية غالية على نفسه طالما غنى لها وعزف على اوتارها .

ولكن ( الانفصال ) يعاجل الوحدة بضربته المفاجئة (١) . ويعود الشايب الى زاوية الثقافة الدافئة . ويستطيع بما كان له من مكانة ثقافية ووظيفية أن ينشيء مجلة ( المعرفة ) في شهر آذار ١٩٦٢ وان يحقق من خلال الصورة التي رسمها لها الكثير من طموحاته العريضة المتنوعة . ها هو في كلمة الوداع ( يقيم ) تجربته ( **المعرفة** ) بصريح العبارة :

---

**(١) اكثرنا التركيز هنا على مرحلة الستينات وتجربة الشايب في البحث الاجتماعي من خلال ( المعرفة ) . ويحسن أن نذكر القارىء بضرورة ربط هذه المرحلة بما سبقها من أعمال الشايب .**

« واذا كان في الوظيفة ايام جميلة ، فقد كانت ايام ( المعرفة ) اجمل الايام حقا . وحسب ( المعرفة ) احسانا الى من كانوا في خدمتها ، انها في حرم الفكر حولت العلاقة بين الموظفين الى علاقة بين اخوة واصدقاء . واحيانا كان وزراء يجالسوننا في الحرم كزملاء ، وقد وضعوا ايديهم على ركبهم وانصتوا ، ويتركون بين ايدينا اوراقهم كانهم لدينا محررون . فتطيب نفوسنا لمظاهر احترام الفكر – ولطالما كانت مظاهر مفتقدة – وان تكن قد غدت في كثير من الظروف اعمق من مظاهر ، واجمل من مجاملات(١) » .

## ( المعرفة ) صورة تحقق الشايب :

ولكن ، لماذا وكيف كانت ( المعرفة ) صورة تحقق الشايب .

مبدئيا ، يكشف لنا هذا النص المقتبس ان الشايب خلف ( المعرفة ) وهو راض عن حصيلة عمل خمس سنوات فيها لان الية العمل فيها كانت مقبولة ، ولان مكانته كرئيس تحرير لها ، كانت محفوظة ، ولان مناخ العمل فيها اتاح له امتدادا ثقافيا نفسيا اوسع من ( المدى المجدي ) لموقع وظيفة رئيس تحرير في مجلة شهرية رسمية ، ولسنا نعرف فترة من حياة الشايب رضي فيها عن نفسه مثل هذه الفترة .

ولكن المسالة اعمق من ذلك نفسيا واجتماعيا . فمن الناحية النفسية الخالصة اتاحت المعرفة للشايب ، بطبيعة المخطط الذي رسمه لها ، ان يحقق عن طريق الاشراف والتوجيه ما لم يستطع تحقيقه عن طريق العمل المباشر . ذلك ان ( المعرفة ) تصدت لمختلف المسؤوليات الثقافية التي كان الشايب يحمل – دون جدوى كبيرة – للتصدي لها طوال العقود الثلاثة السابقة لانشائها . اي ان الاداة الثقافية الجماعية الان تتولى عمل

(١) الشايب ، فؤاد ، « وقفة على الرصيف » ، المعرفة ، كانون الثاني ١٩٦٧ ، وهو مقال الوداع .

المثقف الفرد . ومنذ البدء قسم الشايب ( **المعرفة** ) الى ابواب وزوايا اراد لها ان تغطي جميع الاهتمامات المنتظرة لمثقف مسؤول في مجتمع متطلع الى التحضر والتطور .

لنأخذ احد اعداد المجلة في سنتها الثالثة ، اي بعد استواء خطتها . وليكن العدد الثامن والعشرين ( حزيران ١٩٦٤ ) ، وهو اختيار مصادفة . فماذا نجد ؟

**الباب الاول** : دراسات عسكرية قانونية اجتماعية انسانية ، اي باب العلوم الاجتماعية والانسانية .

**الباب الثاني** : شعر ونقد ولغة وقصص موضوعة ومترجمة ومسرح وفن ، اي باب الاداب والفنون بالمعنى الواسع .

وهناك زوايا ثابتة هي :

ـ كتاب الشهر ( كان دائما كتابا اجنبيا غير مترجم ) .
ـ مقابلات المعرفة .
ـ رسائل المعرفة .
ـ النقد والرد .
ـ في المكتبة العربية .
ـ القصة العربية ( عرض وتعريف ) .
ـ كتب جديدة في المكتبة العالمية .
ـ وثائق الفن .
ـ الصحافة الادبية العربية .
ـ السينما .
ـ المسرح .
ـ منجزات العلم .
ـ مهرجانات ادبية ( تأبين العقاد ) .
ـ جولة الشهر مع تيارات الفكر العالمي ( لرئيس التحرير ) .

بعد هـذا كله ماذا يبقى للصحافة الادبية اليوميـة والاسبوعية ؟ وللمجلات المتخصصـة ؟ ولكن لماذا هـذه الاسئلة ؟ ان موضوعنا الحالي ليس مجلة ( المعرفة ) من الناحية الفنية ، ولكنه تجليات الاهتمامات الكبرى للشايب في صورة المجلة الشهرية . ها هو الرجل الكبير الطموح ذو الاهتمامات المتعددة المتطابقة مع الاهتمامات الثقافية العامة لمجتمع بأكمله . ها هو يتحقق تحقيقا ملموسا وشبه تام .

نعم كان فؤاد الشايب يتحقق من خلال ( المعرفة ) ، ان رصانة البحث يجب الا تعفي المرء من ان يتذكر كيف كان الشايب يدير المجلة ، وكيف كان يتصل بالكتاب . وكيف كان يقترح الموضوعات ، وكيف كان يصغي للمقترحات ، وباية يد مرهفة كان يتناول المواد ، وباية عين وامقة فاحصة كان يقرأ كل ما يرد الى المجلة ، وباي حنو كان يتلقف العدد الجديد مـن ( المعرفـة ) . وباية لهفة كان يسأل عن انطباعات الكتاب والقراء حول مادتـه .



واذن فقد حققت رئاسة تحرير ( المعرفة ) للشايب ما لم يستطع تحقيقه بنفسه . هذا من الناحية النفسية . اما من الناحية الاجتماعية فيمكن القول ان ( المعرفة ) التي ظهرت في اول الستينات كانت تمثل بدء انتقال المجتمع العربي في سـورية من الثقافة التقليدية الى الثقافـة المعاصرة . ومن الادبي الى العلمي ، ومن الخيالي الى العملي . وكذلـك بدء تطلعه للانتقال من النظري الى التقني . ومن الفردي الى الجماعي ، وكان موقف الشايب دائما يمثل نفس الشايب المتوثبة وروح المرحلـة الاجتماعية في آن واحد . ومن هنا رسم خطة ( المعرفـة ) في حدود ما احس به من الحاجةالاجتماعية . وتكشف كتاباته المتعلقة بالمجلة انـه كان يعرف طبيعة المرحلة الاجتماعية التي تخاطبها ( المعرفة ) ، بل اكثر مـن ذلك كان يعرف ان حاجات هذه المرحلة متطورة ، ولا بد ان تقود في النهاية الى بروز مجلات متخصصـةتحل محل المجلة الثقافية الجامعة . ومـا اجمل ما عبر عن هذه الفكرة في وقفته الوداعيـة على رصيف سنوات ( المعرفة ) الخمس :

« لست انوي ان اقدم تقريرا للدولة او للقراء عن مسيرة ( **المعرفة** ) خلال خمسة اعوام . ولست ازعم ان ( **المعرفة** ) في شكلها ومحتواها هي الزي النهائي لمجلة ثقافية عربية . انني لا اومن بالنهائي ، في كل ما قد أتى وما سيأتي . لانني اومن بواقع التطور والتقدم والحرية . فاذا قال قائل ان جمع ابواب اربعة بين دفتي مجلة واحدة ، لن يبلغ بأحد الابواب مستواه المنشود . ان كما او كيفا . فالقائل ليس مخطئا . اذن وجب على وزارة الثقافة ان تصدر بديلا عن ( **المعرفة** ) ثلاث مجلات يشعر الوسط الثقافي حقا بفارغ الحاجة اليها . مجلة للاداب والفنون ، وثانية للعلوم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وهي علوم المجتمع الراقي ، او الذي بيت العزم على ان يكون راقيا ، نظريا وعمليا ، في النصف الثاني من القرن العشرين . وثالثة للبحوث القومية والتاريخية (١) .

والجدير بالذكر ان الشايب لاحظ في ( وقفة على الرصيف ) ايضا ان تجارب المجلة الجامعة ذات الطابع المصري مع حاجات المجتمع العربي السوري له نظائره في اقطار عربية اخرى . واكد ريادة ( **المعرفة** ) في هذا المجال وهي حقيقة تاريخية من الانصاف ان ينوه بها المرء وان يثبتها في الاذهان . يقول الشايب :



« وبعد ... فقد كان من حظ المسكين بقلوبهم وراء التجربة ، ان وصلت من الاقارب والاباعد ، اصداء نجاحها ، او قبولها على الاقل قبولا متفائلا ، في المحيط العربي قبل المحيط المحلي . ونقل سفراء الدولة في بعض المناسبات بعض هذه الاصداء الطيبة . واذا جاز لي ان اسجل هنا بعض معلومات دعائية .. قلت انه قد صدرت خلال الاعوام الخمسة هذه خمس مجلات ثقافية عربية جامعة ، على طراز ( **المعرفة** ) شكلا ومضمونا ، اعترف القائمون عليها ، تلميحا او تصريحا ، ان ( **المعرفة** ) السورية كانت نموذجهم . عندما اقدموا على تنفيذ مشروعاتهم . ولقد صدرت هذه

(١) صدقت نظرة الشايب وظهرت في سورية خلال السبعينات مجلات عديدة متخصصة ، وعن وزارة الثقافة بالذات صدرت مجلة ( الحياة المسرحية ) و ( الحياة السينمائية ).

المجلات في الجزائر ، والمغرب ، وتونس ، ثم في العراق ، واخيرا في الاردن ، وكانت كلها ترديدا لشعور عام بالحاجة الى مثل هذا النموذج المفتقد من المجلات الثقافية العربية » (١) .

## انقلاب ذاتي في موازاة الانقلاب الاجتماعي :

ومن الواضح ان فهم الشايب لطبيعة المتطلبات الثقافية للمرحلة لم يكن سطحيا ولا عابرا . وكذلك لم يكن مقصورا على تصوره لوظيفة المجلة الثقافية الجامعة وانما كان يضرب عمقا في طبيعة فهمه لمسؤولية المثقف الاجتماعية . ومن هنا لم يكتف بأن تكون **( المعرفة )** صورة التغير الاجتماعي بل اراد لفكره ان يكون طليعة هذه الصورة . فكان انتقاله ، بعد عام ونصف فقط من توليه رئاسة التحرير ، من عالم الادب الى عالم البحث السياسي الاجتماعي الاقتصادي . واتى انتقاله قصديا وواعيا وشبه نهائي . وما كان ذلك — كما تشهد جولاته الادبية الاولى الدسمة — ما كان ذلك عن قصور او شعور بالتعب او التخلف عن الركب ؛ وانما كان عملية تجاوب مع متطلبات المرحلة الاجتماعية الجديدة من جهة وتلبية لنزعة باتجاه البحث والدراسة والتنقيب ولدت مع ولادة موهبة الشايب . وكانت تطل عن نفسها في شكل فورات مفاجئة كلما اتيح لها ان تنفذ من خلال اراهير التألق الادبي التي كانت تزين واجهة موهبة الشايب وتفوح عطرا وطيبا .

وليس في يدنا — على الرغم من قرب العهد — اية وثيقة تشير الى ان انتقال الشايب هذا صدم المجموعة المثقفة من حوله . وليس في جولاته ايضا اية اشارة الى ان ايا من الناس اخذ عليه انه انتقل من البستان الفواح الى المقلع القاسي المغبر . بل على العكس من ذلك نستطيع ان نقول — اعتمادا على الخبرة الشخصية — ان ( المعرفة ) لاقت قبولا ممتازا

---

(١) الاقتباسات السابقة من مقالته الوداعية ( وقفة على الرصيف ) ، المعرفة ، كانون الثاني ١٩٦٧ ، السنة الخامسة ، ص ٢١٦ — ٢٢٧ .

في الستينات وان ( جولات الشهر ) التي كان يقدمها رئيس التحرير كانت مادة مقروءة . وقد تعمدنا الا نصفها بانها كانت رائعة ، او مثيرة ؛ وليس في صحافة المرحلة ولا في صفحات **( المعرفة )** نفسها اصداء ايجابية واضحة لهذه المادة على ان استمرار الشايب في تقديمها على مدى سنين . وابتاله في البحث وميله بالتدريج الى الاقتصار على هذا المنحى دون غيره من مناحي الكتابة ، وانقطاعه النسبي عن الاسهام في المشهد الادبي ، كل ذلك يشير بوضوح الى ان الشايب كان متأكدا من جدوى ما يقدمه الى قرائه ، ومن حسن تلقيهم لهذا النتاج . ولعله لا يصح ان ينسى المرء أن هذا الانقلاب في موقف الشايب من الكتابة كان مواكبا تماما لانقلاب سياسي اجتماعي شديد الاهمية في حياة سورية المعاصرة ، وهو ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ التي طرحت مفهومات سياسية اجتماعية جديدة ، وادخلت بالتدريج تغييرات جذرية في حياة القطر على طريق الاشتراكية ، وربما أهم من ذلك كله بالنسبة لموضوعنا عجلت في تطور المجتمع العربي السوري باتجاه المعاصرة وادخلت في خضم الحياةالاجتماعية ـ الاقتصادية قطاعات وفئات من الناس ـ ولا سيما من الريف ـ كانت تعيش على مدى قرون سابقة في زوايا هامشية منسية من حياة المجتمع . وترتب على ذلك ثقافيا نشوء حاجات موازية وتطور قيم وتقنيات جديدة . ويكاد انقلاب الشايب الكتابي يكون موازيا تاريخيا وفكريا لهذا الانقلابالاجتماعي الكبير في حياة سورية العربية . وان لم يكن متطابقا معه بالضرورة .



## انتقال قصدي :

من المهم جدا التأكيد ان انقلاب الشايب كان قصديا وواعيا ومدروسا ، ذلك ان الشايب لم يكن رجلا هينا في مجال وعي الذات . وكانت حاسباته الذهنية تعمل دائما في حالة طاقة قصوى Full Capacitg . و تشير مقابلة له مع مجلة **( الجمهور )** في نهاية عام ١٩٦٥ الى انه كان يعرف ما يريد بالضبط من وراء هذا التحول . كما ان التفسير الذي قدمه بين يدي هذا التحول يدعم بقوة التفسير الذي تقدمه هذه الدراسة والذي يعتمد على ركيزتين: نفسية واجتماعية.

يقول الشايب بهذا الصدد :

« ... يشعر الكاتب او المثقف عامة في محيط كمحيطنا ان عشرات قد يحلون محله في التأليف القصصي . وقد يكونون اكثر براعة واوسع جمهورا . وبعكس ذلك فانني اشعر ان كل مثقف اعدته ثقافته لمعالجة البحوث الاجتماعية والسياسية التي تتناول . كما قلت . حياته المادية والذهنية . يجب ألا يتردد في افادة مواطنيه من بحوثه وتجاربه » .

واذن يتحدث الشايب هنا عن « مسؤولية » اجتماعية للكاتب في اختيار حقل الكتابة الاكثر جدوى في مرحلة معطاة . وهذا كلام ربما يفوق كل ما ذكرناه سابقا حول شعور الشايب « المضخم » بالمسؤولية . على انه ـ كالعادة ـ يريح الناس من تبعات الاستنتاج ويكشف عن موقفه بمنتهى الوضوح . فبعد هذا التصريح يضيف الشايب انه تبنى موقفه الجديد نتيجة حافزين اثنين :



ــ الحافز الثقافي : وهو متعة القراء « الخاص » او الفردي »(١) مع تثاقفات الدول والشعوب .

ــ الحافز القومي : وهو تلبية لشعور المثقف بالمسؤولية (الاجتماعية). وبالطبع لا يستطيع دارس الشايب الا ان يتذكر هنا مواقفه السابقة من فن القصة . وكنت اوضحت في بحث « القصة عند رواد الشايب » كيف انه كان ينظر اليها نظرة استصغار من خلال برجه الثقافي الرفيع ، ويؤكد النص الحالي ان هذه الفكرة توطدت عند الشايب . وصرفته بالتدريج عن كتابة القصة ؛ وفي هذه المقابلة بالذات يصرح الشايب انه لم ينقطع تماما عن كتابة القصة ، ولكنه توقف عن النشر (١) .

---

(١) ما بين القوسين اضافة تفسيرية من قبلنا غرضها التذكير بما اوردناه آنفا عن ازدواج تفسير انقلاب الشايب .

(١) انظر مقابلته في مجلة الجمهور ، عدد ٥٩٤ ، ص ٢٣ ، ٤ / ١١ / ١٩٦٥ .

وكنا اوضحنا في موقع سابق انه حاول ان يرتقي من القصة القصيرة الى الرواية . ولكن تجربته مع ( فن النفس الطويل ) لم تثمر .

وهكذا يقدم لنا فؤاد الشايب مثلا مثيرا لتواصل تجربة ذاتية الكاتب الثقافية مع التجربة العامة للتطور الاجتماعي بشقيه المادي والمعنوي .

## جولة خاطفة مع الجولات :

واخيرا يصل بنا المطاف الى جولات الشايب ابتداء من العدد الاول من ( **المعرفة** ) بدات ( جولة الشهر ) للشايب . ولكنها كانت ذات طابع ادبي بادىء الامر . كانت بانوراما ادبية شاملة تلخص بعض ابرز تطورات المشهد الادبي في العالم . وكانت منتقاة بحنكة وذوق . وكان عرضها شيقا . وكانت سلاستها الظاهرة تخدع كثيرين من الاغرار عن الجهد الحقيقي والوقت الثمين اللذين أهرقا من اجل تحضير كل جولة .

وبعد سنة واحدة ، بدات تختلط الاهتمامات الادبية والثقافية بالاهتمامات السياسية والاجتماعية ، وما هي الا شهور بعد ذلك حتى حدث التحول الكبير من خلال جولة الشهر الثامنة عشرة(١) ـ ، اذ أجرى رئيس التحرير مراجعة لمسيرة ( **المعرفة** ) واكد ان ( **المعرفة** ) ملتزمة بتشجيع العلوم الاجتماعية . ولكنها تدعو المفكرين العرب الى عدم الاكتفاء بالاخبار عن تطورات هذه العلوم وغيرها في البلدان المتقدمة وانما الى التصدي لتجربتنا الاجتماعية المعاصرة من خلال منطوق هــذه العلوم . وشكا شكوى مرة من عدم تجاوب المثقفين العرب مع هذه الدعوة .

وتبع ذلك العدد التاسع عشر ( ايلول ١٩٦٣ ) ومنه بدات دراسته للراسمالية ، عربيا وعالميا ، وتتالت بعد ذلك الجولات تدرس تطورات المجتمعات الحديثة سياسيا واقتصاديا وايديولوجيا . وتحاول ان تحيط

(١) **المعرفة ، العدد ١٨ ، آب ١٩٦٣** .

بأهم التجارب العالمية في التغيير الاجتماعي . وفي التخطيط وفي التوحيد السياسي . وفي التوعية الشعبية . وفي التحرر السياسي والاجتماعي . وهكذا كان ان شملت الجولات تجارب الاتحاد السوفياتي ويوغسلافيا والصين . وتجارب بلدان افريقية وآسية واميركا اللاتينية . والتجربة الفرنسية في التخطيط . ووقفت طويلا عند ظاهرة الثورة الكوبية . ومن زعماء آسية وافريقية الذين تناولهم الكلام تفصيلا . نهرو وسوكارنو وجوليوس نيريري وليوبولد سنغور وأحمد سيكتوري ونكروما وموديبوكيتا ومادبراكيتا وبافيمي اوولوو . وازيكيوه وغيرهم .

وقد التزم الشايب الموضوعية في عرضه للتجارب العالمية المختلفة . وكان يقدم أولا انباء هذه التجارب ، ثم ينتقل الى شيء من التحليل . مستخدما حسه السليم ومنطقه في المناقشة . متوقفا عند الامور العامة . لا الاختصاصية . مقتصرا على الحد الادنى من الاحكام والاستنتاجات والتعليقات .



وكان يحرص على تقديم وجهات النظر المختلفة بالنسبة للتجارب التي يكثر الخلاف حول فيمها وتقييمها . من ذلك مثلا حديثه المطول عن التجربة اليوغوسلافية وحرصه على توضيح الانتقادات الماركسية التي وجهها السوفيات لتيتو ، ثم متابعته لتحول الموقف السوفياتي من هذه التجربة . مع اشارته الى استمرار التضاد العقائدي الصيني اليوغسلافي ( حتى ذلك الحين ) . ولا يخفى على القارىء تعاطفه مع التجربة اليوغوسلافية ولكن هذا التعاطف يظل في الحدود الدنيا من التداخل مع موضوعية البحث[١] .

وهكذا يلتزم الشايب جانب الحياد والموضوعية . ولكنه لا يعفي نفسه من المناقشة وتقديم بعض الاحكام حينما استدعى الموقف ذلك . ولا سيما حين تكون التجربة المدروسة ذات صلة بالتاريخ العربي او

(١) انظر ( جولة الشهر ) ، المعرفة ، العدد ٢٦ ، نيسان ١٩٦٤ ص ١٨٦ - ٢٠٥ .

بموقف الشعوب والزعماء من الاستعمار ، وتتفاوت قوة مناقشاته ومداها تفاوتا شديدا . ولعل افضل مثال للمناقشة المستفيضة هو تصديه لآراء ليوبولد سنغور ، سواء في موقف هذا الزعيم الافريقي من الاستعمار ام من الوحدتين العربية والافريقية . وهو يفند آراءه تفنيدا شديدا ويبين خطلها ويستفيض في ذلك استفاضة لا تماثلها اية جولة اخرى ، كما انه يعمد الى استخدام لغة حادة نسبيا تختلف عن مجمل لهجته الهادئة في الجولات .

فها هو مثلا يشير بطريقة مواربة وغير مباشرة ، ظاهرها النفي وباطنها التوكيد : « ان انسانية الرئيس سنغور التي لا تلتقي مع وحدات قارو ية او قومية كالوحدة العربية التي يشير اليها بالذات ـــ انما تلتقي فعلا مع ضرب من التبشير السياسي الفلسفي الغربي بعالمية جديدة يفرضها عصر الذرة ولا قيام فيها للسيادات الوطنية ولا موجب ، وهو تبشير مشبوه ، يدرّع بفلسفة الواقع ، وبتمصير الفكر العالمي ، ليخفي وراءه سياسة اخضاع السيادات الوطنية للضرورة الاستراتيجية العسكرية وقواعدها(١) . . .



وقد احتفظت جولات الشايب بطابعها العام وكان دخولها في التفصيلات متفاوتا ، وظلت طريقة العرض جذابة وانيقة ؛ وقد ظهر تغير واضح على لغة الشايب اذ اتجهت نسبيا باتجاه الدقة العلمية وابتعدت تدريجيا عن العبارات الادبية الجاهزة .

وكان يحرص دائما على اعطاء ملخص لمضمون كل جولة في مقدمتها ، كما يقدم في الخاتمة فكرة عن موضوع الجولة القادمة .

وقد حملت ( جولة الشهر ) لقراء ( **المعرفة** ) معلومات جديدة وبعض التحليلات وأثارت فضولهم باتجاه تجارب الامم ، وخدمت الفرض العام

---

**(١) استغرقت هذه الجولة عشرين صفحة من المعرفة ، العدد ٣٢ ، تشرين الاول ١٩٦٤ ، ص ١٨٦ ـــ ٢٠٥ وننصح بمراجعة النص الكامل .**

للتوعية . ولكنها يصعب ان تصنف في باب البحث الاجتماعي المختص . وظلت ذات طابع ثقافي عام . من امثلة ذلك تعليقه الجميل على ضخامة صناعة التخطيط في الاتحاد السوفييتي :

« ان التخطيط في الاتحاد هو بالواقع اضخم صناعاته الحديثة ، بما فيها صناعة مراكب الفضاء . لان هذه صناعة صراعها مع الطبيعة وحدها، وتلك صناعة صراعها مع الطبيعة والانسان معا . وسيبقى الانسان عقدة العقد امام جراة العلم وطموحه اللامحدود »(١) .

وبالمناسبة نال التخطيط قسطا كبيرا من اهتمام الشابب سواء في العالم الاشتراكي عند السوفييت ام في العالم الراسمالي عند الفرنسيين . وكانت صفحاته عن التخطيط من اجمل ما كتب في الجولات .

ولم يكن الطابع العام لكتابته الاجتماعية ليخفى على ذهن الشابب القصديا لمتوقد الوعي . وقد حاول اكثر من مرة ان ( يوثق ) كتابته ووعد أن يقدم ثبتا بالمراجع ولكنه لم يف بوعده(٢) كما كان يؤرقه بشدة اتصال احكامه بالوقائع اليومية المتغيرة ، مما يضطره باستمرار الى مراجعة استنتاجاته ، وقد اشار في اكثر من مناسبة الى ان هذا العائق حال دون نشر جولاته في شكل كتاب ، وكان ينوي مراجعتها قبل دفعها الى المطبعة ولكن هذا المشروع كمعظم مشروعات هذا الانسان الكبير ـ ظل في حيز القوة ولم يظهر الى عالم الفعل(٣) .

ومن هنا يرجى من القارىء ان يتناول هـذه الجولات على انهـا ( مشروع ) مرتبط بمرحلته التاريخية وظروفه ، كما اوضحنا .

---

(١) المعرفة العدد ٢٤ ، شباط ١٩٦٤ ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .
(٢) في الجولة الرابعة والعشرين مثلا ، المصدر السابق .
(٣) كان الشابب يكثر من استعمال مثل هذا التعبير .

متابعات

# الإنسان وعلم النفس: تأليف كتاب أم تجميع نصوص؟

نجوى قلعجي



« لازال مانعرفه اليوم عن الانسان محدودا بالمقارنة بما نعرفه عن عناصر البيئة الاخرى والعالم المادي والطبيعي » . ربما ظن القارىء وهو يطالع هذا السطر من مقدمة كتاب « الانسان وعلم النفس »(١) للدكتور عبد الستار ابراهيم . انه سيزداد معرفة بالانسان على ضوء علم النفس وستتعمق معرفته بعلم النفس على ضوء تقنياته وكشوفاته من خلال هذه المطالعة . .

لكن الكتاب الصادر في فبراير ( شباط ) ١٩٨٥ يبدو من خلال معالجة كاتبه لموضوعه وكأنه صادر في بدايات هذا القرن وليس في نهاياته من حيث انبهار مؤلفه بعلم النفس انبهارا يفوق قدرته على استيعاب معطيات علم النفس . رغم ان المؤلف شدد في مقدمته على ايمانه بعلم النفس الى حد وصف نفسه :

« ومؤلف هذا الكتاب ــ يؤمن ايمانا عميقا ــ قد لايشاركه فيه الكثير من المتخصصين ــ ان علم النفس هو اساسا علم لفهم الحياة الانسانية بجوانبها المختلفة . ويؤمن ايضا بامكانيات هذا العلم اللا محددة من حيث اثراء معرفتنا المباشرة بالشروط التي تحكم السلوك الانساني وبالتالي توجيه معرفتنا هذه لما فيه نفع للفرد او للجماعات الانسانية المختلفة »

نتوقف عند هذا الكتاب لا لاهميته بل للاشارة الى مسالة منهجية هامة يتجاوزها بعض المؤلفين اما عن قصور معرفي واما عن استخفاف بالقارىء .



يتألف الكتاب من خمسة ابواب : علم النفس : الموضوع والمنهج ــ الانسان وعالمه العضوي ــ الانسان وتطوره في الزمان ــ الانسان والعالم من حوله ــ العقل الانساني . ويتألف كل باب من عدة فصول . فالباب الاول يتألف من الفصول التالية : علم النفس : الوعد العلمي للمعرفة بالانسان . معالم منهجية ونظرية معاصرة في علم النفس . والباب الثاني يتألف من الفصول : المخ البشري كون خفي ــ شبكة الاتصال الكثيفة في داخلنا ــ اساليب التحكم البيوكيميائي في السلوك .. الخ

لكن الكتاب من حيث بنيته المنهجية يتألف من الباب الاول اي القسم الذي يحاول فيه المؤلف على طريقته التعريف بعلم النفس ومن سائر

---

(١) « الانسان وعلم النفس » ، تأليف د . عبد الستار ابراهيم ، سلسلة عالم المعرفة الكويت .

الابواب التي يحاول فيها على طريقته ايضا التعريف بشروط السلوك لـن نتعرض لمناقشة مضمون الكتاب بل سنتوقف وحسب عند طريقته في التقديم ، ذلك لان المعرفة النفسية التي يقدمها هي عبارة عـن تجميع وتلفيق لجهود بعض الباحثين .

انـه يفتتح الباب الثاني تحت فصل بعنوان « المخ البشري كـون خفي » هكذا :

« امكن للاخصائي المشهور في جـراحة المـخ والاعصاب بينفيلـد Penfield ( انظر المرجع ١٤ ) في الثلاثينات ان يجري جراحـات في المخ لعلاج المرضى بنوبات الصرع وقد استخدم بينفيلد اسلوبا فريـدا آنـذاك يتمثل في تمرير تيار كهربائي بسيط في المخ يهدف الى تنشيط بعض المراكز فيه »

ثم يتابـع عرض الآراء :

« وقد حاول احد الاطباء النفسيين الانجليز هـوجـون بـاوبلـي J. Bowlby في سنة ١٩٦ ان يحدد الآثار النفسية للانفصال المبكر عـن الوالدين » .

« لكن طائفة اخرى مـن الباحثين تختلف مع « باولبي » فترى ان حياة المؤسـسـات في حد ذاتها ليست هي مصدر المشاكل ولكن الجـو الاجتماعي الذي تتميز بـه هذه المؤسـسـات هو ـ فيما يبدو ـ صاحـب المسؤولية الرئيسية » .

« ويرتبط الكشف عن مظاهر التطور في هذه الخاصية بـدراسـات ايركسـون Erikson الذي يرى ان التطور النفسي الاجتماعي يبـدا مبكرا في حياة الطفل » .

في الفصل السـابع الذي يحمل عنوان « تجسيد الحلم ومواجهـة النهاية . من الرشد الى الشيخوخة » يقول :

« وفي دراسات حديثة لعلم النفس الاجتماعي ليفنسون Levinson ( انظر المرجع ١٤ ) بين ان الفترة الممتدة من العشرين حتى الخامسة والثلاثين تعتبر فترة تحقيق الحلم بالنسبة لكثير من الشباب »

« اما بالنسبة لنيوجارتن Newgrten ( انظر المرجع ١٧ ) فان الانتقال من المراهقة للنضج يحمل معه بدوره زيادة في النشاطات والخبرات » .

« وقد بين نيومان ونيكولز Newman et Nicols ( انظر المرجع ١٨ ) ان النشاط الجنسي يمكن ان يستمر حتى التسعين حسب الصحة العامة للشخص ، وقدرات الطرف الآخر ونشاطه ( او نشاطها ) » .

نكتفي بهذا القدر من نماذج التأليف التجميعي التلفيقي في هذا الكتاب لنرجع الى المقدمة التي توضح لنا سبب ابتهاج الكاتب بهذه الطريقة التلفيقية التي لاتغني فكرا ولاتضيف الى معرفة .



نتوقف عند المقدمة التي يعرض فيها الكاتب لايمانه العميق بعلم النفس الذي « قد لايشاركه فيه الكثير من المتخصصين » (!) ولايمانه ايضا بأن « دراسة علم النفس لايجب ان تكون كينونا عاليا تقتصر على فئة من المتخصصين الذين يتخذون من قواعد المنهج العالمي غطاء صارما يحرم علم النفس من ممارسة دوره الحيوي الذي نشأ من اجله، وهو فهم الانسان وتطويع هذا الفهم باستخدام لغة يسهل على الآخرين استيعابها واستثمارها » .

« لا ، ولا يجب ايضا ان تكون دراسة علم النفس متروكة لنظريات فضفاضة رخوة تتطاحن من اجل تأكيد مفاهيم لا تستطيع ان تثبت للوقائع او الملاحظات بالرغم مما تثير من عناصر التشويق والاثارة »

يضيق المؤلف بقواعد المنهج العلمي لعلم النفس فيرده دون ان يستطيع نقدا ، راغبا بالخروج كما يقول من اسر النظريات الفضفاضة التي لاتثبت

مفاهيمها للوقائع . فلننظر الى المبادىء التي يحددهـا من ثم لدراسة علم النفس :

« ومن هذا المنطلق نرى ان دراسة علم النفس يجب ان تعتمد على مبدايـن : **الصرامة والتشويق** . الصرامة التي تفترضها قواعد المنهج العلمي الذي اصبح اليوم هو مطمع العلوم الانسانية والطبيعية. والتشويق الذي يجب ان تثيره موضوعات علم يركز على موضوع من اكثر الموضوعات اثـارة للفضول وحب الاستطلاع وهو الانسـان » .

اذا كانت موضوعات علم النفس تثير الاهتمام والفضول لارتباطها بالانسـان الذي يسعى لمزيد من المعرفة بنفسه فان جعل التشويق مبدا لدراسة علم النفس يخرج بلا شك عن ميدان علم النفس . فلنستمع الى المؤلف يقول :

« وهذا ماالتزمنا بـه في اعدادنـا لهذا الكتاب : الذي حاولنا في تاليف مادتـه ان تكون حديثة ومشوقـة ومثيرة للفضول . دون ان نتخلى عن الالتزام بذكر الحقائق والوقائـع التي ساهم في تكوينها علـم ياخذ بالموضوعية وقواعد المنهج العلمي » .



لعله يتوجب على علماء النفس الذين اورد الكاتب اسماءهم في كتابه ان يتقدموا اليه بالشكر والامتنان لانـه بالاضافة الى التزامـه بمبـدا التشويق لم يتخل عن الالتزام « بذكر الحقائق والوقائع التي ساهم في تكوينها علم يأخـذ بالموضوعية وقواعد المنهج العلمي »

يخلط المؤلف بين تاليف كتاب عن علم النفس وبين مبادىء علم النفس وتقنياته . وهذا الخلط ينتج ربما عن رغبة المؤلف بتقديم رؤيـة انسانية جديدة لعلم النفس . يقول في آخر صفحة من مقدمته :

« ولانزعم ان رؤيتنا الانسانية ( هذه ) لعلم النفس هي الرؤيـة التي يتفق عليها جميع علماء النفس . ولهذا فان صياغتي لهذه الجهود ورؤيتي لها هي عمل خاص اتحمل مسؤوليته واخطاءه .

كيف يستطيع الكاتب ان يظن انــه قدم صياغــة جديدة لعلم النفس من مجرد عملية تجميع لجهود بعض الباحثين من مجرد تجميع معلومـات من علم النفس الارتقائي وعلم النفس الفسيولوجي وعلم النفس الاجتماعي وتوزيعها على ابواب يعرض احدها آراء الباحثين في الجهاز العصبي واثره على السلوك . ويعرض الثاني لآراء الباحثين في اثر البيئة على السلوك . ويعرض باب ثالث لآراء الباحثين حول اثر الذكاء والوراثـة على السلوك . الخ .

ويتضح هذا الخلط جليا عندما يحاول الكاتب في الباب الاول التعريف بعلم النفس . بموضوعـه ومناهجه فيفترض جهل القارىء وجهل غالبية القراء من العامـة والمثقفين بموضوع علم النفس ولاجل ان يقدم تعريفا علميا ويصحح الاخطاء الشائعة يقارن بين ما يسميه « النظرة الدارجة » والنظرة العلمية » [illegible] ؟ او النظرة الدارجة لاتميز بين علم النفس والفراسة ، وتعتقد ان المرأة تختلف اختلافا نوعيا عن الرجل .. الخ » والتفكير الذي يتصف به « النظرة العلمية » باشتماله على عناصر مثل الملاحظة المضبوطة والتجربة والقياس » .



صحيح ان الكاتب يتبنى موقف المدرسة السلوكية التي تعتقد ان السلوك الانساني محكوم من الخارج اي من البيئة وكـون الكاتب يتبنى موقف المدرسة السلوكية امر لايعيبه ابدا لكن الذي يفقد كتابــه القيمة العلمية هو اتكاله على دراسات سواء من البحاثـة فان مضمون كتابــه الذي يستقي مادتــه جملة وتفصيلا من دراسات البحاثة السلوكيين يسيء الى كتابــه الذي يريده مؤلفا علميا حين يقدم اولا لنتائج المدرسة السلوكية كنتائج لعلم النفس لاكنتائج لمدرسة من مدارس علم النفس . ويسيء الى علم النفس حين يحصر اهميته بالتيار السلوكي ، ويسيء الى التيار السلوكي حين يقدم كشوفاتــه بطريقة تجميعية تلفيقية تخرجهـا عـن سياق العلمي .

ثانيا . وهذا ماجعل الكتاب مجرد كتاب سطحي رغم بعض اللمعات التي تشير الى محاولة للبحث الخاص والجاد التي تعبر عنها بعض الآراء العابـرة :

« وتزداد ازمة الاحساس بالسن في الدول الصناعية اكثر ـ فياعتقادنا من الدول الشرقية او التقليديـة . ففي المجتمع الصناعي يصبح التقدم في السن عقبة في طريق التوافق الاجتماعي ومصدرا للعزلـة والاحباط. اما في مجتمعاتنا وفي كثير من المجتمعات التقليديـة فان التقدم في السن قد يعتبر مصدرا للحكمة والخبرة . ومن المؤكد ان مثل هذا الادراك للمسنين يلعب دون شك دورا كبيرا في التخفيف من ازمـة الشيخوخـة »

« وتدل خبرتنا في العمل في احدى العيادات النفسية في مجتمـع عربي ان نسبة كبيرة من الشكاوي الزوجية تحدث نتيجة انتقال الزوجة الصغيرة الى منزل الزوج لتعيش مع اسرته واخوتـه في منزل واحـد وما يتبع ذلك من علاقات تمدد ذاتية الزوجـة وبالتالي شعورهـا بالاحباط والمرارة » .

لعل الكاتب يعرف جيدا ـ وهو كما تبين من خلال مراجع الكتاب مؤلف لاكثر من سبعة كتب ـ ان التاليف لايعني التوليف اي المونتاج السينمائي وان كثرة المراجع ( يورد الكاتب ١٧٦ مرجعا موزعـة في نهاية كل فصل فلكل فصل اكثر من ٢٠ مرجعا ) تعني ان الكاتب قارىء ولا تعني بالضرورة انـه مؤلف او عالم .